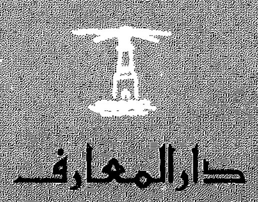
مكتبة الدراسات الأدبية

٩٣

عظماء من مصر

عبد المنعم شميس



دار المعارف



عظماء من مصر



مكتبة الدراسات الأدبية
٩٣

عظماء من مصر

عبد المنعم شميس



دار المعارف

الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

مقـــدّمة

هذه الصفحات القليلة فصل من فصول النهضة المصرية الحديثة ، يضم كوكبة من عظماء المصريين الذين قاموا بدور بارز فى صنع هذه النهضة ، وقد اخترتهم من وسط عشرات غيرهم شاركوهم فى الأعمال العظيمة ، ولم يكن هذا الاختيار بسبب امتياز خاص أو عمل خارق ، ولكنهم يمثلون نماذج فكرية فى مختلف مجالات الحياة وعلى امتداد عصر كامل منذ أيام محمد على حتى اقتراب النهاية لحكم أسرته وقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وهذه الشخصيات تمثل التاريخ الفكرى للشعب المصرى فى العصر الحديث ، وهو تاريخ مبعثر لم يجتمع فى صفحات كتاب برغم أهميته الكبرى بالنسبة لحياتنا اليوم ، بسبب ارتباطه بمعظم القضايا والمشكلات التى يتعرض لها المجتمع المصرى .

إن الدور الذى قامت به كل شخصية من الشخصيات التى تحدثت عنها فى هذا الكتاب ، كان دورًا رائدًا ، وقد وجد كثيرون منهم الحلّ لبعض مشكلاتنا التى نعيش معها حتى اليوم ، مثل تدريس العلوم الحديثة باللغة العربية فى الجامعات ، أو تحديث الشريعة الإسلامية بحيث تصبح القانون السائد فى مصر ، أو جعل الوحدة الوطنية أساسًا راسخًا لبناء المجتمع بحيث يصبح المسجد والكنيسة للعبادة ، وتصبح مصر للجميع .

هناك قضايا كثيرة سيجدها القارئ مع كل شخصية من هذه الشخصيات التى كتبت بعض ملامحها ، ولم يكن هدفى هو كتابة تراجم لهذه الشخصيات بالمفهوم العلمى أو الفنى ، ولكننى كنت أنظر إلى كل شخصية من وجهة نظر تفاعلها مع المجتمع .

وكان هدفى هو محاولة التعرف على مدى تأثير الشخصيات العظيمة فى المجتمع ، وتأثر هذه الشخصيات بالمجتمع ؛ لأن هذا التفاعل هو الذى يحدث شرارة النهضة ، ولذلك فإننى كنت أتصور دائمًا دور هذه الشخصيات القليلة فى كل الإيجابيات والسلبيات ، حتى يصبح النموذج صورة واضحةً بقدر الإمكان توضح لنا شيئًا مما نريد معرفته عن تاريخ الفكر المصرى الحديث .

إن معرفة هذا التاريخ الفكرى إنما هو محاولة لمعرفة النفس ، ونحن فى حاجة إلى معرفة

أنفسنا ، كما أن الأجيال الجديدة أشد شوقًا لهذه المعرفة ؛ ولذلك كانت هذه الشخصيات العظيمة فى تصوّرى شكلاً من الاهتداء لمعرفة النفس . ولست أزعم أن هذه هى الوسيلة الوحيدة ، ولكنها إحدى الوسائل الجادة المثمرة فى هذا المجال .

وأول شىء يمكن استنتاجه من دراسة تاريخ الفكر المصرى هو الثقة بالنفس ، وهذه الثقة هامة جدا ، وهى الوسيلة الأساسية فى بعث النهضة المصرية التى تأخرت عن سلوك طريقها طويلاً بسبب استعلاء السلطة على الفكر ، أو استبداد السلطة بالفكر ، أو قتل السلطة للفكر فى بعض الأحوال .

وسوف يرى القارئ أن الشخصيات التى كتبت عنها ، كانت تمثّل فكرة الثقة بالنفس خلال هذه الفترة التى امتدت طوال حكم أسرة محمد على لمصر ، وماتلا ذلك من قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

ولكن المشكلة فى جوهرها كانت منذ البداية هى الصراع بين السلطة والفكر . وقد امتد هذا الصراع طوال هذه الفترة ، وكان سببًا أساسيًّا فى التخلف الحضارى إلى جانب أسباب أخرى اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية ، وغير ذلك من أسباب لا ترقى إلى السبب الأساسى ، وهو الصراع بين السلطة والفكر .

وسوف ترى خلال حياة هذه الشخصيات العظيمة المؤثرة فى التاريخ المصرى الحديث أن قضية الصراع بين السلطة والفكر كانت أبرز القضايا فى مصر المعاصرة .

ولذلك فإننى اعتبرت هذه التجربة من أعظم تجارب الشعب المصرى ، كما اعتبرت هذه النماذج المصرية الرفيعة التى اخترت شخصياتها بالعقل والقلب معًا من المعالم فى حركة النهضة ، وأعود فأقول إنهم نماذج ، وهناك آخرون غيرهم لهم قيمة مثل قيمتهم ، وقد تكون أكبر وأعظم من قيمتهم ، ولكن الاختيار كان صعبًا عسيرًا ، وكانت مشكلتى هى طرح القضية ، وليس كتابة التاريخ ، وبرغم ذلك فإن اختيارى للشخصية لم يكن حيثما اتفق ، ولكنه كان داخل إطار الفكرة الأصلية ، وهى محاولة معرفة النفس .

وعندما تتعدد الطرق فى محاولة معرفة النفس ، لابد أن تتعدد النماذج التى تلقى الضوء على هذه المعرفة ، فهناك أساتذة فى الرياضيات والفلك والطب والقانون والمسرح والشعر والأدب والاجتماع ، وهم جميعًا على مدى العصر كانوا يمثلون فرقة موسيقية واحدة ، لها نغمة واحدة ، هى التى صنعها محمود مختار فى تمثال نهضة مصر ، وهى التى لحنها سيد درويش فى

نشيد : بلادى بلادى ، وكان المايسترو الذى يقود الأوركسترا هو هذه الشخصية الواقعية الخيالية فى وقت واحد ، وهى : مصر .

إن قضية الانتماء الوطنى المصرى قضية حساسة ودقيقة ، وهى خلاف قضايا الانتماء عند أمم كثيرة ، لم يحدث فيها اختلاط العناصر البشرية كما حدث فى مصر ، فإن الألمان ، أو الفرنسيين ، أو الإنجليز ، أو اليونان ، والطليان ، والأتراك لهم انتماء للوطن والجنس معًا ، ولكن الانتماء المصرى ليس انتماءً لجنس واحد أو أجناس متعددة ، بل هو انتماء للوطن بالدرجة الأولى ، ولذلك أصبح الشوق لمصر أهم من البحث عن الأجناس البشرية التى ، اختلطت وتمازجت وكونت الكيان للشعب المصرى عبر تاريخ طويل يمتد إلى أكثر من سبعة آلاف سنة ، ويحتفظ للشعب المصرى بخصائصه الذاتية المتميزة ذات الجنسية الواحدة والأجناس المتعددة التى امتزجت دماؤها واتَّحدت فى هذا الكيان الواحد الذى يشكل الشعب الواحد .

ولم تكن اللغة من أسس مكونات الشعب المصرى ، فقد تكلم المصريون منذ نشأة الحضارة بلغات شتى : الهيروغليفية وما تفرع عنها من لهجات ، واليونانية القديمة التى كانت لغة رسمية فى بعض الفترات ، والقبطية التى كانت سائدةً قبل الفتح الإسلامى ، ثم العربية التى عاشت فى مصر أربعة عشر قرنًا حتى اليوم .

ومنذ أصبحت اللغة العربية لغة مصر ، احتفظ الشعب المصرى بهذه اللغة ، ولكنه لم يتخذ العربية وسيلةً للانتماء الوطنى ، مع أن هذا الشعب كان أعظم الشعوب العربية فى المحافظة والاحتفاظ بهذه اللغة وصيانتها وتجديدها وتطويرها وإحيائها المستمر حتى تصبح لغة العصر فى العلوم والآداب والفنون ، وسترى فى ملامح الشخصيات المصرية العظيمة التى أقدّمها إليك ملامح هذه النظرة الصائبة فى حياة مصر .

لم يكن تغيُّر اللغات وتبدلها فى مصر سببًا فى عدم الانتماء لمصر ، بل إن العكس هو الصحيح ، فقد تأكد فى العصر الحديث أن مصر العربية هى التى احتفظت بمقومات اللغة العربية فى مواجهة الغزو الأجنبى الذى حاول محو هذه اللغة فى بلاد عربية كثيرة حتى يمحو شخصيتها ، كما أضعف قيمة اللغة العربية فى بلاد أخرى حتى لا تعرف قيمتها .

إن مصر تستطيع التعبير عن نفسها بكل لغات الدنيا ، ولا تفقد فى نفس الوقت كيانها

ووجودها ، ولم يكن فى استطاعة لغة من اللغات أن تغير حقيقة مصر ، كما أن لغة من اللغات لم تستطع السيطرة على حقيقة مصر .

ويكفى أن تدير مفتاح الراديو لتسمع لهجة مصر العربية من أقصى المشرق فى بغداد إلى أقصى المغرب فى الدار البيضاء أو الرباط أو فاس .

حتى تعطيش الجيم العربية خرج من استوديوهات الإذاعة العربية القاهرية مع اعتراضى عليه ؛ لأن الجيم المصرية أصح وأحلى من الجيم البدوية العطشَى لهذا النطق المعقد القاسى ، وقد كان أستاذنا طه حسين يعطش الجيم ، ولكن فى رقة وعذوبة مصرية .

وكان زكى مبارك يرقّق تعطيش الجيم ، ويقول لنا :

– من شرب كوب ماء مثلج من ماء النيل رقت حنجرته فى هذا التعطيش . . لماذا العطش فى لحظات الارتواء ؟ . . . هذه لهجة بدوية صحراوية عَطْشَى تبحث عن الماء .

وكان من هوايات أستاذنا طه حسين العطش والتعطيش ثم الترقق والتنغيم ، فى نغمات الصوت ، حتى يحدث الصعب فى المقارنة بَين صوتين ، وظن بعض أبناء هذا الجيل أن وحشية الصوت هى النغمة العربية فى نطق الجيم .

أما الشيء الغريب العجيب فهو أن بعض اللهجات العربية لا تعرف كيف تنطق الضاد ، مع أن العربية هى لغة الضاد وليست لغة الجيم .

وهذه اللهجات تنطق الضاد بحرف الظاء أو حرف الدال ، ثم يعطشون الجيم ، ويظنون أن اللغة العربية هى لغة الجيم وليست لغة الضاد .

إن مصر هى التى كتبت الحروف برسم الزهور والطيور والأسماء والحيوانات ، وعبرت عن لغة الإنسان ، قبل أن تكون لأى لغة حروف مكتوبة ، وهى لغة منقوشة على الحجر أو على أوراق البردى . وحتى قبل أن توجد الأبجديات .

واللغة بالنسبة لمصر هى لغة الحضارة ، وليست لغة اللسان ، وفى مفهوم الحضارة استطاعت مصر أن تنطق بلغة كل عصر .

ثم بقى اللسان العربى فى مصر ناطقًا للحضارة ، ومعبرًا عن الوجود والكيان المصرى خلال أربعة عشر قرنًا من الزمان . . . وفى فصاحة وبلاغة وبيان .

وبهذا اللسان نطقت حضارة العصر ، لا فى مصر وحدها ، ولكن فى أرجاء الوطن العربى على امتداده ، وكانت مصر هى التى حافظت على هذه اللغة العربية ، وهى أم اللغات فى كل

العصور ، بسبب حرصها على لقاء الحضارات ، وليس فى تضييع القيم والمقومات .

ولذلك كانت قيمة مصر فى المحافظة على وحدة اللغة . أنها جعلت اللغة العربية لسانها ، وجعلتها كيانها أو من صلب كيانها ، وأكدت بذلك أصالة وجودها العربى عن طريق المحافظة على هذه الوحدة اللغوية القومية .

لقد لعب الاستعمار الأوربي بلغة العرب ، فجعلها متفرنسة فى سورية ولبنان . وجعلها إيطالية فى ليبيا ، وجعلها فرنسية فى المغرب العربى ، حتى محاها من الجزائر وجعل الفرنسية لغة رسمية ، ثم كان دور مصر التى رفضت لغة الدخلاء لسانًا ناطقًا على ألسنة أبنائها ، وهى التى تعرف لغات الدنيا فى مخاطبة الشعوب ، فلم يتحول لها لسان ، ولم تستطع قوة أن تغير العربية لسانًا ناطقًا فصيحًا فى مصر التى اشتهرت بمعرفة كل اللغات العالمية . لم تكن لغتها هى لغة الولاء لمصر فحسب ، ولكنها كانت لغة الوفاء للعروبة والإسلام . . . إيمانًا وصدقًا وعقيدة ووفاءً .

وإذا كانت اللغة ليست عنصرًا أساسيًّا فى تكوين الكيان المصْرى ، فإن معنى ذلك هو أن مصر بذاتها وشخصيتها المتميزة تستطيع احتواء اللغات ، وهذه إحدى الظواهر الحضارية فى تاريخ مصر . وكان العنصر الأساسى فى صنع الحضارة العربية الإسلامية فى مصر هو احتواء اللغة العربية بكل علومها وآدابها وفنونها ، وكانت اللغة هى اللسان أو المعبر أو القلم الذى يسيطر على هذه الحضارة ، وليس تعصّبًا قوميًّا أو دعوةً سياسية أو شيئًا مما يشبه ذلك .

وكان الحرص على اللغة العربية بهذا المفهوم الحضارى ظاهرة من ظواهر النهضة المصرية ، وأنت ترى أن أساتذة الهندسة والطب من أمثال على مبارك باشا والدكتور محمد البقلى باشا وغيرهما ، يحرصون أشد الحرص على تدريس العلوم الحديثة وتأليف الكتب باللغة العربية .

وإذا كانت قضية اللغة من أهم القضايا التى استطاع عظماء الجيل الماضى الوصول إلى الحلول الواضحة العملية لكل مشاكلها ، فهناك قضايا أخرى كثيرة تعرضوا لها ، ووصلوا إلى حلها ، أو اقتربوا من الحل الصحيح ؛ ولذلك فإننى أعتقد أن كل شخصية من هذه الشخصيات العظيمة تعتبر تجربةً مصريةً حديثة خلال فترة التقاء الحضارة المصرية بالعالم الأوربى . بعد انتهاء عصر المماليك والترك العثمانيين من مصر ، وقد كان هذا العصر يمثل حاجزًا بين مصر وأوربا بعد سقوط السلطان الغورى فى موقعة (مرج دابق) واستيلاء السلطان سليم بن

عثمان على مصر ، وكان الانفصال قد بدأ فى عصر الغورى عند اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح . وتحول العالم الأوربى عن طريق السويس .

ومنذ حملة بونابرت على مصر ، وتولية محمد على ، عاد الاتصال المصرى الأوربى إلى قوته ، ولم يكن مقطوعًا .

وسوف ترى أن هذا الاتصال كان مصريا عظيمًا ، تمثله هذه الشخصيات التى أقدمها إليك ، وهى العلامات المضيئة فى تاريخ الفكر المصرى الحديث ، وتربطها كلها فكرة واحدة مشتركة ، وهى : المصرية .

وإذا كانت الأجناس البشرية المختلفة ، واللغات المتعددة التى نطقت بها مصر عبر سبعة آلاف سنة ، لم تكن هى التى شكلت شخصية مصر ، ولكن مصر هى التى شكلتها ، فإن موضوع (المصرية) كان منذ البداية هو الاتجاه الفكرى للمثقفين المصريين ؛ ولذلك كانت نظرتى إلى رفاعة بك لم تكن بحثًا عن تأثيره فى الثقافة المصرية الجديدة ، ولكننى نظرت إليه على أنه أول مؤلف لنشيد وطنى مصرى .

وعندما قدمت (عثمان جلال) كمسرحى عظيم ، لم أبحث عن التمثيل المسرحى ، كما ظن بعض الذين أرخوا للمسرح على خشبة المسرح ، ولكننى نظرت إليه كواحد من تلاميذ رفاعة بك المثقفين الذين عرفوا معنى الثقافة ، ولذلك رأيت فى شخصية (عثمان جلال) مسرحيًّا رائدًا نقل روايات (موليير) وغيره من كبار المسرحيِّين الفرنسيين إلى اللغة العربية الفصيحة أحيانًا ، وباللهجة المصرية أحيانًا ، وكانت عيناى على الكتاب لا على خشبة مسرح ، فأنا لا يهمنى اسم أوّل ممثل ، ولكننى أهتم باسم أوّل مثقف . وقد كان (عثمان جلال) أول رجل رفيع الثقافة عرفنا بمعنى المسرح وقيمته فى العصر الحديث .

أنا لا أريد أن أفقدك متعة معرفة هذه الشخصيات العظيمة التى أحببتها ، وأحب أن تحبهم مثلى أنا .

وهناك ظاهرة أخرى تستحق الالتفات ، وهى أن النهضة المصرية الحديثة خرجت للدنيا وعلى رأسها عمامة ، منذ كان الشيخ حسن العطّار الإمام الأكبر وشيخ الجامع الأزهر فى عصره يعلم تلاميذه الانطلاق نحو مفهوم حضارة العصر ، حتى الشيخ أمين الخولى الذى علمنا كيف نتصل بحضارة العصر .

وبين الشيخ حسن العطار والشيخ أمين الخولى ما يقارب قرنًا ونصف قرن من الزمان ،

ولكنهما يلتقيان عند فكرة واحدة ، وهى تجديد حضارة الإسلام عن طريق تجديد الفكر الإسلامى فى مختلف مقوماته الأساسية من ناحية وَصْل العلم والفن بالحياة ، ومن ناحية وصل الدين بالحياة .

إن الجوهر فى هذه الفكرة هو وصل الإنسان بالحياة ، حتى يصبح إنسانًا متطورًا فى معتقداته وتصرفاته ، وفى ارتباطه بالحضارة العالمية التى لا سبيل إلى انفصاله عنها ؛ لأنه . بحكم تكوينه جزء ثابت من مكوناتها ، وليس هناك انفصال بين الجزء والكل فى جميع الظواهر الحضارية .

ولهذا السبب كانت الدعوة إلى اتصال مصر بالحضارات العالمية شرقا وغربا هى الأساس الأوّل فى هذا الاتصال .

وعندما بعث الشيخ حسن العطار تلميذه رفاعة رافع الطهطاوى إلى باريس ليتعلّم ويدرس ، بعث تلميذًا آخر من تلاميذه إلى (سان بطرسبورج – ليننجراد) أستاذًا يدرس ويعلم فى الجامعة ، وهو الشيخ محمد عياد الطنطاوى . أستاذ المستشرقين الروس .

ولعل الشيخ العطار كان يتصور أنه يجمع ثقافات الشرق والغرب فى عقول تلاميذه حتى تحدث النهضة فى مصر .

ولكن الشيخ أمين الخولى كان أكثر طموحًا من الشيخ حسن العطار بسبب فارق الزمن ، ولكن القضية لم تختلف ، فكلاهما كان يدعو إلى النهضة والتقدم ، وهما متفقان خلال قرن ونصف قرن من الزمان على أن أصحاب العمائم هم الذين يقودون حركة النهضة وفى أيديهم كتاب واحد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . .

القرآن . .

إن النهضة لا تحدث إلّا عن معرفة بكتاب الله ، وسبب ذلك هو أن الحضارة الإسلامية منذ كانت كلمة : لا إله إلا الله ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها ، لن يكون لها قيام إلّا بالقرآن .

وقد عرفت نهضة مصر هذه الحقيقة الواضحة ، وتأكدت خلال عصر كامل ارتبطت فيه مصر دائمًا بهذا المفهوم العلمى الاجتماعى الثقافى الذى جعل من هذه البلاد حارسةً على حضارة الإسلام ، وهى التى تحتفظ بقيمها الذاتية التى أمدّت الحضارة الجديدة بكل ما تملكه من حضارات قديمة ، فحدث الثراء الفكرى المستنير الذى أخضع القديم للجديد ، حتى

أصبحت المئذنة مثل المسلة فى سموقها وارتفاعها ، مما جعل مخرجًا عالميا — هو (سيسل دى ميل) يصور المآذن والمسلات فى فيلم تسجيلى كانت أرضه وسماؤه مصر ، وهذا الأمر ليس غريبًا عن التاريخ المصرى فى مفهوم الحضارة ؛ لأن العالم القديم أو الحديث عرف الأعمدة الشاهقة عن طريق أعمدة الكرنك وغيره من المعابد الفرعونية ، كما عرف البشر معنى الحضارة بكل مقوماتها عن طريق مصر .

الزراعة والصناعة والطب والعِلم والأدب والفلسفة كانت فى مصر ، وتعلمتها الشعوب من مصر ، ومن المعروف فى السير القديمة أن (أفلاطون) زار مصر ، وتعلم من كهنة جامعة عين شمس ، وهم فلاسفة وعلماء فى ثياب كهنة .

وحين كتبت عن بعض الشخصيات المصرية فى العصر الحديث ابتداءً من الشيخ حسن العطار ، وانتهاءً إلى الشيخ أمين الخولى ، كنت أتصور هذه الحضارات المتعاقبة التى تصل بنا إلى العصر الحديث ، ولذلك آثرت أن أكتب بعد هذه المقدمة فصلاً عن الفكر المصرى فى العصر الحديث ، وقد أرجع فى هذا الفصل إلى عصور سابقة ، وقد أجمع بعض القيم الحضارية المشتتة داخل إناء واحد ، ولكن هذا التفكير لا يبعدنا عن الحقيقة ، فأنا لا أهتم كثيرًا بالتسلسل التاريخى ؛ لأننى أعتقد أن الفكر الواحد يستطيع فهم الكيان الحضارى لشعب مثل الشعب المصرى فى إطار فكرة واحدة تضم حضارات قديمة وجديدة داخل هذا الإناء الواحد الذى أحب تسميته بالمصرية .

وكان اختيارى للشخصيات التى كتبت عنها لا يبعد عن هذه الفكرة ، وهى كما قلت لك ليست إلا نماذج عظيمة تشعبت أفكارها فى اتجاهات متعددة ، كان هدفها هو إعادة صنع الحضارة فى وطن هو صاحب أول حضارة .

وكانت الأدوار التى قامت بها هذه الشخصيات العظيمة مما يؤكد قدرة الصفوة المثقفة القادرة على مسايرة كل تيارات الحضارات العالمية فى عصرنا الحاضر ؟ وهذا هو معنى العبقرية المصرية القادرة على الدوام لمواصلة الحياة .

إن هذه العبقرية القادرة فى ذاتها تمنح الأجيال الجديدة من الشباب قدرةً حقيقيةً للفكر المصرى الذى يستطيع مسايرة كل تيارات التقدم العالمى فى كل الظروف ، مما يحتم علينا فى حياتنا اليوم أن نرفض رفضًا قاطعًا بغير جدال أو مناقشة أن مصر من دول العالم الثالث فى حين

نجد إيطاليا واليونان من دول العالم الأول ، وبيننا وبينها بحر كان - ومازال - يجمع حضارتنا القديمة ، وهو البحر المتوسط .

وقضية الحضارة ليست من القضايا الوطنية أو القومية ، ولكنها قضية إنسانية عالمية ، ومصر لا تستطيع اليوم أن تخضع للأفكار المحلية المحيطة بها داخل دوائر مغلقة تدور فيها حتى تفقد ذاتها بسبب الشعارات الخائبة التى لم توصلها حتى الآن إلى أن تصبح دولة فى العالم الأول .

إن رفض الادعاء بأن مصر فى العالم الثالث هو الذى سطّر كل كلمة فى هذه الصفحات ، وليست الأسباب سياسية فى أى مفهوم ، ولكنها أسباب حضارية فى الأصل ؛ لأنه ليس من المعقول أن تكون إيطاليا واليونان من دول العالم الأول ، ثم تظل مصر فى العالم الثالث ؛ لأن دولاً فى العالم الثالث تجرها إلى منطقتها ، ولا تحاول هذه الدول أن تسعى إليها لتتقدم معها إلى العالم الأول .

والحقيقة الواضحة فى حياة مصر اليوم هى أنها تستيقظ لتصبح دولةً جديدةً من دول العالم الأول ، وهى تملك كل مقومات الدول المتقدمة فى هذا العالم ، بل إنها تملك أكثر من هذه المقومات ، لأن عقول أبنائها تشارك فى صنع حضارة هذا العصر فى أمريكا وأوربا .

لقد أحببت أن أعيد لك سيرة هؤلاء العظماء لتعرف أن مصر تملك هذا الفكر الذى يستطيع صنع الحضارة .

وقبل أن نقرأ سير هؤلاء العظماء لى معك حديث آخر فى فصل عن : الفكر المصرى فى العصر الحديث .

هل تأذن لى ؟

. . . .

لك تحية

يناير ١٩٨٢ م .

عبد المنعم شميس



الفكر المصرى
فى العصر الحديث

(١)

من الشخصيات المنسية فى التاريخ المصرى الحديث شخصية محمد بك الألفى الذى أوشك أن ينتزع الملك من محمد على .

هذا المملوك من أعجب الشخصيات وأقدرها أيضًا . . وأنا أحكى لك حكايته بسبب صلته بالفكر المصرى الحديث ، وأعرفك به حتى نستكشف قصة العلاقات والصلات الفكرية بين مصر وأوربا قبل قدوم الحملة الفرنسية التى قادها نابليون بونابرت وهو يحلم بإقامة إمبراطورية الشرق ، فقد شاع خداع أن هذه الحملة هى التى فتحت أبواب الحضارة الحديثة فى مصر .

كان محمد الألفى من مماليك مراد بك الذى انهزم أمام قوات بونابرت فى معركة الأهرام الشهيرة ، وقد اشترى مراد بك هذا المملوك بألف أردب من الغلال ولذلك سمى بالألفى ، وكان جميل الصورة ، صعب المراس ، قوى الشكيمة ، فأحبه مراد بك وأعتقه .

واشتهر الألفى بك شهرةً عظيمة ، وما زال أحد شوارع القاهرة يحمل اسمه ، حيث كان قصره يقع على ناحية هذا الشارع أمام بركة الأزبكية التى ردمها الخديوى إسماعيل وجعلها حديقة عندما أنشأ دار الأوبرا التى احترقت ، وقبل ذلك احترق قصر الألفى فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ فى أثناء حريق القاهرة المعروف ، وكان هذا القصر الجميل العربى الطراز قد أصبح فندقًا هو فندق شبرد .

وقصة هذا القصر من أعجب القصص ، فقد وضع الألفى بك نفسه تصميمه الهندسى ، ورسم له صورة فى ورق كبير ، وأعطى التصميمات لأحد أمرائه لتنفيذها ، وكان هو غائبًا خارج القاهرة ، فلما حضر ، وجده قد أخطأ فى الرسم فاغتاظ وهدم غالب ما بنى ، وهندسه على مقتضى عقله ، وأوقف أربعةً من أمرائه على البناء ، كلّ أمير فى جهة من جهاته الأربع .

وقد وصف الجبرتى هذا القصر وصفًا شائقًا ، وقال : « إن الألفى وضع فيه التحف والأشياء والتحف العظيمة التى أهداها إليه الإفرنج ، وذُكر أنه أهدى إليه من الإفرنج أيضًا فسقية رخام فى غاية العظمة ، فيها صورة أسماك مصورة يخرج الماء من أفواهها ، جعلها فى البستان » .

وذكر الجبرتى أن الأستاذ الفاضل الشيخ حسن العطار الذى أصبح شيخًا للأزهر فيما بعد ، كتب بيتين من الشعر نقشًا بماء الذهب أعلى باب قاعة الجلوس وهما :

شُموس التهانى قد أضاءت بقاعة
محاسنها للعين تزداد بالألف
على بابها قال السرور مؤرخًا
سماء سعاداتى تُجدّد بالألفى

وأقام الألفى فى قصره آخر شهر شعبان ٢١٢ هـ ، وأمضى فيه ستة عشر يومًا حتى منتصف شهر رمضان، ثم ذهب إلى إقليم الشرقية مقر حكمه .

ووصف الجبرتى شخصية محمد بك الألفى ، فقال : إنه بعد أن كان فاجرًا ظالمًا عسوفًا ، ترزّن عقله وانهضمت نفسه ، وتعلق قلبه بمطالعة الكتب ، والنظر فى العلوم والفلكيات والهندسة ، وأشكال الرمل ، والأحكام النجومية ، والتقاويم ومنازل القمر ، ويسأل عمن له إلمام بذلك ليستفيد منه ، واقتنى كتبًا فى أنواع العلوم والتواريخ ، واعتكف بداره ورغب فى الانفراد بنفسه » .

ومن أعاجيب الألفى بك عندما كان حاكمًا لإقليم الشرقية أنه صنع قصرًا من الخشب مفصّلا قطعًا ويركّب بشناكل متينة قوية ، ويحمل على عدة جمال ، فإذا أراد النزول فى محطة تقدم الفراشون وركّبوه ، فيصير مجلسًا لطيفًا يصعد إليه بثلاث درج ، ويفرش بالطنافس والوسائد ويسع ثمانية أشخاص ، وهو مسقوف وله شبابيك من الجهات الأربع ، تفتح وتغلق بحسب الاختيار ، وحوله الأسرة من كل جانب ، وكل ذلك من داخل دهليز .

وعندما كان الألفى فى إقليم الشرقية وصلت حملة بونابرت إلى مصر ، واتخذ نابليون من قصر الألفى فى حى الأزبكية مقرًّا للحكم ، وفى حديقة هذا القصر قُتل الجنرال كليبر بطعنة خنجر من يد سليمان الحلبى .

ثم أصبح قصر الألفى فى عهد محمد على مقرا لمدرسة الألسن التى أنشأها رفاعة بك . . حتى تحول إلى فندق شبرد واحترق يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ كما قلت لك .

وعندما احتل الفرنسيون مصر سافر الألفى بك إلى بلاد الإنجليز ، واختار من مماليكه خمسة عشر شخصًا أخذهم معه . وولّى أحد مماليكه (بشتك بك) – ويسمى الألفى الصغير – مكانه وأوصى أُمراءه ومماليكه بطاعة خليفته ، وسافر وغاب سنة وشهرًا وبضعة أيام .

وكانت رحلة الألفى بك إلى إنجلترا من أهم دلائل الاتصال بين مصر وأوربا ، وقد حدثتك عن صلته بالإفرنج الذين قدّموا له هدايا عندما بنى قصره الشهير ، وذكرت لك ما رواه الجبرتى عن المعارف والعلوم التى كان يهتم الألفى بك بدراستها ، حتى استطاع تصميم رسم هندسى لقصره الذى كان من أجمل قصور القاهرة .

وقد عاد الألفى بك من إنجلترا إلى مصر بعد خروج الحملة الفرنسية ، وكان محمد على قد تولى الحكم ، وكانت عودة الألفى من أخطر الأحداث فى تاريخ مصر الحديث ، فقد أحضر معه أحدث الأسلحة من إنجلترا بعد أن عقد معاهدة فى لندن مع حكومة بريطانيا .

وكان الألفى قد عين له سفيرًا فى بريطانيا ، اسمه (أمين بك) ، الذى وصل إلى الإسكندرية فى عدة مراكب وأشخاص من الإنجليز ، كما يقول الجبرتى ، ثم أصدر أمرًا لسفيره (أمين بك) بالذهاب إلى إنجلترا ، فسافر وأحضر له مطلوبه من السلاح والعتاد ، وكان الألفى بك مقيمًا فى بلدة (حوش عيسى) فى البحيرة ، حيث كان يستقبل الإنجليز ويقيم لهم الحفلات ، ويدرب عساكره بالسلاح الحديث .

يقول الجبرتى : إن الألفى بك شاع ذكره فى الآفاق ، وإن الدولة العثمانية لا تخاطب غيره ، برغم أن محمد على كان قد عينه السيد عمر مكرم واليًا على مصر .

وأعد الألفى بك أوّل جيش حديث فى مصر ، ثم استعد للقاء (محمد على) ومحاربته وعزله ، وإعلان استقلال مصر ، ووصل بجيشه إلى بلدة (شبرامنت) فى الجيزة ، وكان – كما يقول الجبرتى – فى هيئة عظيمة هائلة ، وجيوش تسد الفضاء ، وهم مرتبون طوابير ، ومعهم طبول ، وصحبته قبائل العرب من أولاد على والهنادى وعربان الشرقية .

ووقف محمد على مع عساكره الأرنؤود مذهولاً ، وهو يتعجب ويقول :

– هذا طهاز الزمان . . وإلّا إيش يكون ؟

ولم يستطع محمد على الاقتراب من جيش الألفى بك ، وهو أول جيش حديث أُنشئ فى مصر الحديثة .

ثم حدثت المفاجأة المذهلة التى يرويها لك الجبرتى بكلماته :

« ولم يزل (الألفى) سائرًا حتى وصل إلى قريب قناطر « شبرامنت » ، فنزل على علوة هناك ، وجلس عليها ، وزاد به الهاجس والقهر ، ونظر إلى جهة مصر (القاهرة) وقال : يامصر انظرى إلى أولادك وهم حولك مشتتين متباعدين مشردين ، واستوطنك أجلاف الأتراك وأراذل الأرنؤود ، وصاروا يقتضون خراجك ، ويحاربون أولادك ، ويقاتلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك .

ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله ، وقد تحرك به خلط دموى ، وفى الحال تقايأ دمًا وقال :

– قضى الأمر ، وخلصت مصر لمحمد على ، وما ثمّ أحد ينازعه ويغالبه .

ثم أحضر أمراءه وأمَّرَ عليهم شاهين بك » .

وكان محمد على يقول كما روى الجبرتى أيضًا :

« ما دام هذا الألفى موجودًا لا يهنأ لى عيش ، ومثالى أنا وهو مثال بهلوانين يلعبان على الحبل ، لكن هو فى رجليه قبقاب .

فلما أتاه المبشر بموت الألفى قال بعد أن تحقق من ذلك :

– الآن طابت لى مصر ، وما عدت أحسب لغيره حسابًا » .

وكان الموت المفاجئ لمحمد بك الألفى من الأحداث المثيرة فى تاريخ مصر الحديث ، وقال الجبرتى : إن هذا كان من سعد (محمد على) ، وقد بكت عليه مصر حتى إن بنات العرب اجتمعن لما بلغهن موته ، وَصِرْن يندبنه بكلام عجيب تناقلته أرباب المغانى يغنون به على آلات اللهو المطربة ، وركبوا عليه أدوارًا وقوافى .

لقد حكيت لك كل هذه الحكايات لسببين :

١ – أن اتهام عصر المماليك بأنه ظلم وظلام اتهام باطل ، ويجب علينا إعادة النظر فى تاريخ مصر حتى نصل إلى الحقيقة ، فقد كان الألفى بك يتغنّى بمصر وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، لأنه آمن بأنه مصرى ، ونحن لا نعرف جنسيته الأصلية ، ولا من أىّ بلد جاء . فى حين ظلّ محمد على وكل أسرته – عدا إبراهيم باشا – يتفاخرون بانتمائهم التركى مع أنهم من الألبان وليسوا من

الترك ، وكان سبب هذا التفاخر بالانتماء التركى راجعًا إلى وجود السلطة الحاكمة الكبرى فى اسطنبول عاصمة الخلافة الإسلامية العثمانية .

وعندما اشتدّ طموح محمد على بفضل مصر وعساكر مصر من الفلاحين حتى وصل جيش مصر بقيادة إبراهيم باشا بن محمد على إلى أبواب اسطنبول ، لم يكن (محمد على) نفسه مؤمنًا بمصر ، برغم أنه قال إن أصحاب نعمته هما : الفلاح المصرى والسلطان محمود خان سلطان آل عثمان . لأن ولى نعمته الحقيق كان الفلاح المصرى ولم يكن السلطان التركى ، وقد عبر إبراهيم باشا عن هذه الحقيقة عندما قال إنه مصرى ، وإن شمس مصر هى التى نصرته .

ولكن الملوك من أبناء محمد على ظلّوا على غيِّهم القديم ، يتفاخرون بأنهم أتراك ، مع أنهم كانوا من أهل ألبانيا ، وكانوا يستخدمون اللغة التركية فى مراسيمهم ، حتى أصبح فى قصر عابدين دفتران أحدهما تركى والثانى عربى ، وهذا الازدواج اللغوى لم يكن موجودًا فى عصر المماليك ، فقد كانت رسائل السلاطين المماليك تُكتب باللغة العربية ، وكان منهم شعراء فصحاء بالعربية ، ومنهم السلطان المؤيد ، صاحب الجامع الشهير فى القاهرة عند باب زويلة .

٢ – أن اتهام مصر بأنها عرفت النهضة الحديثة بعد قدوم حملة بونابرت باطل من أساسه ، فقد كانت مصر على صلة دائمة بأوربا ، حتى إن محمد بك الألفى سافر إلى إنجلترا كما رويت لك ، وشكَّل جيشًا مصريًّا عصريًّا بأسلحته المتقدمة عندما كان نابليون بونابرت يسكن فى قصره عند شاطىء بركة الأزبكية فى قلب القاهرة .

لقد اتهم عصر المماليك فى مصر بأنه عصر استبداد وظلم وظلام ، ولكننى حاولت إعادة النظر فى هذا الموضوع بعد قراءات طويلة فى تاريخ سلاطين المماليك ، ثم تاريخ الحكم التركى العثمانى بعد سقوط آخر السلاطين المماليك « الغورى » تحت سنابك الخيل فى موقعة (مرج دابق) على مشارف مدينة حلب ، حيث امتدّ ملكه من مصر إلى الشام وإلى ما يقرب من طرابلس الغرب . وحتى وادى حلفا فى الجنوب . كما كان يبسط سلطانه حتى عدن فى أقصى بلاد اليمن ، وكان الحجاز أيضًا مما ينضم إلى سلطته بسبب الأماكن المقدسة التى كان سلطان مصر يتولى حمايتها .

ثم انتهت دولة سلاطين المماليك فى مصر ، بعد دخول السلطان سليم بن عثمان القاهرة ، وانهزام السلطان طومان باى عن طريق الخيانة والغدر أمام قوات الغزو التركى العثمانى لمصر ، حتى عُلِّق (طومان باى) مشنوقًا بحبل على باب زويلة فى مشهد دراميّ عنيف ذرفت فيه

القاهرة كل دموعها ، حتى اختلطت دموع النساء والأطفال بماء النيل .

ولكن شنق (طومان باى) لم ينه عصر المماليك ، بل إنهم استمروا يشاركون الأتراك فى السلطة ، فقد كان هؤلاء المماليك قد تمصروا ، وكان يحلو لهم تسمية أنفسهم بالأمراء المصريين ، وكان بعض عظماء الفلاحين من أهل مصر يشتركون معهم فى الإمارة أيضًا ، أى فى سلطة الحكم ، وقد روى الجبرتى حكايات كثيرة عن هؤلاء الأمراء الفلاحين الذين كان لهم دور ظاهر وبارز فى الحياة المصرية ، حتى إن أحدهم اتخذ لنفسه لقبًا هو : الفلاح .

وكان هذا الأمير الفلاح مصريًّا قويًّا أبيًّا ، لأنه رفض أن يُباع أطفال الفلاحين من الصبيان والبنات فى سوق الرقيق كما يباع أطفال المماليك من بيض وسود ، وقال كلمته التى أبطلت بيع أبناء الفلاحين فى السوق :

« هؤلاء أحرار لا يُباعون » .

واشترى الأمير الفلاح المملوكى كل أطفال الفلاحين وردهم إلى أهلهم أحرارًا سالمين .

بعد هذه الحادثة لم يجرؤ بكوات المماليك على خطف أطفال الفلاحين من القرى ، وبيعهم فى السوق كما يباع المماليك .

خلال هذه الرحلة الطويلة لم يحدث أن أصبح الطفل المصرى رقيقًا يباع فى سوق ، عندما كانت أسواق الرقيق قائمة فى الشرق وفى أوربا أيضًا ، بل إنها كانت من أروج الأسواق خلال الحروب الصليبية التى قضى عليها سلاطين المماليك بعد انتصارات صلاح الدين فى معركة حطين .

وفى عصر الأمير المملوكى (على بك الكبير) الذى استقل بمصر ونازع سلطان آل عثمان فى اسطنبول ، وكانت له دولة ممتدّة الأطراف مثل دولة السلطان الغورى ، شارك على بك الكبير فى السلطة أميران فلّاحان مصريان ، هما الأمير (سويلم بن حبيب) فى الشمال عند قليوب ، والأمير همام فى الصعيد ، حيث كانت له السلطة ابتداءً من أسيوط حتى أقصى الجنوب ، وكان مقر حكمه فى مدينة فرشوط ، وقد وقّع معه (على بك الكبير) معاهدة سلام .

– إن فكرة إعادة تصحيح التاريخ المصرى تحتاج إلى إعادة النظر فى حقائق هذا التاريخ ، وقد كان أستاذنا الدكتور محمد حسين هيكل قد وضح بعض معالمها عندما ادعى الاستعماريون الإنجليز أن مصر لم تعرف الاستقلال منذ نهاية عصر الفراعنة حتى الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ بعد سقوط الثورة العرابية .

زعموا أن حكام مصر كانوا من الأجانب منذ انتهاء عصر الفراعنة ، وكان ردّ الدكتور هيكل باشا عليهم هو ما قاله من أن ملوك الإنجليز وملكاتهم ليسوا من الإنجليز ولكنهم من الجرمان ، وهذه حقيقة تاريخية ، وقد وجدت إحدى ملكات بريطانيا مدفونة فى كنيسة ألمانية فى قلب ألمانيا ، لأنها أوصت بأن تدفن فى أرض أجدادها .

ولكن آخر ملوك أسرة محمد على – وهو الملك فاروق – أوصى بأن يدفن بعد موته فى مصر ، وقد دفن جثمانه فى مصر بالفعل .

هذه المفارقة فى الفكر هى التى تحدد شخصية مصر .

ملكة بريطانية من أصل ألمانى توصى بأن يدفن جسدها فى ألمانيا .

وملك مصرى من أصل تركى يوصى بأن يدفن جسده فى مصر .

لذلك قلت لك إننا نظلم عصر المماليك ظلمًا كبيرًا عندما نتهمه بالظلم والظلام معًا . . . فقد كان عصرهم هو عصر الظلم ، ولكنه لم يكن عصر الظلام . . . ويجب علينا عندما نفكر فى تاريخ مصر أن نفرق بين الظلم والظلام .

وقلت لك أيضًا إنهم كان يحلو لهم أن يلقبوا أنفسهم بلقب :

« الأمراء المصريين » .

وهذه التسمية فى ذاتها تحمل شخصية مصر .

وبهذا الفكر المستنير دافع الدكتور محمد حسين هيكل باشا عن شخصية مصر ، وقال : إن الحاكم لو كان أجنبيًّا لا يلغى شخصية الشعب الذى يحكمه مادام خاضعًا لإرادة شعبه الذى يحكمه ؛ لأن الحاكم تابع للشعب ، وليس الشعب تابعًا للحاكم .

وخلال تلك الأيام التى ثارت فيها قضية الحاكم والمحكوم ، نشرت مجلة (المقتطف) ترجمة لكتاب عالم بريطانى اسمه (السير إدوارد كيث) ، وهو عالم متشعب الاتجاهات فى الجيولوجيا ، والتاريخ ، والجغرافيا والآثار ، ولكنه فى ثنايا كتاباته كان واحدًا من الاستعماريين الإنجليز ، وقد ادعى أن حكام مصر لم يكونوا مصريين منذ انتهاء عصر الفراعنة على طريقة أمثاله من دُعاة الإمبراطورية البريطانية ، التى وطدت ملكها عن طريق تزييف تاريخ الشعوب الأخرى ، حتى ادَّعى شاعرها (كولريدج) وهو شاعر الملكة فكتوريا ، أن : الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ، وظلّ هذا الشعار قائمًا سنوات عديدة منذ القرن التاسع عشر ، أو قبله بقليل ، حتى القرن العشرين . ونحن نقترب من نهايته ، ولم يعد الحديث عن الشرق

والغرب هو حديث عالمنا اليوم ، ولكنه أصبح حديث الشمال والجنوب . . . الشمال المتقدم والجنوب المتخلف .

القضية واحدة .

كانوا فى عصور الاستعمار القديم يتحدثون عن الشرق والغرب .

وأصبحوا اليوم فى عصر الاستعمار الجديد يتحدثون عن الشمال والجنوب .

ولكن موقع مصر جغرافيًّا وحضاريًّا وثقافيًّا بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ، كان السبب الأساسى فى هذه المواقف التى جعلت الصراع العالمى يحوم ويدور حول مصر .

إن ما حدث فى عصر (على بك الكبير) من تحالفه مع قياصرة الروس الذين أرادوا الوصول إلى المياه الساخنة فى البحر المتوسط ، هو ما حدث فى عهد جمال عبد الناصر عندما تحالف مع السوفيت ، وكانوا يريدون أيضًا الوصول إلى المياه الساخنة فى البحر المتوسط ، أو الوصول إلى قلب إفريقية عن طريق مصر .

ولكن (على بك الكبير) أو (جمال عبد الناصر) لم تكن لهما رغبة سوى استقلال مصر ، وليس خضوع مصر لقوة عظمى من قوى العالم القديم أو الحديث ، وكان الحلف القديم أو الجديد تعبيرًا عن صداقة ، وليس تعبيرًا عن خضوع أو مذلة ، ولم يفهم قياصرة الروس فى العهود القديمة هذه الحقيقة ، ولم يفهمها أيضًا قادة الحزب الشيوعى السوفيتى فى أيامنا ؛ لأن المصالح تطغى على فهم الحقائق .

أنا لم أكن أحب الحديث عن السياسة ، ولكننى وجدت نفسى داخل تيارات فكرية توجهها السياسة ، أو تتوجه إلى أهدافها عن طريق السياسة ، ولم يعد فى استطاعتى الفصل بين الفكر والسياسة .

إن المعلم الأول عند اليونان أرسطاطاليس جعل السياسة أساسًا للفكر ، فكيف أفصل بين الفكر والسياسة ؟

والمعلم الثانى فى دار الإسلام ، أبو نصر الفارابى ، كانت خلاصة أفكاره هى ما كتبه فى كتابه السياسى : آراء أهل المدينة الفاضلة . . . فكيف ينفصل فكرى بين السياسة وبين الفن والأدب والعلم والثقافة ؟

إن مصر كانت دائمة الاتصال بالعالم شرقًا وغربًا ، وشمالاً وجنوبًا ، وقد ضعف هذا الاتصال بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فى عهد السلطان الغورى ، وما كان من

استيلاء المستعمرين الأوربيين على الهند وما حولها ووصولهم إلى شواطئ جزيرة العرب حتى عدن ، فبعث الغورى الأسطول المصرى لمطاردتهم ، ولكن سقوط دولة المماليك أنهى الصراع المصرى الأوربى ، وبالتالى أضعف اتصال مصر بالعالم الأوربى ، ولكنه لم يقطع أوصال هذا الاتصال .

ولذلك فإن الأحكام القاطعة التى أصدرها بعض المؤرخين أو الدارسين ، وصارت من القضايا المسلم بها بغير مناقشة ، أصبحت فى حاجة إلى مناقشة .

ليس صحيحًا أن عصر المماليك كان عصر ظلام ، بل إنه كان من أعظم عصور الحضارة المصرية ، وشواهد ذلك ما زالت قائمة فى القاهرة ، فى الآثار الإسلامية الرائعة من مساجد وأسبلة ومدارس ومستشفيات ، بقى منها مستشفى السلطان قلاوون ، أول مستشفى عام ومجانى فى العالم ، حيث كان يجمع التخصصات الطبية فى كل الأمراض الباطنية والجراحة وطب العيون ، بجانب الصيدلة ، وكان العلاج والدواء فيه بالمجان ، وقد كان يوم افتتاحه من الأيام المشهودة فى تاريخ القاهرة ، وبعد تلاوة القرآن ، وشرب شراب الليمون كالعادة فى الحفلات الرسمية المملوكية ، أعلن السلطان أنه أوقف للمستشفى أوقافًا للإنفاق عليه ، وتبعه فى ذلك الأمراء ، حتى أصبحت أوقاف مستشفى قلاوون كافيةً للإنفاق ، وظل تابعًا لوزارة الأوقاف حتى عهد قريب منا ، ولست أدرى ماذا جرى له ؟

كان رئيس هذا المستشفى طبيب مصرى عالمى هو (ابن النفيس) مكتشف الدورة الدموية الصغرى ، ولا شك فى أن الأطباء من زملاء ابن النفيس كانوا على درجة رفيعة من العلم ، ولكنّ تاريخهم غامض وأسماءهم مجهولة لنا .

وعندما أقام السلطان قلاوون مستشفاه لم يكن فى أوربا أطباء ، بل كان ملوكها يطلبون أطباء من مصر لعلاجهم .

ومن مشاهداتى العابرة أننى دُعيت فى خريف عام ١٩٦٨ للمشاركة فى الاحتفال بذكرى مرور مائة سنة على مولد العالم المستشرق الألمانى الشهير (كارل بروكلمان) وكان أستاذى الدكتور إبراهيم بيومى مدكور هو الممثل الرسمى لمصر فى هذا الاحتفال ، ونظم لنا المحتفلون من أساتذة جامعة (مارتن لوثر) القائمة فى مدينة (هاله) على مقربة من (لايبزيج) رحلةً لزيارة مكتبة مخطوطات عربية نادرة فى مدينة اسمها (جوتا) . . . وهناك كانت المفاجأة النادرة المثيرة .

هذه المكتبة يضم كتبها قصر قديم من قصور البارونات ، ولكل باب من أبواب هذا القصر

مفتاح طوله نصف ذراع ، وكانت هذه المفاتيح الحديدية المثقال فى عهدة مدير المكتبة ، ويحملها له رجل قوى شديد داخل صندوق من الخشب ، ولها أرقام ، وبدأ المدير يفتح الأبواب واحدًا بعد الآخر حسب ترتيب الأرقام المكتوبة ، كما كان يغلق الأبواب أيضًا عندما نجتازها بابًا بعد باب ، وكأننا فى طريقنا إلى قدس الأقداس .

إياك أن تشعل سيجارة .

إياك أن تدوس على خشب الباركيه اللامع فى عنف .

سر على الأرض طائرًا كالحمامة .

كان معنا أساتذة من المغاربة والعراقيين والشوام ، وكلهم من فضلاء أهل العلم ، وأمامنا فى الرحلة المثيرة هو أستاذى الدكتور إبراهيم بيومى مدكور الذى حاولت أن أتعلم منه الفلسفة والفصاحة ، وهو أحد أعلام المصريين فى هذا العصر .

ثم وصلنا إلى القاعة الكبرى فى قصر بارون (جوتا) حيث توجد المخطوطات والخرائط والكرات الأرضية التى صنعها علماء المسلمين .

المشهد رائع يشبه بانوراما خيالية فى عقل إنسان يريد أن يتعلم .

انتقال من عصر حديث مكتوب على بابه ثلاثة حروف من أبجدية يتعلمها الأطفال (أ . ب . ت) أو (أبجد .. هوز .. حطى كلمن) فى عرف الأبجدية العربية ، إلى عصر قديم كان للعلم فيه مكان واحد هو : عقل الإنسان .

أصبحت كل الأبجديات فى كل اللغات شيئًا واحدًا هو العلم .

وأصبحت اللغة لغة العقل ، وليست لغة اللسان . . أو الحروف المكتوبة .

الطفل ينطق بلغة أبوية ، ولكنه يفكر بعقله ، ويفهم بفكره ، ويتطور وينمو فى عصره ، وله لغته التى يفكر بها ، ويفهم الحياة والوجود بحروفها غير المكتوبة فى كتاب أو المنطوقة على لسان .

وفى قاعة المكتبة التى كانت قاعة استقبال فى قصر بارون (جوتا) أدركت أن العلم حين يصبح سطورًا على ورقة لا يموت عندما يموت صاحبه ، وأن كرة الأرض الساذجة التى صنعها رجل مجهول الاسم على قدر علمه بالكون ، إنما هى جزء من عقل الإنسان الذى أراد رؤية الكون ، وكانت لغته بالفكر والعقل وليست باللسان أو اللغة ، فصور لكل البشر حقيقةً من حقائق الكون .

المعلم ليس له وطن واحد ، وليست له لغة موحدة ، وهو ملك للبشر جميعًا ، حتى أن علماء عصرنا وضعوا قواعد للنحو يحاولون تطبيقها على كل اللغات .

وعندماشاهدت فى قصر بارون (جوتا) الخرائط الملونة لقسمى الأرض فى دائرتين لم تكن فيهما أمريكا الشمالية والجنوبية ولا أستراليا ، تذكرت (طارق بن زياد) المحارب البطل الذى وصل بفرسه حتى شواطىء الأطلنطى عند الدار البيضاء وقال كلمته المشهورة بعد أن أصبحت قوائم فرسه فى ماء المحيط الأطلسى أو بحر الظلمات كما كان يسمى . . . قال طارق :

– يارب . . . لو علمت أن وراء هذا البحر أرضًا يمكن أن أرفع فوقها راية الإسلام لمضيت إليها . . . وسرت نحوها .

كان (طارق بن زياد) يتطلع إلى المجهول وراء بحر الظلمات وهو المحيط الأطلسى أو الأطلنطى ، وكانت هذه الصورة الرائعة البديعة أمام خيالى وأنا واقف داخل هذه المكتبة الألمانية .

تنبه عقلى فجأةً إلى شىء حدث فى حياتنا عندما انفصل العلم عن الحياة ، فأصبح العقل وهو من نور الله ملفوفًا داخل أوراق صفراء مطبوعة فى مطبعة من مطابع حى الأزهر فى القاهرة ، وتذكرت أن أحد المشايخ الأجلاء كتب ألفيةً فى الجغرافيا مثل ألفية (ابن مالك) فى النحو ، وهى ألف بيت من الشعر المنظوم تحتوى على علم من العلوم .

تذكرت وأنا فى مدينة (جوتا) شيخ الجغرافيا صاحب الألفية الشعرية المنظومة ، وقد عرفته وكان ابنه من أصدقائى ، وحضرت بعض مجالسه فى بيته وأنا فى عزّ شبابى ، وكنت أعجب من إصراره على رأيه ، ولست فى حلٍّ من ذكر اسمه احترامًا لأستاذيته رغم استبداده فى الرأى والمنطق والعقل .

هذ الشيخ صاحب (الألفية فى علم الجغرافية) قال :

وأفـريـقـيـة يـاعـالـمًـا بحالى
تحدّ بالبحر من الشمال

وقال أيضًا :

والأرض قالوا إنها كره
وقـولهم هـــذا مـــا أكـفـره

وكان من حقى أن أتذكر هذا الشيخ عندما كنت فى مكتبة بارون جوتا ، فقد رأيت الكرة الأرضية ، ورأيت الخرائط التى حدثتك عنها تقسم الدنيا فى دائرتين تؤكد أن الأرض كرة . . وأن هذا ليس كفرًا كما قال الشيخ .

ولكن هذه الحقائق العلمية لم تكن كل شىء فى هذه الرحلة العلمية المثيرة ، فقد كان فى المكتبة أكثر من أربعة آلاف مخطوط فى العلوم الجغرافية والطبية والصيدلية .

الشىء الهام هو أن هذه الكتب العلمية كانت فى معظمها من تأليف علماء مصريين على رأسهم الطبيب ابن النفيس الذى حدثتك عنه من قبل ، كطبيب عالمى اكتشف الدورة الدموية الصغيرة ، وكان رئيسًا لمستشفى قلاوون فى القاهرة .

وما قولك فى أن السلطان حسن بن قلاوون كان قد أنشأ جامعةً كاملةً شاملةً فى الجامع الذى ما زال قائمًا فى حى القلعة بالقاهرة ؟

فى هذا الجامع وهو جامع السلطان حسن الذى ضربه نابليون بالقنابل من قلعة صلاح الدين عندما قامت ثورة القاهرة ، أربع قاعات للمحاضرات حسب المذاهب الأربعة فى الإسلام وهى مذاهب :

* مالك .
* الشافعى
* ابن حنبل .
* أبو حنيفة .

وكانت هذه القاعات للمحاضرات تجمع الأساتذة على أعلى مستويات العلم ، حتى كان جامع السلطان حسن مسجدًا للصلاة ، وجامعًا أو جامعةً لكل العلوم ، وتحفل بكل الآراء والنظريات العلمية قبل أن توجد جامعات فى أوربا ، وكانت هذه الجامعة أو الجامع فى أروقتها الأربعة ، ومكتبتها ، ومساكن العلماء فيها ، من أبدع وأروع ما قدّمه سلطان مصرىّ للعلم فى مفهوم الحرية العلمية برغم أن السلطان حسن نفسه كان ظالمًا غشومًا على طريقة عصره المستبدّ الطاغى .

ونحن الآن لا نستطيع أن نفرش جامع السلطان حسن بالحصير الرخيص ، ولكن هذا السلطان استطاع أن يجعل باب جامعه مصنوعًا من الخشب المشغول بالذهب ، وهذه حقيقة تاريخية ، فقد خلع السلطان المؤيد صاحب الجامع الشهير باسمه عند باب زويلة هذا الباب

الذهبى ، ووضعه على باب جامعه ذى المئذنتين المقامتين فوق باب زويلة أو بوابة المتولى فى عرف عامة المصريين عند حى الغورية .

ثم فقد الباب وسرق الذهب الذى كان مرصعًا على الباب .

وكان السلطان قلاوون قد أعدّ بابًا للكعبة الشريفة ، وأراد أن يرصّعه بالذهب ، فأفتاه العلماء بأن يدقه بالفضة ، فأطاعهم ، وصنع باب الكعبة مرقومًا بالفضة ، وأراد أن يضعه بنفسه فى الكعبة ، ثم حمل هذا الباب فوق مراكب فى النيل حتى وصل إلى قنا ، ثم حمل على الجمال حتى وصل إلى القصير ، وعبر البحر الأحمر حتى ميناء ينبع ، واستمر فى الرحلة على ظهور الجمال حتى بلغ مكة شرفها الله .

وأراد السلطان قلاوون أن يدق باب الكعبة بمسامير من الفضة ، كما أفتى علماء الأزهر ، فعجز عن ذلك ، وقال له النجار الذى صنع الباب ، إنه لابدّ من دقه بمسامير الحديد حتى يثبت فى مكانه ، ثم توضع عليها رؤوس من الفضة كما أراد السلطان الذى دقّ أوّل مسمار فى باب الكعبة ، ثم حجّ وطاف وسعى .

وأنت ترى أن تاريخ مصر حلقات متصلة لا أوّل لها ولا آخر ، وأنا حائر .

من أين أبدأ . . وإلى أين أنتهى ؟

قد لا يصدق كثيرون أن (محمد بك أبو الذهب) صاحب الجامع والمدرسة المقامة أمام الجامع الأزهر ، وتحتها دكاكين للجزارين ، ومحلات عصير القصب ، والمكتبات ، وباعة السجاير ؛ قد أوْقف وقفًا عظيمًا لمكتبة المدرسة التى أقامها داخل الجامع ، وهذه الوقفية إحدى دلالات الحضارة المصرية ، وقد نشرت نصّها الكامل مجلة (كلية الآداب) فى جامعة القاهرة ، اعترافًا بهذه القيمة الحضارية العظيمة التى تحافظ مصر عليها عبر كل العصور ، وهى قيمة الكتاب والمكتبة التى تؤصل العلم فى مصر .

وهذه النزعة المصرية ظلت سائدةً طوال العصور ، حتى أن القائد الفاتح إبراهيم باشا ، صاحب التمثال الشهير فى ميدان الأوبرا بالقاهرة ، وهو ابن محمد على كان يتفاخر بمصر ، ويقول :

– مصرتنى شمس مصر وأصبحت مصريا .

وهناك خطأ شائع عن المماليك وهو أنهم كانوا يرطنون باللغة العربية ذات اللكنة التركية ، مع أن بعض سلاطين المماليك كانوا شعراء ، ومنهم السلطان المؤيد شيخ ، وقد حمل لقب

(شيخ) لأنه كان يحفظ القرآن . وكان ينظم الشعر الغزلى الرقيق الذى كان يتغنى به وكان له شأن عظيم فى عصر المماليك ، ولكن المؤرخين لم يهتموا بتسجيل تاريخ هذا الفن الرفيع لأنهم اعتبروه شيئًا تافهًا يسقط همم الرجال ، حتى إن الجبرتى كان يعترض على وجود بيوت الغناء والطرب فى القاهرة ، وقال إن كل بيت من هذه البيوت كان يقف عليه شخص لقبه (الخلبوص) . . . وكان هذا الشخص يعلن اسم كل داخل إلى البيت للسهر والاستمتاع بالغناء والطرب ، وذكر الجبرتى أن بعض علماء الأزهر كانوا يذهبون إلى هذه البيوت ، فيصيح الخلبوص عند قدومهم ودخولهم :

– مولانا الشيخ العالم العلامة فلان .

واشتد الجبرتى فى لوم هؤلاء العلماء لومًا لاذعًا .

وأنت ترى أن هذا الفن الرفيع الذى ذاع وشاع وأطرب الأسماع فى عصر المماليك حتى كان واحد من السلاطين ينظم له الشعر ويضع له اللحن ، أصبح فنًّا تطارده السلطة فى عصر سلطان آخر بسبب النساء .

ولا شك فى أن الألحان التى نسمعها اليوم ليست إلا صدًى لألحان قديمة مصرية أصيلة ، وهى ليست تركية كما يظن أصحاب تاريخ الموسيقى .

إن قصيدة :

وحقّك أنت المنى والطلب .

التى غنتها أم كلثوم فى عصرنا ، وقالوا إن ملحّنها هو الشيخ أبو العلا ، ليست إلّا قصيدة قديمة جدًّا ، ولحنها قديم جدًّا ، وهى من نظم شيخ الأزهر وشيخ الإسلام (الشيخ عبد الله الشبراوى) ، وقد توارثها المغنّون ومنهم (ابن رحاب) أشهر المطربين فى هذا العصر ، وقد كان هذا المطرب رئيسًا لفرقة الشبابة السلطانية ، وهى الفرقة الموسيقية التى أنشأها السلطان المؤيد ، وكان ينظم لها الأشعار ، ويلحن لها الألحان .

ونحن لا نعرف كثيرا عن الموسيقى والغناء فى عصر المماليك ؛ لأن الخلط بين هذا العصر وبين عصر الترك العثمانيين ، جعل مؤرخى الموسيقى ينسبون الألحان الشرقية للأتراك .

ولكن الغناء والموسيقى فى عصر المماليك ، رغم قلّة مصادره التى تمكننا من معرفة حقائقه ، كان فنًّا هامًّا ، حتى إن السلطات كانت تحصل ضرائب كثيرة من أصحابه ، وكان يطلق عليها (رسوم المغانى) ، وفى عصر الغورى كانت طوائف المغنّين والمغنّيات ومن معهم من أصحاب

الموسيقى ، يتجمعون عند (بركة الرطل) فى حىّ الفجالة الحالى ، وكانت (بركة الأزبكية) مقر الأمراء والعلماء ، وعند شاطئها أقام (محمد بك الألفى) قصره الشهير الذى حدثتك عنه فى بداية الكلام .

وقد تطرق الفساد إلى طوائف المغنين والمغنيات الذين اتخذوا مساكنهم حول (بركة الرطل) ، وجعلوا البركة ذاتها مسرحًا لزوارق الليل ، حتى إن بعض جوارى السلطان الغورى هربوا من القلعة إلى (بركة الرطل) مما أغضب السلطان العجوز فأرسل عساكره إلى تلك الأماكن للتفتيش وإثارة الذعر بين أهل الفن بحثًا عن جوارى السلطان .

كل هذه دلائل على أن فن الموسيقى والغناء كان صوت الأجيال جيلاً بعد جيل فى حقبة طويلة من الزمان ، فقد ولد الشيخ عبد الله بن محمد الشبراوى سابع شيوخ الأزهر فى سنة ١٦٨٠ ميلادية ونحن الآن فى سنة ١٩٨٢ ميلادية . .

ثلاثة قرون من الزمان . . ثلاثمائة سنة مضت .

ثم بقيت أغنية شيخ الأزهر مولانا الإمام الشيخ عبد الله الشبراوى هذه السنين الطوال ، ولها لحنها وموسيقاها ، فكيف كانت الموسيقى والألحان من قبلها ؟

فى عصر الدولة الطولونية اشتهرت أغنية (قطر الندى) بنت (خمارويه) . . ابن أحمد ابن طولون ، فى زفافها إلى خليفة بغداد :

* الحنه الحنه يا قطر الندى

وما زالت تتردد بلحنها حتى اليوم ، كما كانت هناك أغنيات أخرى غيرها أشهرها أغنية (سهران ياليل وياالقمر)

وفى عصر المماليك ألف المؤلفون الموسوعات الكبرى فى حضارة الإسلام ، ومن أهمها معجم (لسان العرب) أضخم وأهم معاجم اللغة العربية ، وقد ألفه ابن منظور أحد كتاب ديوان الإنشاء بمصر ، وهناك مقدمة ابن خلدون المشهورة ، وخطط المقريزى ، وكتاب (صبح الأعشى) لشهاب الدين القلقشندى ، وغير ذلك من الكتب الجامعة التى تشكل أضخم موسوعات الثقافة الإسلامية .

برغم كل هذه الحضارة الباذخة ، ظل عصر المماليك متهمًا ، والأسباب مجهولة ، ولم يقدم أحد من الباحثين دليلاً واحدًا على هذا الاتهام ، مع أن تراث الحضارة الإسلامية اجتمع فى هذا العصر .

وقد أثرت هذه الحضارة الإسلامية في أوربا خلال عصر المماليك ، الذى أعتبره امتدادًا لحضارة الإسلام بعد انتقال الخلافة الإسلامية من بغداد إلى القاهرة فى عهد السلطان الظاهر بيبرس قاهر التتار .

كان سلاطين المماليك وأمراؤهم قد استعربوا بعد أن أسلموا ؛ ولذلك حافظوا على تراث العرب والإسلام معًا .

أما سلاطين الترك من آل عثمان فإنهم أسلموا ولم يستعربوا ؛ ولذلك ضيّعوا تراث العرب والإسلام ، بسبب نزعتهم العنصرية التى جنحت بهم إلى الكفر أحيانًا عندما اعتقد العامة الجهلاء منهم أن الجنس التركى أعلى من الجنس العربى ، وقال قائل منهم :

– لو أن محمدًا ﷺ عربى فإن الله سبحانه وتعالى تركى .

لعن الله القائل ، ولعن الله القول .

ومن الأقوال المأثورة عن الشيخ الأكبر جمال الدين الأفغانى حكمته الشهيرة التى قالها للسلطان عبد الحميد عندما كانت دولة الخلافة العثمانية فى اسطنبول تلفظ آخر أنفاسها .

قال الشيخ الأكبر للسلطان التركى :

– لو استعرب الترك لعاد للإسلام مجده وعزته .

ولكن الأوان كان قد فات ، وكان الزمان لا يملك إصلاح الخطايا والأخطاء .

وقد احتفظ سلاطين المماليك بعروبة مصر ، ولم يكونوا أصحاب رطانة كما تخيّل بعض الناس ، وكان عصرهم هو عصر الموسوعات فى حضارة الإسلام كما قلت لك ، كما كان عصر الفن الإسلامى العربى الذى اشتهر فى الدنيا باسم الأرابيسك أى الفن العربى .

وعندما كانت مصر تملك كل هذه العلوم والآداب والفنون لم يكن للترك شىء من هذا كله ، حتى إن السلطان سليم العثمانى بعد انتصاره على سلطان مصر الغورى فى موقعة (مرج دابق) ، وبعد شنقه للسلطان طومان باى على باب زويلة بالغدر والخيانة ، أخذ من مصر كل وسائل الحضارة حتى القرداتية والبغبغانية ، وأنت تعرف القرداتى الذى يلعب مع قرده ويسحبه معه بالسلسلة وبيده الطبلة التى يدق عليها بخيزرانة صغيرة يرقص القرد ويمثل ما يطلبه منه صاحبه مثل (عجين الفلاحة) أو (نوم العروسة) وما يشبه ذلك من فنون شعبية مصرية .

أما طوائف (البغبغانية) فقد كانوا يقومون بلون آخر من الأدب الشعبى المصرى ، الذى يعتمد على الحوار بين الببغاء وصاحبها الذى يحملها معه فى قفص ، ثم يدير الحوار حتى تنطق

الببغاء بالكلمة المناسبة فى كل موقف ، وقد أعجب السلطان سليم بهذه اللعبة ، فجمع كل (البغبغانية) من القاهرة وأخذهم معه إلى اسطنبول حتى يتفرّج عليهم ابنه ، كما أخذ كل طوائف الآلاتية من أصحاب الموسيقى الذين يدقّون على الدفوف والطبول والأوتار ، وتعلم منهم الترك هذه الصنعة ؛ لأن الأتراك كانوا أجلافًا لا يعرفون من الأنغام سوى الموسيقى النحاسية ودقات طبول الحرب .

وكان المصريون يعرفون الناى والربابة والطبلة الفخارية والدف والطار وآلات موسيقية كثيرة منها الهارب وآلة القانون التى ابتكرها الفارابى فى عصر سيف الدولة وهو عصر الدولة الإخشيدية فى مصر ، وقد ظلت الموسيقى المصرية والشامية فى كل ألحانها وأنغامها منسجمة متوافقة حتى اليوم لأنها جاءت من مصدر واحد .

حتى أن الشيخ محمد شهاب الدين الشاعر المصرى عندما جمع الألحان التى كانت سائدةً فى عصر محمد على فى كتابه الشهير (سفينة شهاب) لم يستطع أن يفرق بين ألحان مصر والشام فوضعها كلها فى كتابه على أنها ألحان العصر .

ولكن القضية التى أثارت كل هذا الكلام . هى قضية اتصال مصر بالحضارة الأوربية فى العصر الحديث ، وهذه القضية معقدة بل شديدة التعقيد ؛ لأن مصر لم تنفصل عن أوربا بل كانت دائمة الاتصال بشعوب البحر المتوسط فى شبه جزيرة البلقان وما حولها وفى إيطاليا وفرنسا وأسبانيا .

وكان هذا الاتصال يضعف فى بعض العصور ، ولكنه لا ينقطع ، بل إن أوربا كانت تعيش دائمًا داخل مصر حتى خلال فترات ضعف الاتصال ، فقد كانت فى القاهرة حارة الإفرنج قبل قدوم حملة بونابرت ، وقد تحدث الجبرتى كثيرًا عن أهل هذه الحارة التى كانت موجودةً فى حى الموسكى ، وكانت تضم التجار فى غالب الأحيان ، كما كان فيها بعض أدعياء الطب الذين أضرّوا بالناس ضررًا بليغًا حتى اضطرت السلطة الحاكمة فى أواخر العصر العثمانى المملوكى إلى منعهم من مزاولة هذه المهنة .

لقد ضخم المؤرخون المحدثون من قيمة الحملة الفرنسية على مصر التى ظلت ثلاث سنوات أو أكثر قليلاً ، وزعموا أنها كانت بداية العصر الحديث فى الحياة المصرية بسبب مطبعة أو معمل كيمياء وطبيعة وما يشبه ذلك من مظاهر مادية لحضارة أوربا ، حتى اعتقد كثيرون أن هذا الزعم حقيقة ، وكأن مصر كانت فى غيابات الجهل والظلام ثم خرجت إلى النور .

وساعد على تضخيم هذه الفكرة الساذجة روايات الجبرتى عن مشاهداته عند الفرنسيين الذين كانوا بغير شك أكثر تقدمًا من المصريين فى مجالات علمية وفنية كثيرة ، ولكن ليس معنى ذلك أن هذه السنوات الثلاث التى أمضتها حملة بونابرت فى مصر هى التى نقلتها إلى العصر الحديث ؛ لأن حضارة مصر المستمرة الدائمة تنتقل بها من عصر إلى عصر حتى هذه اللحظة ، وهى حضارة قادرة على الأخذ والعطاء عبر كل العصور .

ولو صح ما زعموا عن أثر حملة بونابرت على مصر من التعريف بأشكال حضارية مادية أو علمية أو فنية ، فإن عصر عباس باشا الأوّل يكون أهم من ذلك وأخطر ، حيث أنشئت فى مصر أول خطوط للسكك الحديدية بعد اختراعها فى انجلترا ، وكانت مصر هى أوّل دولة فى العالم تستخدم هذه السكك الحديدية بعد بريطانيا ، مع أن عصر عباس الأوّل كان من عصور الظلام والظلم .

كما كانت مصر أوّل دولة عرفت السينما بعد اختراعها فى فرنسا ، وقد عرضت أفلام السينما الصامتة فى القاهرة بعد عرضها فى باريس مباشرة ، وكان الذى عرضها هو مخترع هذا الفن بالذات .

إن الواقع التاريخى لمصر يؤكد أنها تملك دائمًا حضارةً مستمرة تأخذ وتعطى ، وهى أول دولة فى الشرق كله استطاعت وصل حياتها بالحضارة الحديثة قبل حملة بونابرت وبعد حملة بونابرت .

ونحن لا نستطيع تحكيم السياسة فى الحضارة ؛ لأن عناصر الأصالة فى الحياة المصرية لا يحكمها حاكم ، ولا يتحكم فيها عصر ، وإلا فإنها تفقد قيمتها الذاتية التى تحمل طابع الدوام والاستمرار ، كما أن التخلف والتقدم لا يغيران من طبيعة هذه الحضارة الثابتة ، ولكنه يشكل المدنية فى صور عصرية تختلف أشكالها ، وهى فى نفس الوقت لا تغير القيم الحضارية لمصر .

إن المدنية هى التى تسبب التقدم والتخلف ، ولكن شعبًا مثل الشعب المصرى له حضارة ومدنية ، لا يجوز أن يقال إنه بدأ عصرًا حديثًا فى حياته بسبب معرفته للطباعة أو لبعض التقدم فى علوم الكيمياء والطبيعة وغيرها ، ولو صحّ هذا الزعم لكان الألمان أعظم قدرًا من الفرنسيين ؛ لأنهم هم الذين اخترعوا فن الطباعة ، وهذا غير صحيح على الإطلاق ؛ لأن العلم لا وطن له ، وهو قسمة مشتركة بين كل الشعوب ، ولو أن بونابرت لم يحضر معه مطبعةً لها

حروف عربية ، لاستوردها المصريون من أوربا قبل الثلاث سنوات التى حدثتك عنها .

وأنا أحدثك هذا الحديث الطويل ، حتى تعتقد معى أن الحملة الفرنسية لم تكن سببًا من أسباب بداية الحياة الجديدة فى مصر ؛ لأن مصر بذاتها وكيانها كانت قبل حملة بونابرت تستعد لعبور مرحلة من مراحل حياتها ، لتصل إلى وجودها المعاصر فى ذلك العصر ، مع وجود حضارتها الأصيلة الثابتة .

وأنا أحب أيضًا أن تعتقد معى أن كل ما تقرر من أقوال ونظريات فى تاريخ شعبنا ليس قضايا ثابتة لا تحتمل المناقشة ، ولكنها قضايا عليها نزاع فكرى متراكم يعلوه غبار كثير .

إننا فى مرحلة إزالة الغبار المتراكم الكثيف فوق تاريخنا الحديث ، وقد أردت بكتابة هذه الصفحات القليلة من حياة عظماء مصر أن نعرف بعض الحقيقة فى تيّار حياتنا المعاصرة من جانب واحد هو الفكر على اختلاف اتجاهاته العلمية والأدبية والفنية ، ولكن هذا لا يكفى لنفض الغبار .

هناك قضايا كثيرة فى التاريخ المصرى المعاصر تتطلب منا نفض الغبار عنها .

هناك قضايا سياسية واجتماعية واقتصادية لا زالت تؤثر فى حياتنا اليوم مع أن عمرها قد يبلغ قرنين من الزمان ، بل إننا لم نجد لها الحل الصحيح رغم الثورات والانتفاضات المتتالية قبل حملة بونابرت وبعدها حتى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التى تعتبر نهاية المطاف فى الحركة الوطنية المصرية المتنوّرة التى وضعت حدًّا فاصلاً حقيقيًّا بين التحكم الأجنبى وبين الحكم الوطنى .

إن تجربة الحكم الوطنى منذ عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٨٢ عمرها ثلاثين عامًا فى بلد عمره سبعة آلاف سنة .

وقد تفجرت خلال هذه الفترة القصيرة زمنيًّا ، كلّ هذه القضايا التى أحدثك عنها ، وكانت أخطر قضية متفجّرة أيضًا فى هذه الفترة هى قضية الصراع بين السلطة والفكر ، وهذه هى القضية القديمة فى حياة مصر ، وهى التى تستطيع أن تشكّل مفهوم الديمقراطية المصرية اليوم بعد تجارب عديدة من ممارسة الشعب المصرى لحقه فى الحياة بإرادته الذاتية الحرة .

إن كلّ مشاكلنا اليوم حاول أسلافنا من عظماء مصر إيجاد حلول عملية لها بطريقة علمية أو فنية واضحة ولم يكونوا يعيشون بأفكارهم فى ظلام ، بل كان كل واحد منهم له شعاع مضىء .

* رفاعة بك حاول وضع النشيد الوطنى المصرى .

* علی مبارك خطط القاهرة ، وجلب المدنية الحديثة إلى مصر فى بناء المدارس ومحطات السكك الحديدية ومراكز البوليس وغيرها من الأبنية العامة . . وأصلح الخطأ فى القناطر الخيرية عندما أوشكت أن تنهار .

* محمد قدرى وضع الشريعة الإسلامية فى مواد قانونية مثل قانون نابليون حتى تصبح منفذة فى المحاكم .

* محمود حمدى الفلكى أقام علم الفلك مرةً أخرى فى مصر بالعلم ، وليس بالخرافة واعترفت به أوربا .

* محمد على البقلى تولى تدريس الطب باللغة العربية وأعاد (ابن سينا) إلى الحياة المعاصرة .

* محمد عثمان جلال نقل إلينا مسرح موليير الفرنسى إلى اللغة العربية ، وعلمنا فن التراجيديا .

هؤلاء العظماء وغيرهم من الذين يمثلون الحركة الفكرية المصرية المعاصرة ، هم الذين صنعوا لنا ما نحن فيه الآن من رغبة وتلهف إلى مواكبة الحياة العصرية ، وهم فى الواقع قطرة ماء فى محيط لازالت أمواجه ترتفع ، لتصعد بنا إلى قمّة الموجة فى دنيا تموج بالفكر علمًا وأدبًا وفنًّا وثقافة .

عاشوا جميعًا فى صراع بين السلطة والفكر وانتصروا جميعًا بالفكر فوق السلطة .

حتى الذين أصابتهم ضربة الشمس مثل الأستاذ محمد بيومى ظلّت أسماؤهم ساطعةً فوق الشمس .

إن مصر المفكرة العاقلة هى التى تدفع أبناءها إلى إعادة صنع الحضارة ، وهى التى تصنع به أبناءها أمثال هؤلاء العظماء جيلاً بعد جيل فى حركة مستمرّة لا تتوقّف ولو تعثرت فى بعض الأحيان . . . وسنبدأ معًا حكاية هؤلاء الذين صنعوا حضارة مصر فى العصر الحديث .

(٢)

خلال رحلة قصيرة عبر الزمان استطاع عدد من العلماء والمفكرين المصريين أن يفتحوا أبواب الحضارة الجديدة .

لقد تبعثرت أسماء عدد من المصريين الفلاحين بين ٢٩١ رجلاً سافروا إلى فرنسا وانجلترا من أجل طلب العلم بين عام ١٨٢٦ و ١٨٤٨ . ولا تعجب إذا سمعت أسماء الخواجة أرتين والخواجة اسطفان وتيمور خسرو وهنرى روسى وغيرهم من الأرمن والشركس وأولاد الذوات بين أسماء أبناء الفلاحين من أمثال الشيخ رفاعة ومحمد بيومى وسيد أحمد الرشيدى وعيسى البحراوى ومحمد على البقلى وآخرين كثيرين سأروى لك قصة كفاحهم من أجل بناء مصر .

والظاهرة التى تلفت النظر هى أن أبناء الذوات ومن لاذ بهم من الأجانب كانوا يتعلمون العلوم الإدارية من أجل تولى الوظائف الحكومية ، وأن أبناء الفلاحين كانوا يتعلمون الآداب والعلوم والترجمة من أجل إثراء الثقافة المصرية .

ويذكر الباحثون المعاصرون اسم (رفاعة الطهطاوى) دائمًا كلما تذكروا نهضة مصر الحديثة ، وهذه حقيقة لا شك فيها . فقد روى الدكتور محمد على البقلى أنه بعد عودته من البعثة فى فرنسا ، نال رتبة أميرالاى ، وكانت وظائف الدولة فى ذلك العصر ترتب عن طريق الرتب العسكرية ، فسعى إلى أستاذه رفاعة واجتمع معه فى المدرسة الحربية بالقلعة التى كانت إذ ذاك تحت نظارته ، وقبل يده الشريفة ، وقال له :

« إنى لا أنسى صنيعك على طول الزمان ، وما يزال يلهج بشكرك منى القلب واللسان » .

لقد كان رفاعة أستاذ الأساتذة ، وكان أول مترجم نشأ بالديار المصرية من أبنائها كما يقول تلميذه السيد صالح مجدى ، واستطاع بذكائه الخارق أن يكون جيلاً من المثقفين المصريين تسعى إليهم السلطة ، ولا يسعون إلى السلطة . وكان سندهم الوحيد هو العلم .

ولكن رفاعة لم يكن هو الوحيد فى اعتناق فكرة العلم الحديث من أجل بناء مصر ، بل كان له شركاء فى أفكاره ، وكان له تلاميذ أيضًا اعتنقوا الفكرة بإيمان وإصرار .

وخلال الرحلة الأولى القصيرة التى لم تزد عن ربع قرن ، والتى بدأت بها الحديث ، ظهر جيل النوابغ من أبناء الفلاحين ، وقبل أن تنتهى الرحلة كان أنبغهم قد مات بضربة شمس فى

الخرطوم ، وكانت وفاته مأساةً دامية عند جامعة باريس ، فقد حدث أن جاءت إلى القاهرة بعثة فرنسية أوفدتها تلك الجامعة للبحث عن شاب مصرى اسمه (محمد بيومى) رشح للعمل أستاذًا بالجامعة الفرنسية وعرفت البعثة العلمية أنه أرسل إلى الخرطوم ليعمل مدرسًا للحساب فى مدرسة ابتدائية ، فأكملت البعثة رحلتها إلى الخرطوم . وحين وصلت إليها ، قابلت رفاعة رافع الطهطاوى ناظر المدرسة الابتدائية ، وعرفت منه أن (محمد بيومى) قد مات بعد إصابته بضربة شمس ، وألّف أحد زملاء بيومى من الفرنسيين كتابا عنه سماه (محمد بيومى فى منفاه) طبع فى باريس عام ١٨٥٠ وهى السنة التى لقى فيها هذا النابغة وجه ربه ، بعد أن نفاه عباس الأول مع غيره من الأساتذة إلى الخرطوم .

واستكملت المأساة صورتها فى القاهرة بعد مصرع عباس الأول ، وتولية سعيد ، فقد عاد الأساتذة المنفيون من الخرطوم وعلى رأسهم رفاعة . وكان فيهم نابغة آخر هو(أحمدطايل) تلميذ بيومى وزميله . فقد مات طايل فى بولاق بعد وصوله بليلتين اثنتين .

وأنا لا أروى هذه المآسى لأزعج القارئ ، ولكن لأضع أمامه صورةً من كفاح هؤلاء العلماء المصريين الذين فتحوا لنا أبواب النهضة الحديثة .

لقد ظلت النظرية التى تقول إن حملة بونابرت على مصر هى التى فتحت أبواب العصر الحديث فى بلادنا تتردد على أقلام الدارسين سنوات طويلة ، وما زالت تتردد حتى اليوم ، وكأنما أصبحت هذه النظرية مما يجب أن نوافق عليه بغير مناقشة .

كتب الأدب والتاريخ تقول ذلك .

أوّل مطبعة وأوّل جريدة وأوّل معمل كيميائى . . وأوّل صورة رسمت بالزيت . . وأول ناد ليلى اسمه (تيفولى) بحى الأزبكية . . وأوائل كثيرة غير ذلك جاءت مع بونابرت إلى القاهرة .

والشيخ الجبرتى كتب صفحات عن العجائب والغرائب التى شاهدها عند الفرنسيين

كل ذلك صحيح .

ولكن هل معنى ذلك أن الفرنسيس قد غيروا الحياة المصرية التى كانت قائمةً تحت حكم المماليك ؟

لقد فتح المصريون عيونهم على هذه العجائب والغرائب ، ولكنهم لم يقرءوا كتاب (وصف مصر) الذى ألفه علماء حملة بونابرت ، ولم يستولوا على مطبعة بونابرت ذات الحروف العربية ، ولم يتعلموا العلم الحديث الذى أذهل عقل الشيخ الجبرتى .

الشيء الوحيد الذى تعلّمه المصريون من حملة بونابرت هو أن هناك حياة جديدة لم يعرفوها من قبل ، ويجب أن يعرفوها .

وعندما جاء محمد على وولّاه المصريون أمرهم لأنه تركى عثمانى يقبله السلطان خليفة المسلمين ، كانت تطلعات الشعب المصرى تتجه نحو الثقافة الجديدة التى شاهدها عند الفرنسيس .

كان المصريون يريدون بناء وطنهم على أسس جديدة عصرية . بل كان الاتجاه السائد فى الأزهر هو هذا الاتجاه العصرى ، وليس أدل على ذلك من أن الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر اشتغل بالعلم الحديث ، وتعلم بعض اللغات ، وألف رسالةً سمّاها (كيفية العمل بالاسطرلاب) ، كما قبل كبار مشايخ الأزهر ومنهم الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ الفيومى والأمير وغيرهم أن يصورهم الرسامون الفرنسيون فى لوحات زيتية معروفة ، دون اعتراض أو فتوى بتحريم التصوير .

وعندما أوفدت البعثات إلى فرنسا كان من بين أعضائها : الشيخ زناتى والشيخ أحمد عليوه والشيخ محمد الدشطوطى والشيخ أحمد العطار والشيخ عبد الله والشيخ محمد عيسى والشيخ حسن والشيخ نصر أبو الوفا والشيخ أحمد الرشيدى والشيخ حسن غانم والشيخ إبراهيم الحكيم .

والحقيقة أنه لم ينبغ من الأزهريين نبوغًا خارقًا غير الشيخ رفاعة إمام البعثة ، ثم تعلم الطب ونبغ منهم الشيخ أحمد الرشيدى والشيخ نصر أبو الوفا والشيخ إبراهيم النبراوى إلحكيم . أما المشايخ الآخرون فقد أهملهم التاريخ .

وحتى نستكمل صورة الرحلة القصيرة التى قام بها أبناء الفلاحين من أجل بناء مصر الحديثة . سنتحدث عن أولئك الرواد الذين صنعوا المعجزة .

وأبناء هذا الجيل لا يعلمون أن جيلاً قريبًا منهم . . لا يبعد أكثر من مائة عام قام بعمل لم نصل إليه بعدُ ، فهؤلاء الرواد استطاعوا أن ينقلوا العلوم الحديثة إلى العربية . وأن يدرّسوا هذه العلوم بالعربية ، وجامعاتنا اليوم تدرسها باللغة الإنجليزية .

ولنقف معًا مع هؤلاء الأساتذة الكبار ، ولنبدأ بمدرسة المهندسخانة أو كلية الهندسة كما نسميها اليوم .

كان كبير الأساتذة أصغرهم سنًّا وهو (محمد بيومى) الذى رويت لك مأساته فى البداية ،

وأصله من دهشور ، سافر إلى فرنسا وعاش بها تسع سنوات ، وبعد عودته عُيّن مدرسًا بمدرسة المهندسخانة ببولاق ، وتلقى عليه العلم من كانوا أكبر سنًّا منه ، ثم أصبح كبير الأساتذة عندما كان ناظر المدرسة (لا بير بك) الفرنسي . وكان بيومى يدرس باللغة العربية ، وأصدر كتبًا بعضها مؤلّف وبعضها مترجم ، ومنها كتاب (جرّ الأثقال) وكتاب (الجبر والمقابلة) وكتاب (ثمرة الاكتساب فى علم الحساب) وكتاب (الهندسة الوصفية) وكتاب (جامع الثمرات فى حساب المثلثات) وكل هذه الكتب طبعت بين عامى ١٨٤٠ و١٨٤٧ .

أما المعيد الذى عمل مع بيومى فهو (أحمد دقلة) وهو من بلدة بسيون بمحافظة الغربية ، وقد تعلم فى فرنسا ، وترجم كتاب (رضاب الغانيات فى حساب المثلثات) .

ومن أساتذة الهندسة (أحمد فايد) الذى أقام فى فرنسا عشر سنوات ، ثم عين بعد عودته مدرسًا للرياضيات بالمهندسخانة ، ثم أصبح وكيلاً لها ومن مؤلفاته (الأقوال المرضية فى علم بنية الكرة الأرضية) ترجمه عن الفرنسية ، وكتاب (تحرك السوائل) وكتاب (الدرة السنية فى الحسابات الهندسية) .

أريد أن أقطع هذه الرحلة الهندسية حتى لا نزهد فيها ، ولنتحدث عن الطب الذى كان يدرس فى مصر باللغة العربية منذ مائة عام !

الأسم الأول اللامع هو : الدكتور محمد على البقلى ناظر مدرسة الطب وكبير أطباء وجراحى مستشفى قصر العينى . وأصله من بلدة (زاوية البقلى) بمركز منوف حيث ولد بها عام ١٨١٥ ، ودرس بالمدارس المصرية حتى تخرج فى مدرسة الطب التى كان ناظرها كلوت بك ، ثم سافر إلى فرنسا ونال درجة الدكتوراه عام ١٨٣٨ ، واستشهد فى حرب الحبشة عام ١٨٧٦ حيث كان رئيسًا لأطباء الحملة .

وقد ألف كتبًا هامة كانت تدرس فى مدرسة الطب ، ومنها (روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى) وكتاب (غرر النجاح فى أعمال الجراح) ، وكتاب (نشر الكلام فى جراحة الأقسام) وكتاب (غاية الفلاح فى أعمال الجراح) .

وهناك أزهريان نبغا فى دراسة الطب هما الدكتور إبراهيم النبراوى والدكتور أحمد حسن الرشيدى .

وبعد أن أتم النبراوى دراسته فى مدرسة الطب أوفد إلى باريس ، وتزوّج فتاةً فرنسية ، وعاد إلى مصر ليعمل مدرسًا بمدرسة قصر العينى . وترجم عن الفرنسية كتاب (الأربطة

الجراحية) وكتاب (أصول الطبيعة والتشريع العام) و(الفلسفة الطبيعية) والكتابان الأخيران من تأليف كلوت بك ناظر مدرسة الطب .

أما الدكتور أحمد حسن الرشيدى ، فقد أوفد إلى فرنسا أيضًا بعد أن أتم دراسته فى مدرسة الطب وبعد عودته من البعثة اشتغل بالتدريس ، وألف تسعة كتب فى مختلف أنواع المعرفة الطبية .

وفى عبور سريع حول هذه النهضة ، نذكر الدكتور محمد الشافعى ناظر مدرسة الطب الذى ألّف وترجم ثلاث كتب . والدكتور محمد الشباسى وله كتابان ، والدكتور عيسوى النحراوى وقد ترجم كتابًا فى (التشريح العام) ، والدكتور حسين غانم الرشيدى مؤلف (الدر الثمين فى فن الأقرباذين) ، وهو أستاذ الصيدلة ، والدكتور محمد عبد الفتاح وله أربعة كتب .

ونستطيع أن نقول إن هؤلاء العلماء وضعوا أساس العلم الحديث فى مصر ، خلال رحلة قصيرة ربطت بين مصر وأوربا خلال ربع قرن من الزمان .

ولا أريد أن أنسى أشياء أخرى فى الحضارة نقلت إلى مصر . فقد كان الذين درسوا العلوم العسكرية نواةً لإنشاء الجيش الجديد الذى وصل إلى أبواب قسطنطينية وأوشك أن يسقط الخلافة العثمانية .

ولا أريد أن أنسى أيضا (يوسف أفندى) ناظر مدرسة الزراعة فى شبرا ، والذى درس العلوم الزراعية فى فرنسا ، ونقل إلى مصر فاكهة الماندارين ، ثم سميت بعد ذلك باسمه هو ... ولا زالت تسمى حتى اليوم باسم (يوسف أفندى) .

وبعد هذه الرحلة قامت فى مصر المدرسة التى ترجم المتخرجون فيها أكثر من ألفى كتاب فى مختلف العلوم والآداب والمعارف ، وهى مدرسة الألسن التى أنشأها رفاعة رافع الطهطاوى .

وقد قسم السيد صالح مجدى تلميذ رفاعة أبناء هذه المدرسة إلى ثلاث طبقات ... وذكر أسماء مشاهيرهم .

وأبناء هذا الجيل لا يذكرون أسماء هؤلاء الرواد ، ولهم عذرهم ، فقد وضعت الكتب التى ترجموها فى غرف مغلقة ، ولم يهتم بها أحد ، إلّا فى بعض المناسبات .

لقد كتب صالح مجدى عن واحد من هؤلاء الرواد وهو (محمد أفندى عثمان) فقال :

« فريد العصر ، وفارس ميدان النظم والنثر ، البارع فى كل فن ، صاحب تعريب (العيون اليواقظ) و (قبول وورْد جنة) وغير ذلك من التآليف البهية » .

والرجل الذى كتبت عنه هذه السطور هو محمد عثمان جلال مترجم مسرحية (الشيخ متلوف) . . أما (قبول وورْد جنة) فهى مسرحية (بول وفرجينى) .

وكتبت صالح مجدى عن واحد منهم أيضًا هو (محمد قدرى) قائلاً :

« الأوحد ، الذى هو فى كل فن مفرد ، وهو صاحب التراجم والتآليف العديدة والتصانيف المفيدة ، فى العربية والتركية والفرنساوية ، ولهذا المفرد العلم الناظم الناثر من الكتب الجارى تدريسها بالمدارس الميرية وغير الميرية ما يشهد له بأنه فى مضمار المعارف سابق أوانه ، ليس له فى أمثاله لا حق ، وعلى الحقيقة فهو أنبل فارس منح أوطانه من علومه بديع النفائس » .

وقد اشترك محمد قدرى مع أستاذه رفاعة فى ترجمة (قانون نابليون) المسمى عند رجال القانون باسم (الكود) . واستطاع أن يقدم للثقافة القانونية العربية أخطر كتاب ظهر فى العصر الحديث ، وهو كتاب (مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان) ، وهذا الكتاب يضم الشريعة الإسلامية على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة ، فى تقسيم عصرى مثل (قانون نابليون) ويضع قواعد الشريعة فى مواد قانونية محددة على النمط الحديث .

وقبل أن نعبر إلى الرحلة الثانية للثقافة المصرية الحديثة . . يجب أن نقف وقفة تأمل عند شخصية رجل فلاح من بلدة برنبال بمركز دكرنس بمحافظة الدقهلية . . اسمه على مبارك .

ولا أريد أن أتحدث عن على مبارك رجل التعليم كما اشتهر عنه ، ولا مؤسس مدرسة دار العلوم ودار الكتب . . ومؤلّف الكتب الهامة وأهمها كتابه (الخطط التوفيقية) ، ولكننى أريد أن أتحدث عن صانع الحضارة الحديثة .

إن على مبارك هو مخطط القاهرة الحديثة ، وبانى دورها الحكومية وقصورها ومدارسها وحدائقها ، وله يد فى كلّ ما نشاهده اليوم من مياه فى المنازل ، ومصابيح فى الشوارع ، وهو منقذ القناطر الخيرية من الخلل ، وبانى محطات السكك الحديدية فى أرجاء مصر على نظام معمارى موحد ، وهو أول من استخدم السكك الحديدية لنقل البضائع ، وهو الذى سافر إلى باريس ليشاهد نظام المجارى فى العاصمة الفرنسية حتى ينقله إلى عاصمة مصر ، ولكنه للأسف الشديد لم يفعل ذلك بسبب الأزمة المالية التى حدثت فى عصر إسماعيل .

وقد لا يصدق كثيرون أن الكهرباء وصلت على يدى هذا المصرى العظيم وإلى منطقة الأهرامات وكانت تسمى (الكتريك) ، فلم يلتفت كثيرون من الباحثين إلى هذا العمل

الحضارى الهام لأن كلمة كهرباء لم تكن معروفة فى ذلك الزمان ، واستخدمت الكلمة الفرنسية (الكتريك) كما هى .

لقد انقطعت رحلة الحضارة المصرية عندما تولّى حكم مصر عباس الأول . . ثم سعيد . ولكن الرحلة الثانية إلى أوربا ما لبثت أن بدأت وكان رفاعة الطهطاوى ينظر إلى رجالها بعينين ضاحكتين ، فقد أصبح تلاميذه رجالاً كبارًا لم تنقطع عزيمتهم عن مواصلة العمل لبناء مصر الحديثة .

وكما كانت الرحلة الأولى رحلة علم . . كانت الثانية رحلة علم أيضًا ، وكان عدد أفرادها ١٧٤ مسافرًا ذهبوا لدراسة الطب والهندسة والحقوق والبحرية والزخارف ومختلف الفنون ، وبلغت نفقات الرحلة ١٦٣,٦٥٧ جنيهًا مصريًا .

والأمر العجيب الذى يلفت النظر إلى الرحلة الثانية من رحلات الحضارة ، عادت بطبيب شهير هو الدكتور محمد درى ، كما عادت الرحلة الأولى بالدكتور محمد على البقلى ، وتولى الدكتور الدرى نظارة مدرسة الطب كما تولاها زميله السابق ، وكان مثله أشهر جراح فى مصر .

وأهم أعمال الدكتور محمد الدرى هو إنشاء مطبعة لطبع الكتب الطبية على نفقته الخاصة ، فقد أنشأ فى حارة السقايين (المطبعة الدرية لطبع الكتب الطبية) . وأصدر عددًا من المؤلفات أهمها (بلوغ المرام فى جراحة الأجسام) وكتاب (الإسعافات الصحية فى الأمراض الوبائية) .

ولا يصح أن ننسى الدكتور سالم سالم الذى درس فى ألمانيا ، فقد ألف ثلاثة كتب هامة كانت تدرس بمدرسة الطب .

لقد بدأت مصر تصحو . .

ولكن حدث الصراع الرهيب بين إسماعيل وبين الشعب . . وحدث التدخل الاستعمارى الأوربى . . وسقط إسماعيل بين براثن المرابين . . وبدأت عيون أبناء الشمال تتطلع إلى استيلاء على درة وادى النيل .

كانت شعلة الحضارة متوهّجةً ، وبدأ أبناء الشام يتعلّمون الطب فى مدرسة قصر العينى ويتخرجون فيها ، وبدءوا يتجهون إلى القاهرة والإسكندرية لاقتطاف ثمرات النهضة الجديدة . .

العلوم بدأت تزدهر .

والآداب بدأت تثمر . . ويتربع البارودى على عرش الشعر العربى . . ويبدأ شوقى أوّل

خطوة نحو إمارة الشعر . . ويترجم عثمان جلال المسرح الفرنسى وتمثل مسرحياته فى دار الأوبرا . . ويكتب عبد الله فكرى بأسلوب جديد بعيد عن السجع والمحسنات البديعية .

عروس الدنيا بدأت تتزين ، وبدأ أبناؤها يعيدون صنع الحضارة .

وكما سقط إسماعيل بين براثن المرابين . . سقط بين أيدى المستعمرين .

وجاء أبناء الشمال لإطفاء الشعلة المتوهجة على شاطئ النيل .

وانتهت الرحلتان . . وأصبحت مدرسة الألسن فندقًا اسمه (فندق شبرد) . . ووضعت قصة الحضارة التى سهر على بنائها عشرات من علماء مصر فى مخازن عليها أقفال ثقيلة .

لم يعد أحد يذكر قصة الألفى كتاب التى ترجمها تلاميذ رفاعة الطهطاوى . .

ولم يبق شىء إلّا متلوف الذى أصبح اسمه الآن (متلوف ٧١) .

وأصبحنا نقول إن هذه الأعمال الجليلة التى طفت بها سريعًا . . يمكن أن تكون من التراث المصرى . . ولمّا يمض عليها أكثر من مائة عام ! !

ولكن الذى حدث هو أن جامعة دمشق أخذت هذا التراث المصرى ، وعربت به مشكورة علوم الطب والهندسة .

ويبدو أننا فى حاجة إلى رحلة داخل القاهرة أو إلى سوهاج حيث توجد مكتبة رفاعة لنكسر الأقفال التى وضعت على باب الحضارة المصرية الحديثة ونخرجها مرّةً أخرى للناس . . ولنبدأ بها رحلةً جديدةً من رحلات الحضارة المصرية الحديثة .

العظماء

١ – الشيخ حسن العطار .
٢ – رفاعة بك .
٣ – محمد بيومى أفندى .
٤ – على مبارك .
٥ – محمد قدرى .
٦ – محمود حمدى الفلكى .
٧ – عثمان جلال .
٨ – الدكتور محمد درى .
٩ – الدكتور محمد على البقلى .
١٠ – عبد الله فكرى .
١١ – محمود فهمى المهندس .
١٢ – قاسم أمين .
١٣ – قلينى فهمى .
١٤ – أمين الرافعى .
١٥ – الدكتور على إبراهيم .
١٦ – أمين الخولى .



الشيخ حسن العطار

أستاذ الأساتذة فى النهضة المصرية

هذا الشيخ حسن العطار من الأسماء اللامعة الناصعة ، فقد كان شيخًا للأزهر (١٢٤٦ هـ - ١٢٥٠ هـ) وهى السنوات الموافقة لسنة ١٨٣٠ م وسنة ١٨٣٤ م فى عز دولة محمد على .

ولكن مشيخة الأزهر مع جلالها وعظمتها لم تكن سبب شهرة الشيخ حسن العطار ، فقد تولى هذه المشيخة علماء كثيرون لم يبلغوا ما بلغه هذا الشيخ المتفتح الذهن ، العصرى التفكير من شهرة طبقت الآفاق بعد نبوغ تلميذه الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى الذى نعتبره رائد النهضة الثقافية فى مصر الحديثة .

أليس من الظلم أن نعرف التلميذ ولا نعرف الأستاذ ؟

هناك أخطاء كثيرة فى تاريخ مصر الحضارى أفدح وأخطر من أخطاء تاريخها السياسى ، وقد تسببت هذه الأخطاء فى إصدار أحكام خاطئة على حركة النهضة الثقافية المصرية فى العصر الحديث ، واعتقد بعض الكتّاب أن هذه النهضة مستوردة من أوربا ؛ لأنهم لم يعرفوا أصولها وجذورها ، فبعدت أصالتها عن عيونهم ، وظنوا أن رجلاً مثل رفاعة بك نقل من فرنسا كل مظاهر الفكر الحديث ، ولم يدركوا معنى التفاعل الذى بدأ فى مصر قبل أن يسافر الشيخ رفاعة ورفاقه إلى باريس ، وظلّ هذا التفاعل قائمًا بعد أن لمع اسم رفاعة بك ناظر مدرسة الألسن الذى جعل نصف دروس هذه المدرسة العظيمة من العلوم التى كانت تدرس فى الأزهر ، وكان يلقيها علماء من الأزهر فى النحو والبلاغة والفقه والتفسير وغيرها من علوم .

لذلك كان الدور الذى قام به الشيخ حسن العطار عجيبًا غريبًا بمقياس عصره ، لم يسبقه إليه شيخ من شيوخ الأزهر ، ولم يلحقه واحد منهم أيضًا طوال العصر الحديث حتى عصر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ؛ ولذلك أضيفت إلى مشيخته الجليلة للجامع العتيد قيمة أخرى فى تيار النهضة المصرية ، وهى الارتباط الوثيق المتين بحضارة العصر الحديث التى ظهرت فى أوربا .

ولم يكن رفاعة رافع هو التلميذ الوحيد فى هذه المدرسة ، وإن كان أنبغ التلاميذ ، فقد كان الشيخ محمد عياد الطنطاوى من نوابغ هذه المدرسة أيضًا ، وعندما طلب القيصر الروسى من محمد على إيفاد أستاذ لتدريس اللغة العربية فى جامعة (سان بطرسبورج) واسمها الآن (لينن‍جراد) ، رشح الشيخ العطار تلميذه الشيخ الطنطاوى لمحمد على ، وسافر الشيخ طنطاوى إلى روسيا بجبته وقفطانه وعمامته . وظلّ محافظًا على زيّه الأزهرى حتى توفى فى (سان بطرسبورج) ودفن هناك ، وهذا الشيخ الأزهرى هو أستاذ المستشرقين الروس . وهمزة الوصل بين الثقافة العربية والثقافة الروسية خلال عصر القياصرة . وألف عنه المستشرق الروسى الشهير (كراتشكوفسكى) كتابًا ترجم إلى اللغة العربية ونشر فى مقدمته صورة الشيخ الطنطاوى بجبته وعمـامته .

وكان الشيخ عياد الطنطاوى شاعرًا ، وله ديوان مخطوط فى دار الكتب المصرية ، وقد اطلعت عليه ، وأدركت كيف تأثّر التلميذ الشاعر بأستاذه الشاعر ، فقد كان الشيخ العطار شاعرًا ولكنه لم يجمع ديوانه .

وقبل أن أحدثك عن شخصية الشيخ العطار ، أقول لك إن هذا الرجل كان بصره يمتد إلى الآفاق البعيدة خارج مصر ، وكان قد قام برحلات إلى ألبانيا وتركيا وبلاد الشام ، وكان يتقن بعض اللغات الأجنبية ومنها التركية والألبانية ، ولكننا لا نعرف اللغات الأخرى التى تعلمها ، ولعله تعلم اللغة الفرنسية أيام حملة بونابرت على مصر ، فقد كان يخالط الفرنسيين ، ويجالسهم مع صديقيه الحميمين : الشاعر إسماعيل الخشاب والمؤرخ عبد الرحمن الجبرتى ، وكان هو أكثرهم علمًا وثقافةً ومعرفة .

لقد كان الشيخ حسن العطار وثيق الصلة بمحمد على ؛ لأنه كان يرشح له شباب الأزهر للسفر فى المهات العلمية خارج مصر ، وقد حدثتك عن تلميذه الشيخ عياد الطنطاوى الذى كان أستاذًا لمدرسة الاستشراق فى روسيا ، وظل اسمه لامعًا فى تاريخ الاستشراق الروسى حتى اليوم .

ولكن . . هل كان الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى هو التلميذ الوحيد الذى رشحه الشيخ حسن العطار للسفر فى البعثة إلى فرنسا سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٦ م) ؟

وهل كان الشيخ رفاعة إمامًا للبعثة كما يقول المؤرخون الذين تناولوا سيرته ؟

يقول على باشا مبارك :

« إن محمد على باشا طلب إلى الشيخ العطار أن ينتخب من علماء الأزهر إمامًا للبعثة الأولى يرى فيه الأهلية واللياقة ، فاختار الشيخ رفاعة لتلك الوظيفة » .

ولذلك فإننا لا نشك فى أن رفاعة بك كان إمام البعثة ، بل إنه تقرر له مرتب يوزباشى ؛ لأن مرتبات الوظائف فى عصر محمد على كانت ترتبط بالرتب العسكرية ، ورتبة (يوزباشى) لا يمكن منحها لطالب البعثة .

وقد رشح الشيخ العطار فى هذه البعثة بعض شباب الأزهر الذين سافروا إلى باريس ، وقد وردت أسماؤهم فى سجلات هذه البعثة الأولى مع لقب (الشيخ) ، وهذا هو الجديد فى الموضوع ؛ لأن الشيخ رفاعة لم يكن هو الأزهرى الوحيد الذى سافر إلى باريس ، بل إن شيخ الأزهر الشيخ حسن العطار كان يرى فتح آفاق جديدة لتلاميذه الذين جلسوا أمامه فوق حصير الجامع لتلقى العلوم الحديثة فى فرنسا ، وكان يعتقد أنهم يستطيعون هذه الدراسة .

كانت البعثة تحت إشراف المسيو جومار الذى ذكر من هؤلاء الأزهريين :

* الشيخ محمد الدشطوطى . . تخصص فى الطب والجراحة .
* الشيخ أحمد العطار . . تخصص فى الميكانيكا .

كما ذكر ثلاثةً من المشايخ عادوا إلى مصر لأسباب صحية أو لعدم أهليتهم .

وهناك شيخان آخران طبيبان تعلما فى فرنسا وهما :

* الشيخ نصر أبو الوفا .
* الشيخ إبراهيم . . الحكم .

ومما يلفت النظر أنهما احتفظا بلقب الشيخ فى إصرار ، ولم يحملا لقب الدكتور ، وقد صدر أمر من محمد على باشا فى ١٥ ذى القعدة سنة ١٢٥٢ هـ لتعيين الشيخ نصر بدلاً من الخواجة فرباى حكيمباشى مستشفى البحرية بالإسكندرية .

والشيخ نصر أبو الوفا حكيمباشى مستشفى البحرية بالإسكندرية هو جد الدكتور محمد نصر الذى كان وكيلاً لوزارة الصحة المصرية فى الأربعينات . وكان من مشاهير الأطباء .

لقد أصبحنا كمن يبحث عن نفسه فى الظلام .

إن الشيخ حسن العطار هو شيخ الأزهر الذى فتح الأبواب والنوافذ للنور ، وأخرج تلاميذه من صحن الجامع ليجلس واحد منهم على كرسى الجامعة فى (سان بطرسبورج) ،

وليجلس آخرون على مقاعد الدرس فى جامعة باريس ، فكان منهم أطباء وعلماء فى الكيمياء .

وكان الشيخ نفسه يمارس الطب على الطريقة القديمة التى تركزت فى أيامه داخل صفحات كتاب قديم اسمه (تذكرة داود الأنطاكى) ، كما كان يجيد كثيرًا من العلوم والفنون . ومنها علم الفلك ، وله رسالة مشهورة فى كيفية العمل بالاسطرلاب .

هذا الشيخ من عجائب الزمان .

كان أبوه عطارًا فى القاهرة ؛ ولذلك اهتم بدراسة الطب ، عندما كانت روشتة الطبيب تصرف من دكان العطار ، وقد ظلّ بعض الأطباء الذين تخرجوا فى مدرسة طب قصر العينى فى الجيل الماضى يتعاملون مع العطارين فى وصف الدواء للمريض على الطريقة المصرية القديمة ، وقد لحقتُ أحدهم أثناء إقامتى فى حلوان ، وقال لى إن الفارماكوبيا الحديثة مأخوذة من عندنا ، فلماذا لا نعود إلى الأصل ؟

رحم الله أيامًا مضت .

تعلم الشيخ حسن العطار الذى كان من أصل مغربى فى الأزهر ، وأخذ العلم عن أئمة الشيوخ ومال إلى علم الفلك والطب ، كما استهواه الأدب فأجاد الشعر والنثر . ثم قام بسياحات فى العالم الإسلامى . وصفها فى بعض كتاباته اللطيفة المسجوعة ، فقال فى وصف اسطنبول :

« الخليج القسطنطينى المتحف بعرائس القصور ، والرياض المعطرة بروائح الزهور ، وملاعب الولدان والحور . ومجتنى ضروب الملذات والسرور ، ومساحب أذيال الحبر والحبور ، حيث الفُلك ببدور الحسن فى ذلك الخليج سابحة . غادية فى ضروب المسرات رائحة ، والزوارق على وجه الماء ، تنساب كالحية الرقطاء . تتلاعب بها أمواجه . ويزيد بها للناظر سروره وابتهاجه . »

كما وصف بلاد الترك وبلاد الشام ، وأعجبته دمشق . فكتب عنها ، وزار القدس فقال :

« تنجلى بمشاهدة حرمه الشريف همومى ، وتزول غمومى ، وينشرح صدرى . وتصفو مرآة فكرى . وتعذُب مواردى ، وتحمد مصادرى ومواردى ، ناهيك برقة نسيم . ومرأى وسيم وعيش عهده غير ذميم ، وكأن ساكنه فى جنات النعيم » .

وبعد هذه السياحة عاد إلى مصر ، والتقى بالشاعر إسماعيل الخشاب فلم يفترقا .

يقول الجبرتى وهو ثالث الثلاثة :

– خالطه ورافقه ووافقه ولازمه فكان كثيرًا ما يبيتان معًا ، ويقطعان الليل بأحاديث أرق من نسيم السحر وألطف من اتساق نظم الدرر ، وكثيرًا ما كانا يتنادمان بدارى لما بينى وبينهما من الصحبة الأكيدة والمودة العتيدة ، فكانا يرتاحان عندى ، ويطرحان الكلفات التى هى على النفس شديدة .

وقد وصف الجبرتى هذه الصداقة وصفًا شائقًا ، فيه حرارة وصدق ، وقال إن الشيخ حسن العطار وإسماعيل الخشاب ، كانا أعظم أدباء مصر فى ذلك العصر .

قال : الشيخ العطار فى موشح من موشحاته :

أمَا فؤادى فعَنْك ما انتقلا
فَلِمَ تخيَّرتَ فى الهوى بدلا
يامُعرِضًا عن محبةِ الدنِفِ
ومغرمًا بالجمال والصلفِ
ومن به ذادَ فى الهوى شغفى
أما كفى ياظلوم ما حصلا
حتى جعلتَ الصدود والمللا .

فرد عليه إسماعيل الخشاب قائلاً :

يهتز كالغصن مال معتدلا
أطلَع بدرًا عليه قد سُدلا
يزرى بسمر الرماح إن خطرا
ساحرُ جفْنٍ لمهجتى سحرا
علم عينى البكا والسهرا
فكيف أبغى بحبِّه بدلا
وليس لى عنه جَارَ أوْ عدلا

وبعد أن توفى إسماعيل الخشاب تولى الشيخ حسن العطار جمع شعره وطبع ديوانه ولكن أحدًا لم يجمع شعر العطار ولم يطبع ديوانه بعد وفاته . بل ضاع شعره .

ويقول الجبرتى إن الشيخ حسن العطار سكت عن نظم الشعر وكتابة النثر بعد وفاة صديقه

الشاعر إسماعيل الخشاب ، واشتغل بتقرير العلوم وتحقيقها . والتأليفات المتنوعة فى الفنون المختلفة ، وذكر أنه سعى فى خدمة العلم ، وتدريس الكتب الصعبة ، حتى أصبحت له شهرة بين الطلاب فى الأزهر .

وعن طريق العلم وصل إلى مشيخة الأزهر . وكان سابقًا لعصره من ناحية اهتماماته العلمية فقد شاهد بنفسه مظاهر العلوم الحديثة التى جاءت مع الحملة الفرنسية إلى مصر ، ودخل مع صديقه الجبرتى معامل الكيمياء والطبيعة ، ولم يتعجب مما رأى كما فعل الجبرتى ، ولم يصبه الذهول ، فقد كانت خلفيته العلمية تمكنه من إدراك حقائق هذه العلوم الحديثة التى شاهدها ؛ ولذلك رشح لمحمد على بعد سنوات قلائل بعض شباب الأزهر للدراسة فى فرنسا كما قلت لك ، وحقق بعضهم نجاحًا فى علوم الطب والجراحة والكيمياء ، كما حفظوا لأستاذهم وشيخهم أعظم ما يملكه الأزهر من ألقاب وهو لقب (الشيخ) . وكأنهم أرادوا بذلك أن يقولوا للدنيا إن الأزهر قادر على ممارسة العلوم الحديثة ولو كانت فوق رؤوس علمائه العمائم . . وقد ظلت العمامة فوق رأس رفاعة بك أنبغ تلاميذ الشيخ العطار .

كان ذلك فى سنة ١٨٢٦ ميلادية .

ولكن ماذا جرى فى الأزهر خلال قرن من الزمان بعد ذهاب الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر ؟

علماء ومشايخ أنكروا العلم الحديث . وشيوخ للأزهر زعموا أنه ضلال وكفر مبين . وواحد منهم أنكر كروية الأرض عندما ألف ألفيةً فى الجغرافيا . وقال :

والأرض قالوا إنها كره .
وقولهم هذا ما أكفره .

إن السطور القليلة المبعثرة بين صفحات الكتب عن حياة هذا الرجل لا تكفى لمعرفته ، بل إن صديقه الجبرتى وهو مؤرخ كبير ، لم يطلعنا على ملامح شخصيته بصورة واضحة .

ولكننا نستوضح بعض جوانب هذه الشخصية الفريدة النادرة مما كتبه صاحبها وهو صفحات قليلة لم تبلغ المائة صفحة ، جمعها فى كتاب صغير قدمه إلى مكتبة الجهادية المصرية فى عصر محمد على .

كان الشيخ العطار عالمًا يقدر كل العلوم على اختلافها . ولكنه يرى بعين الصواب أن

العلوم الشرعية هى أرق العلوم ، وأنها لا تمنع من دراسة أى علم من العلوم ، بل إنها تحتاج إلى معرفة كل العلوم .

كتب فى إجازة لأحد تلاميذه . وهى شهادة التخرج كما نقول اليوم :

« والعلوم وإن كثرت أنواعها ، وتباينت أوضاعها ، فأجلّها قدرًا . وأرقها ذكرًا . وأبهاها حسنًا . وأفضلها اقتناءً . وأعلاها ارتقاءً . وأغزرها ارتواءً . وأكملها إشراقًا . وأجملها اتساقًا . العوم الشرعية . التى هى مقاصدها . ولأجلها تلتمس فوائدها » .

ومعنى ذلك أن كل العلوم تنتهى إلى العلوم الشرعية ؛ لأن مقاصد هذه العلوم هى الوصول إلى علم الشريعة .

وكتب فى إجازة أخرى لطالب آخر تخرج على يديه :

« فلان . . انتظم سلك دروس العلماء الأزهريين .

استجاز الفقير (الشيخ حسن العطار) بعد أن لازمه فى كتب عديدة ، وفنون مفيدة ، من المعقول والأدب . وهما مما يدرك به الطالب للعلم الأرب ، وللعلوم الشرعية نعم الوسائل ، والتحلى بهما تتزين به المجالس والمحافل . فأجزته بما تجوز لى روايته . وما يسند إلى درايته . من معقول ومنقول ، وبما لى من التأليف والنقول » .

وأنت ترى أن شيخ الأزهر الشيخ حسن العطار يمنح تلاميذه الإجازة ، أى الشهادة النهائية فى العلوم العقلية والعلوم الأدبية والعلوم الشرعية .

ثم جاء من بعده أقوام حرموا تدريس علم المنطق والعلوم الفلسفية فى الأزهر ، وهى العلوم العقلية . بدعوى أنها تفسد العقيدة أو تضيع الشريعة .

وعندما غنّت أم كلثوم قصيدة :

وحقّك أنت المنى والطلب

وأنت المراد وأنت الأرب

قلت لأصحاب الموسيقى إن هذه القصيدة من شعر شيخ الإسلام وشيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشبراوى المتوفى يوم الخميس السادس من ذى الحجة سنة ١١٧١ هـ . (١٧٥٧ م) أى منذ أكثر من مائتى سنة .

يذكرنى هذا الشعر الظريف بأشعار مولانا الإمام الشيخ حسن العطار ، وقد نقلت لك مقطعًا من إحدى موشحاته ، ومن لطائف شعره قوله عن الفرنسيين أيام حملة بونابرت .

إن الفرنسيين قد ضاعت دراهمهم .

فى مصرنا ما بين حمّار وخمار .

لقد كان الشيخ العطار كما وصفه الجبرتى أديبا شاعرًا لا يشقّ له غبار ، ولكن شعره مفقود ، وليس له ديوان كما قلت لك .

ومن ألطف أعماله الأدبية أنه جمع أقوالاً مأثورةً من الشعروالنثر وضمها فى كتابه الصغير الذى حدثتك عنه ليتعلم منها تلاميذه فنون البلاغة ، وهذه المختارات تدل على ذوق رفيع ومنها أبيات شعر ، ومنها شطور أبيات ، وعندما قرأتها تذكرت أنها كانت من محفوظات التلاميذ فى المدارس فى أيامنا . . فهل نقلوها عن هذا الشيخ الأديب الشاعر العالم الظريف ؟

لا أريد أن أنهى الحديث عن هذا الأستاذ العظيم الذى يكفيه فخرًا أنه علّم رفاعة بك فاستحق أن يوصف بأنه أستاذ الأساتذة .

ولكن ماذا أصنع ؟ لم يبق عندى كلمة أقولها .

ألم أقل لك بين السطور إننا أصبحنا كمن يبحث عن نفسه فى الظلام ؟

كنت أحب أن أزيدك معرفةً بهذا الأستاذ الجليل . . ولكن ما باليد حيلة .

رفاعة بك

أول مؤلف للأناشيد الوطنية

هذا جانب جديد من فكر رفاعة بك رائد الثقافة المصرية الحديثة ، فقد ذكر كثيرون من المؤرخين أنه ترجم نشيد المارسلييز من اللغة الفرنسية إلى العربية ، وقد حاولت العثور على هذه الترجمة فلم أصل إلى نصها حتى فى مكتبة رفاعة بك فى سوهاج بعد أن قلبت فهارسها ، وراجعتها مراجعةً دقيقةً .

ولكن رفاعة بك ترك لنا ثروة من المنظومات أطلق عليها اسم الوطنيات ، وهى لون جديد من النظم العربى نطلق عليه اسم النشيد فقد عرفنا اللحن الموسيقى الذى يؤدى من أجل مخاطبة الجماهير ، وليس من أجل الطرب .

لقد ابتكر رفاعة بك هذه المنظومات فى الأدب العربى ، وهى نوع من الومضات الخاطفة التى قد لا تتسنى لكبار الشعراء ، فقد عجز أمير الشعراء أحمد شوقى عن كتابة نشيد تردده الجماهير ، وكان النشيد الذى فاز فى مسابقة النشيد الوطنى المصرى هو نشيد الشاعر محمود محمد صادق الذى يقول فى مطلعه :

بلادى بلادى فـــداك دمى
وهبت حياتى فدى فاسلمى

وتراجعت أيضًا أناشيد شاعر النيل حافظ إبراهيم ومصطفى صادق الرافعى وعباس محمود العقاد أمام نشيد محمود صادق ، لا بسبب عبقرية صادق الخارقة ، ولكن بسبب الومضة الخاطفة ، وهذا هو ما حدث بالنسبة لنشيد سيد درويش الشهير :

بلادى . . بلادى

وهو نفس مطلع النشيد الوطنى الذى كتبه صادق ، مع أنه ليس لأحدهما ، فإن صاحب المطلع هو الزعيم مصطفى كامل الذى قال هذه الكلمة فى خطبة شهيرة ألقاها فى مسرح زيزينيا بالإسكندرية ، وقال فيها :

بلادى . . بلادى . . أنت أنت الحياة . . ولا حياة إلّا بك يامصر.

لقد اشتهرت الأناشيد الوطنية فى مصر خلال ثورة ١٩١٩ ، ثم أصبحت لهذا الفن الشعرى قواعد وأصول تربط بين الكلمات والألحان ، ولكن بداية هذا الفن كانت عندما ألّف رفاعة بك ولكن بداية هذا الفن كانت عندما ألّف رفاعة بك منظوماته الوطنية وجعلها على ألحان الموسيقى القديمة ، ومنها :

« مذهب »

ياصاح حب الوطن حلية كل فطن

(دور)

محبة الأوطان من شعب الإيمان
فى أفخر الأديان آية كل مؤمن

والمذهب ثابت فى النشيد كله ، ولكن الأدوار تتغير ومنها هذا الدور :

مصر لها أيادى عليا على البلاد
وفخرها ينادى ما المجد إلّا دَيْدنى

وأنت ترى أن المذهب ينشد مع كل دور ، ومن هذه الأدوار :

دار نعيم زاهية ومعدن الرفاهية
آمرة وناهية قِدْما لكلّ المدن
قوة مصر القاهرة على سواها ظاهرة
وبالعمار زاهرة خُصّت بذكر حسن

ومن الواضح أن رفاعة بك قد ركب هذا النظم على أنغام موسيقية معروفة عند الملحنين فى أيامه وهى أنغام الموسيقى الشرقية ، ولكن الذى حدث فى عهد محمد على هو ظهور نوع آخر من الموسيقى العسكرية عندما أنشئ الجيش المصرى الحديث .

وعلى أنغام هذه الموسيقى العسكرية نظم رفاعة بك بعض الأناشيد ومنها نشيد تقول بعض كلماته :

ننظم جندنا نظما عجيبا يعجز الفهما
بأسد ترعب الخصما فمن يقوى يناضلنا
رجالٌ ما لها عدد كمال نظامها العدد

حلاها الدرع والزرد سنان الرمح عاملنا

* * *

لنا فى الجيش فرسان لهم عند اللقاشان

وفى الهيجاء عنوان تهم به صواهلنا

لقد استطاع رفاعة بك إبداع هذا الفن الجديد فى الشعر العربى ، بل إنه حاول نشره عن طريق تلاميذه الذين على طريقته ، وقد نبغ منهم فى هذا اللون من النظم السيد صالح مجدى .

نظم مجدى خمس عشرة منظومة من هذه الوطنيات ، وعرضها على والى مصر سعيد باشا فأمر بتلحينها على الموسيقات العسكرية فى أداء التحية لدى التشريفات الخديوية والاستقبالات العمومية والمواسم الميلادية .

وهذه أول مرة فى التاريخ المصرى الحديث ، يعترف فيها بالنشيد القومى ، ولكن هذه الأناشيد أو الوطنيات التى ألفها السيد صالح مجدى لم تصل إلى النص المطلوب للنشيد ، لأنها ارتبطت بشخصية الوالى مع ارتباطها بالوطن فى نفس الوقت ، ومعنى ذلك أن نصوصها لم تصل إلى حد التجريد القومى فى نشيد واحد مثل المارسلييز ، نشيد فرنسا القومى ، مع أنها كانت منذ البدايات التى قام بها رفاعة بك تحاول تحقيق هذا الهدف .

وليس من العيب أن يعجز رفاعة بك وتلميذه السيد صالح مجدى عن الوصول إلى النشيد القومى المصرى فى ظل دولة محمد على أو دولة سعيد ، لأن هذه الطفرة المفاجئة كانت صعبة المنال ، ولم يكن تكوين الدولة الفردية الاستبدادية مما يسمح بظهور نشيد وطنى مصرى مثل المارسلييز الذى خرج من أتون الثورة الفرنسية غير أن المحاولة كانت مثيرةً حقًّا .

كيف فكر رفاعة بك فى تأليف هذه الأناشيد التى سماها الوطنيات كما ذكرت لك ، ولماذا انصرف تفكيره إلى إبداع هذا اللون من النظم الذى لم يمتلك هو ولا تلميذه صالح مجدى كل أدواته ؟

لقد فسر المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى هذه الظاهرة تفسيرًا عاطفيًّا ، ونسبها إلى الوطنية المتدفقة عند رفاعة بك ، ولكن هذا التفسير الجميل لا يصل بنا إلى حقيقة التفكير الحضارى والتقدمى عند رفاعة بك . فإن العاطفة الوطنية وحدها لا تكفى لتحقيق هذه المحاولة الجريئة التى تحتاج إلى عناصر فنية جديدة من ناحية التركيب الشعرى ، ومن ناحية الفن الموسيقى .

ويبدو أن رفاعة بك لم يصل إلى تحقيق أهدافه من ناحية إنشاد نظمه على أنغام الموسيقات العسكرية فى عهد محمد على ، وهو نفسه لم يذكر أن وطنياته استخدمت فى حفلات التشريفات أو غيرها من الحفلات الرسمية ، مع أن الموسيقى العسكرية كانت قد استحدثت فى الجيش أيام محمد على ، وقد وصفها كلوت بك وصفًا شائقًا ، وذكر أنها موسيقى أوربية وليست شرقية مما كان معروفًا فى مصر ، وما زال موجودًا حتى اليوم .

وفن النشيد الوطنى يصعب أداؤه على طريقة المطربين ، وأنغام (أمان ياللالى) أو (طربوشه مايل على خده) ، ولو حدث هذا لكان من المساخر لأن هذا الفن جماعى فى الأصل ، ولا يصلح لغناء التطريب الفردى وما يصاحبه من كورس المنشدين الذين كان يطلق عليهم اسم (السنيدة) فى الجيل الماضى ، وهم الذين يسندون المطرب فى غنائه عند بعض المقاطع .

إننى لا أقطع بأن وطنيات رفاعة بك لم تنشد على أنغام الموسيقات العسكرية فى عهد محمد على ، ولكننى خلال قراءاتى فى الوثائق وبين السطور ، لم أقرأ شيئًا عن ذلك ، رغم أن رفاعة بك استخدم كلمة الدور والمذهب فى نصوصه الشعرية ، وهاتان كلمتان موسيقيتان فى العرف السائد ، وهما من ألفاظ الموسيقى الشرقية .

ولكن الذى لا شك فيه أن صالح مجدى استطاع تقديم منظوماته للتلحين والعزف على الموسيقات العسكرية كما قلت لك .

ألّف صالح مجدى وطنياته بطرق متعددة .

* طريقة الملاحم .
* طريقة الغناء الشرقى المنغم ومنه التواشيح وأغنيات المذهب والدور .
* طريقة النشيد المتحرر من المذهب تحررًا كاملاً .

وأنت تسألنى التفسير .

لقد كتب صالح مجدى ملحمةً مصريةً كاملةً ، استخدم فيها المذهب وهو المطلع المتكرر ، واستخدم فيها الأدوار التى لا تكرر ، ولكن هذا الاستخدام الذى حشاه حشوًا بمدح سعيد باشا يمكن تجريده لحكاية التاريخ المصرى منذ سبعة آلاف سنة ، وهذه الملحمة المصرية تقول كلماتها :

مصرايم وضع الأساس   من بعد أحكام القياس

وسعيد للخلق ساس   وبعزمه أبدى الحماس
بوزريس فى بعد السير   قد شاد (قوصا) وافتخر
وبحزمه بلغ المراد
أبوابها فيما ظهر   مائة كما جاء الخبر
وجنوده عدد الجراد
موريس سلطان نبيل   ملك الورى قبل الخليل
فحباهم عند الرحيل   ببحيرة الفيض الفضيل
للرى فى العام الجماد
شوريد فى سفر الأمم   فى زعمهم شاد الهرم
حتى إذا الطوفان عم   آوى إليه واعتصم
مما طغى منه وزاد
واينتفيس بلا محال   ربى بأمطار النوال
مع نجله زمر العيال   فسما على كل الرجال
بمناقب الملك الجواد
وستروستريس أبو الصفاح   والسمر فى يوم الكفاح
أسدى لدولته النجاح   وثار خده غرس الفلاح
ولمصر بالعدل جاد
ناخوس فى وصل البحار   خاب الرجا منه وحار
والعرب أرباب الفخار   لم يلحقوا منه الغبار
والداورى بالقصر ساد
والروم أصحاب الطرب   فى مصر قد بلغوا الأرب
فجلاهم عنها العرب   أهل الشهامة والرتب
وأولو السماحة والرشاد
الظاهر الليث الفجور   وأزال عن مصر الفتور
وأنا لها طيب الرقاد

هذا النظم الثقيل الذى نقلت لك بعضه ، كان من خصائص العصر الذى كتب فيه ،

وهو ليس من الشعر فى شىء ، ولكنه يحمل دلالات هامة فى تاريخ النهضة الأدبية المصرية ، فهو لون من شعر الملاحم ، وأنت ترى شبيهًا له فى ترجمة بطرس البستانى لإلياذة هوميروس بعد ذلك بسنوات طويلة .

لم يكن رفاعة بك ولا تلميذه صالح مجدى شاعرين ، ولكنهما كانا ينظمان الشعر بهذه الطريقة ، أملاً فى الوصول إلى النشيد الوطنى المصرى .

قال صالح مجدى فى مطلع نشيد من هذه الأناشيد :

جـيش سـعـيـد يـامصرى
أبشر بـالـفـتـح وبـالـنصر

وكان سعيد باشا قد أعدّ جيشًا من أصحاب الأجسام ، ورويت عنه روايات كثيرة فى محاولة إظهار البطولة العسكرية فى ميادين ليست هى على كل حال ميادين القتال ، فقد ذكروا عنه أن فرش البارود على مساحة من الأرض ، ثم امتطى صهوة جواده ، وأشعل السيجار ، وجرى فوق البارود ، واعتبر هذه الحركة من ألوان البطولة لأن شعلة السيجار لم تسقط على البارود لتشعله ، فتحدث فرقعة قد تنسف الحصان وراكب الحصان .

وسعيد باشا هو الذى باع امتياز حفر قناة السويس للمقامر الفرنسى ديلسبس ، وكان الثمن طبق مكرونة ، ضحك به ديلسبس على ذقن الباشا .

وهذا الوالى هو الذى وافق على إنشاد منظومات صالح مجدى على الموسيقات العسكرية ؛ لأنها توافقت مع أهوائه فى صنع جيش من الجنود طوال القامات ، ولم يفهم سعيد باشا ما أراده رفاعه بك أو تلميذه صالح مجدى من محاولة وجود نشيد قومى مصرى ؛ ولذلك تبددت هذه الجهود فى الهواء ، وساعد على ضياعها أنها كانت ترتبط بالوالى سعيد باشا ، وكان بعضها يقال فى مناسبة عيد ميلاده ، ومنها موشح كتبه صالح مجدى ، وهو ليس من الوطنيات ، ولكنه يحمل الدلالات على الجو الذى كان سائدا .

يقول صالح مجدى :

وفى مـيلاد أبى الاسـعـاد
أتى الـقصـاد للاسـتـئـنـاس
فـكـل قـال بصوت عـال
لـه الإقـبـال سـعـيـد الناس

ولكن . . ما هى قيمة هذه الوطنيات التى كتبها رفاعة بك وصالح مجدى ؟

عندما اختلطت الرغبة فى تأليف الأناشيد الوطنية مع الرغبة فى إرضاء الحاكم ، سقطت فكرة وجود النشيد الوطنى المصرى ، مع أن بذورها كانت موجودة كما ذكرت لك ؛ ولذلك لم يوجد شاعر أو نظام يكتب الوطنيات بعد رفاعة بك وتلميذه صالح مجدى .

تصور أن الحركة الشعرية المصرية مع تجردها وانطلاقهـا لم تلتفت إلى هذا الفن الشعرى الجديد الذى ابتكره رفاعة بك وسار على نهجه تلميذه صالح مجدى ، مع أن بعض تلاميذ رفاعة بك كانوا يقولون الشعر ومنهم إبراهيم بك مرزوق ، وله ديوان لطيف اسمه (الدر البهى المنسوق) ولكنه لم يكتب أو ينظم وطنية واحدة ، وهو زميل صالح بك مجدى ، وكلاهما تلميذان لرفاعة بك .

وبعد ذلك جاء الشاعر صفوت الساعاتى والشيخ على الليثى والشيخ على أبو النصر المنفلوطى . . ثم البارودى العملاق . . وإسماعيل باشا صبرى . . وأحمد شوقى . . وحافظ .

ولم يظهر النشيد الوطنى أول مرة إلا عندما أنشد سيد درويش :

بلادى . . بلادى .

وكان ذلك فى عنفوان ثورة ١٩١٩ ، وما زلنا فى حيرة : من الذى ألف هذا النشيد ؟

ليس معنى ذلك أن مصر لم تعرف الغناء الجماعى ، فقد عرفته فى عصر المماليك ، وهو نوع من الفولكلور ، ولكنه ليس نشيداً على شروط النشيد : لأن الإنشاد الجماعى فى المواقف الوطنية أو الأفراح أو الإنشاد الجماعى فى المواقف الوطنية أو الأفراح أو الإنشاد الدينى لا يحمل مقومات النشيد الوطنى الذى تعرفه الشعوب ، ونعرفه نحن أيضًا منذ ثورة ١٩١١ ، وهو الذى حاول رفاعة بك أن يحققه فى مصر .

ويبدو أن الأناشيد الوطنية لا تنبع من ضمائر الشعور فى ظل الحكم الاستبدادى ، ولكنها تنبع من الثورات ، وهذا هو ما حدث فى فرنسا أيام الثورة ، كما حدث فى مصر عندما قامت ثورة ١٩١٩ .

ثم يبقى بعد ذلك شىء هام فى تاريخ الآداب العربية الحديثة ، وهو أن رفاعة بك كان سابقًا لعصره عندما كتب وطنياته ، وهى بذور الأناشيد الوطنية ، وهذا السبق فى التفكير يدل على أن هذا الأستاذ العظيم كانت له مواهب خارقة من ناحية الفكر المستقبلى لمصر وللشعوب العربية كلها ، وليس من الضرورى أن يكون شاعرًا أو أميرًا للشعراء .

كان رفاعة بك أميرًا للفكر .

وقد تسألنى قبل أن أودعك فى هذه الكلمات :

– لماذا سميت رفاعة رافع الطهطاوى باسم رفاعة بك ؟

أقول لك ياصاحبى إن اسم (رفاعة بك) كان يكفى لمعرفته فى كل مكان فى مصر . وكان يكتب فى كل وثيقة ، وفى كل خطاب أو ورقة أو على صدر كتاب .

ظل (رفاعة بك) يحمل هذا اللقب ، ولا يحمل لقب باشا .

وظل (شوقى بك) أمير الشعراء يحمل هذا اللقب ولا يحمل لقب باشا .

أردت مداعبتك عندما جعلت عنوان هذا المقال (رفاعة بك) حتى تعلم أن أعلام العلماء لا يزيدهم اللقب شيئًا ، وأن أمراء الشعراء لا ينتقص من قدرهم أنهم لا يحملون الألقاب .

لقد كان بعض تلاميذ (رفاعة بك) من الباشوات الذين نسينا بعض أسمائهم .. ولكننا سنظل نذكر اسم رفاعة رافع الطهطاوى بلا لقب .. لأن اسمه أسمى من كل الألقاب .

الأستاذ محمد بيومى أفندى

عالم رياضيات فقدته جامعة باريس

عندما يكون الأستاذ أصغر سنًّا من التلميذ ، يصبح الحديث عن العبقرية أمرًا مطلوبًا . فإذا كان هذا الأستاذ الشاب قد رشحته جامعة باريس للتدريس فى كلية الهندسة فإن البحث عن سمات عبقريته يصبح أمرًا واجبًا .

ولم يكن هذا الأستاذ الشاب فرنسيًّا حتى يتولّى تدريس العلوم الرياضية فى جامعة باريس العريقة ، ولكنه كان محمد بيومى أفندى الذى طرده الوالى عباس باشا الأول من القاهرة ، وعينه مدرسًا للحساب فى مدرسة الخرطوم الابتدائية عندما طرد زميله رفاعة بك وعينه ناظرًا لهذه المدرسة .

منذ أكثر من ثلاثين عامًا لم تفارق صورة محمد بيومى خيالى ، ومازلت أتخيلها وكأنى أراه أمامى ، وأنا لم أر له صورةً مرسومةً ، فقد اختطفه الموت قبل أن يجلس أمام رسام ليرسم صورته ، كما صور الأكابر من زملائه . . أو من تلاميذه ، وأنا أستوحى ملامح الشخصية من الصور المرسومة فى بعض الأحيان، ، وقد أعجبنى كتاب عن شاعر الألمان (يوهان ولتجانج فون جوته) كان من أعاجيب الكتب لأن مؤلفه جعل عنوانه (جوته فى صور) ، وكلما قلبت صفحات هذا الكتاب وتأملت الصور المرسومة والصور الفوتوغرافية ازداد حبّى للشاعر ، وز دت معرفتى به ، مع أن الصور الفوتوغرافية ليست إلا صور أماكن وقصور وغرف لأن عصر جوته لم يكن قد وصل إلى آلة التصوير الفوتوغرافى .

وعندما قرأت فى كتاب الجبرتى أن المشايخ كانوا يكبرون العمائم ، ويوسعون أكمام القفاطين والجبب والفراجيات كلما كبر قدرهم وشاهدت الصور المرسومة للمشايخ الكبار أيام الحملة الفرنسية ، ازداد فهمى لحقائق التاريخ ، فقد كانت عمامة الشيخ عبد الله الشرقاوى مما تنوء بحمله الرؤوس لأنه كان شيخًا للأزهر . وقد كبر عمامته لتليق بهذا المنصب الجليل .

وقد تخيلت صورة محمد بيومى من واقع عصره . فهو أفندى صغير يسوى شاربه ولا يطلق

لحيته . ويرتدى الثياب الافرنجية . ويضع على رأسه طربوشًا يغطى أذنيه وسوالفه وشعره الطويل . فقد كانت هذه هى موضة عصره .

وتخيلته أسمر الوجه وسيمًا . براق العينين يشع الذكاء من قسمات وجهه قبل أن يشع من عينيه .

ثم تخيلته مرةً أخرى فى زى زميله الذى سافر معه فى البعثة إلى باريس (رفاعة بك) بالثياب المصرية المقصبة والعمامة المسواة بشال من الحرير الفاخر . وهى ليست مثل عمائم المشايخ . ولا جبته وقفطانه على نمط قفاطين المشايخ وجببهم . ولكنها محبوكة الأطراف فى تنميق ودقّة . ولها وشى من الحرير المقصب بالذهب .

وقد تراوحت صور محمد بيومى فى خيالى وأمام عينى . لسبب مجهول لا أدريه .

هل هو الحب لهذا العبقرى مجهول التاريخ ؟

هل هو الرغبة فى معرفته عن قرب . وهو الذى أطاحت به مظالم عباس باشا الأول فأصيب بضربة شمس فى الخرطوم أنهت قصة عبقريته ؟ .

فى بعض الأحيان يصبح المجهول معلومًا ، ويصبح المعلوم مجهولاً ، ثم تنتهى إلى كلمة بلا معنى !

– لست أدرى ! !

يغيب العقل . ويتوارى الوجدان خلف ضباب الزمن . ثم يصبح الإنسان خرقةً مهلهلةً بلا عقل ولا قلب . . وهذا هو ما يحدث فى فترات الضياع عندما يصبح الإنسان داخل دائرة (لست أدرى) . .

إن مأساة الأستاذ محمد بيومى جعلتنى أقول لنفسى .

– لست أدرى .

ولم يكن السبب هو أننى عجزت عن معرفة تفصيل تاريخ حياته ، ولكن لأننى وقفت أمامه مذهولاً لست أدرى كيف استطاع الوصول إلى هذه العبقرية الفذة الخاطفة التى أحرقتها ضربة شمس أصابت رأس صاحبها تحت سماء الخرطوم ؟

لقد كتب أمين باشا سامى ، مؤرخ الحركة العلمية فى مصر منذ عهد محمد على حتى عصر إسماعيل . تاريخ حياة الأستاذ محمد بيومى فى أسطر . كانت أقصر من كتابة نعى لبائع كاوتشوك أو تاجر سيارات ينشر فى جريدة يومية .

وهذه هى السطور . أعيد لك كتابتها . لنقرأها معًا :

« سافر لفرنسا فى سنة ١٢٤١ هـ ١٨٢٦ م وحضر فى سنة ١٢٥٠ هـ بعد أن تمم دراسة المهندسخانة بفرنسا . وتعين مدرسًا بمدرسة المهندسخانة ببولاق فى السنة المذكورة . وتلقى عليه كثير من الذين هم أكبر منه سنا فى عصره مثل سلامة باشا وإسماعيل باشا محمد ومحمود باشا الفلكى وعامر بك . ووكل لعهدته وهو مدرس بالمهندسخانة استكمال معارف كل من طايل ودقلة المعيدين بها لأنهما حضرا من أوربا بدون تتميم دراستهما . وله جملة مؤلفات منها كتب (جر الأثقال) وكتاب (حساب المثلثات) وكتاب (الجبر) وغيرها التى طبعت فى عهد محمد على باشا .

وفى عصر عباس باشا تعين مدرسًا للحساب بالمدرسة الابتدائية بالخرطوم بأمر صدر منه . وتوفى بها فى منفاه . وهو من أعلم العلماء فى الرياضة .

وقد حضر أحد رفقائه من فرنسا لرؤيته بالخرطوم بتوصية من حكومة فرنسا فى سنة ١٨٥٠ م . وبعد رؤيته طبع كتابًا خاصًا بما رآه عنوانه (محمد بيومى فى منفاه – سنة ١٨٥٠ م) .

وأنا أكتب عن الأستاذ محمد بيومى بعد مائة وثلاثين عامًا من صدور هذا الكتاب الفرنسى الذى ألفه أحد زملائه عنه بعد زيارته فى الخرطوم وقبل أن تنتهى رحلته الترابية الخاطفة . ولكننى لم أستطع الوصول إلى هذا الكتاب الذى حدثنا عنه أمين باشا سامى . وأعتقد أنه قرأ الكتاب أو شاهده على أقل تقدير ؛ لأن هذا المؤرخ الذى نسيناه فى تيار (لست أدرى) كان من أعظم المحققين المدققين . بل إن كتابه الموسوعى الضخم الذى سماه (تقويم النيل ») يعتبر أعظم سجل للتاريخ المصرى الحديث منذ عصر محمد على حتى عصر إسماعيل . وهو كتب وثائق نادر لأنه جمع ما استطاع من وثائق هذا العصر وترجم ما كان منها بالتركية أو الفرنسية إلى اللغة العربية .

ولكن تعريفه بالأستاذ محمد بيومى اقتصر على هذه السطور القليلة التى نقلتها لك . مع أن هذا الأستاذ كان من مشاهير عصره . حتى أن الحكومة الفرنسية أرسلت إليه أحد زملائه الذين درسوا معه فى باريس للاتفاق على السفر إلى فرنسا والتدريس فى كلية الهندسة بجامعة السوربون .

كانت مأساة محمد بيومى مثل غيره من الأساتذة الذين شتتهم عباس باشا الأول بعد أن

أغلق المدارس فى مصر بسبب حصانه الأحمرانى الذى نفق بعد أن عجز الأطباء البيطريون عن علاجه . فأغلق مدرسة الطب البيطرى . وطرد كل الأطباء البيطريين من خدمة الحكومة . ثم استهواه الشيطان فأغلق كل المدارس . وأصدر أمره الغريب بتعيين رفاعة بك أستاذ الأساتذة ناظرًا لمدرسة الخرطوم الابتدائية كما عين النوابغ من أساتذة المهندسخانة وغيرها من المدارس العليا مدرسين فى هذه المدرسة مع ناظرهم رفاعة بك .

بسبب الحصان الأحمرانى توقفت النهضة فى مصر . ومات محمد بيومى . ولم يكن هو الضحية الوحيدة لجنون عباس الأول ، فهناك زميل آخر له هو (أحمد طايل أفندى) الذى ذهب إلى الخرطوم صحبة رفاعة بك والأستاذ بيومى ، وعاد من منفاه فى أول حكم سعيد باشا مصابًا بالحمى ، وتوفى بعد وصوله إلى القاهرة بليلتين .

وكان (أحمد طايل) من أبناء إحدى قرى مركز طوخ بالقليوبية وبعد أن تعلم فى مصر أرسل فى بعثة إلى فرنسا لدراسة الهندسة ، وعاد فى سنة ١٨٣٥ م ، وعين بمدرسة المهندسخانة مساعد مدرس ومعيدًا لدروس الأستاذ محمد بيومى ، ثم عيّن مدرسًا للعلوم الميكانيكية والجبر ، ثم مهندسًا للركاب العالى سنة ١٨٤٢ فى عهد محمد على .

ثم حدثت مأساته فى عصر عباس الأول كما قلت لك ، وكان الرجل الثانى الذى اختطفه الموت بعد زميله محمد بيومى .

قال على باشا مبارك عن الأستاذ أحمد طايل :

«كان قصير القامة ، صغير الجسم ، كثير الفهم ، لا يبالى بأكثر الأمور ، وله جرأة على الأمراء وإقدام . وكان محبًا لتلاميذه يرغب فى تعليمهم ، وأخذ عنه أكثرهم أو جميعهم » .

أما الأستاذ بيومى فأصله من دهشور بالجيزة ولكننا لم نصل إلى معرفة تفصيلات عن تعليمه فى مصر أو تاريخ ميلاده . أو أسرته وأهله . . مع أنه كان نابغة عصره ، وكان يقفز إلى المجد قفزًا ، حتى قال عنه على باشا مبارك إنه كان أستاذًا ومرجعًا لكثير من نوابغ المهندسين المصريين وكان إليه المرجع وعليه المعول فى مدرسة المهندسخانة .

وقد نقل إلى قلم الترجمة بوزارة المعارف ، واشتغل مع زميله رفاعة بك ، ولا نعلم ظروف نقله من عمله المرموق كبيرًا للأساتذة فى مدرسة المهندسخانة إلى وظيفة مترجم فى قلم الترجمة ولكن أعداء النهضة المصرية من الحكام الجهلاء هم الذين أغلقوا مدرسة الألسن وعيّنوا ناظرها أستاذ الأساتذة رفاعة بك رئيسًا لقلم الترجمة . . ثم عينوه ناظرًا لمدرسة ابتدائية

فى الخرطوم وأبعدوا معه زملاءه ومنهم محمد بيومى وأحمد طايل وغيرهما ممن لم نصل إلى أسمائهم وسط زحمة الأحداث . . وظلام هذا العصر الذى تولى فيه الحكم وال مجنون ، حطم دعائم النهضة المصرية الحديثة بسبب حصان أحمرانى نفق بين أيدى الأطباء .

لقد تألقت حياة الأستاذ محمد بيومى فى مدرسة المهندسخانة ببولاق عندما أصبح كبيرًا للأساتذة ، فقد كان الأكابر من أساتذة هذه المدرسة العظيمة معيدين له ، فهو لم يعلم التلاميذ وحدهم ، ولكنه كون جيلاً من الأساتذة كان منهم تلميذه وزميله الأستاذ أحمد طايل الذى شاركه مأساته فى الخرطوم واشتغل معه مدرسًا فى مدرستها الابتدائية كما حدثتك عنه . ثم توفى بعد وصوله من منفاه إلى القاهرة بليلتين اثنتين .

ومن هؤلاء المعيدين الذين رعاهم الأستاذ بيومى وعنى بهم ، الأستاذ محمد دقلة بك ، وأصله من بلدة بسيون مركز كفر الزيات ، وقد سافر إلى فرنسا فى البعثة سنة ١٨٢٨ وعاد سنة ١٨٣٥ ، وعين معيدًا لكبير الأساتذة بالمهندسخانة محمد بيومى أفندى ، ثم عين بعد ذلك مدرسًا لعلوم الجبر وهندسة الرى والقناطر والجسور . ووكيلاً للمدرسة مع استمراره فى إلقاء الدروس .

قال عنه على باشا مبارك :

وأكثر المهندسين تلقوا عنه ، وكان حسن الإلقاء ، يجتهد فى التعليم ، ويحث على الفهم وكان من أعظم المهندسين .

ومن تلاميذه (سلامة باشا إبراهيم) مفتش هندسة الوجه البحرى ، ثم مفتش هندسة الوجه القبلى ثم مفتش عموم ديوان وزارة الأشغال . وكان من كبار المهندسين وقد اشترك فى إنشاء الترعة الإبراهيمية فى صعيد مصر ، وإقامة القناطر عليها .

ومن هؤلاء التلاميذ أيضًا (إسماعيل باشا محمد) الذى كان ناظرا لقلم الهندسة ، ومفتشًا لرى الوجه القبلى ، ثم أصبح رئيسًا لمجلس شورى القوانين سنة ١٨٩٩ .

أما نابغة العلوم الفلكية فى عصره ، الشهير محمود حمدى باشا الفكى . فإنه واحد من تلاميذ كبير الأساتذة بيومى أفندى .

ومنهم (عامر بك سعد) أستاذ الرياضيات بالمدارس الحربية .

كثيرون هم تلاميذ الأستاذ محمد بيومى أفندى الذى كان له الفضل الأكبر فى إنشاء المدرسة الهندسية الحديثة فى مصر ، عندما استطاع تخريج أمثال هؤلاء الأكابر الذين زينوا

الحياة المصرية بنور العلم ، وكانوا الكواكب الساطعة فى سماء النهضة .

لقد كان بعض أعضاء البعثات يعودون إلى مصر قبل إتمام تعليمهم فى فرنسا ، لأسباب كثيرة منها عجز بعضهم عن متابعة الدراسة ، أو إلغاء البعثة توفيرًا للنفقات ، أو لأسباب شخصية ، فكان هذا الشاب العالم الفذ يتلقفهم ولا يفرط فى واحد منهم ويتولى بنفسه تأهيلهم وإتمام علومهم ، حتى يصبحوا فى درجة علمية مساوية لزملائهم ، وقد جعل من مدرسة المهندسخانة محرابًا للعلوم ، يلجأ إليه ، بناة النهضة الحديثة ، ويجدون فيه المأوى . فيفتح لهم أستاذهم صفحات الكتب المغلقة ، ويأخذ بأيديهم حتى يجلسهم على مقاعد التدريس ، أو يخرجهم إلى الحياة العامة مهندسين أكفاء قادرين .

وأنت ترى أن أهم أسباب التخلف التى وصلنا إليها هو ما أحكيه لك عن حياة هذا الأستاذ وأمثاله من رواد النهضة الحديثة الذين أصابتهم ضربات الحكم المستبد الجاهل أو ضربات الشمس الحارقة الماحقة .

كتب السيد صالح مجدى بك عن رحلة العذاب التى عاشها أستاذه رفاعة بك وزملاؤه فى الخرطوم :

– وكان (رفاعة بك) – رحمه الله – مدة إقامته يتمنى سرعة عودته إلى مصر . لكنه لم يظفر بمرامه إلا بعد انقضاء ولاية المرحوم عباس باشا المتوفى فى ثمانى عشر شوال أحد شهور سنة سبعين ومائتين وألف . فلما عاد إلى وطنه بالعافية والصحة والاحترام ، فى أوائل حكم خلفه المرحوم محمد سعيد باشا ، المتوفى فى ثمان وعشرين من رجب أحد شهور سنة تسع وسبعين بعد المائتين والألف ، حمد الله – سبحانه وتعالى – على الخلاص من ضيق الأقفاص وكان معه هناك عدة من أبناء المعارف من ضمنهم المرحوم محمد أفندى بيومى المهندس الماهر المشهور ، فمات وبالخرطوم قبر فى سنة ثمان وستين ومائتين بعد الألف ، ولم يرجع معه إلى القاهرة المحروسة إلا من كان فى أجله فسحة » .

لم يذكر صالح مجدى أسماء من كانوا مع رفاعة بك فى الخرطوم ، ولكن عبارته تدل على أن آخرين من الأساتذة قد ماتوا هناك ، غير الأستاذ بيومى أفندى المهندس الماهر المعهود وهذه هى إحدى جنايات الطغيان والاستبداد التى عاشت مصر فى ظلامها منذ بدايات النهضة الحديثة التى سبقت نهضة اليابان ، ثم انتكست فوصلنا إلى ما نحن فيه الآن ، حيث نبدأ عصر النهضة من جديد .

مضت مائة وثلاثون سنة منذ وفاة الأستاذ محمد بيومى أفندى فى الخرطوم .

وخلال هذه السنوات ظلّت مصر مستمسكة بوسائل النهضة الحديثة فى إصرار ، وظلت تكافح فى ميادين مختلفة عسكرية وسياسية واقتصادية ، تنتصر أحيانًا وتنكسر أحيانا ، ولكنها رغم ذلك قادت النهضة العلمية إلى جانب قيادتها لحركات النضال الوطنى .

لقد كانت الرحلة القصيرة للأستاذ محمد بيومى أفندى من أعظم وأنصع معالم هذه النهضة ، وكان دوره فى العلوم الرياضية والهندسة مواكبًا لدور زميله (رفاعة بك) فى العلوم الإنسانية .

كان هذا الأستاذ الجليل أول مترجم ومؤلف فى الهندسة والرياضيات باللغة العربية التى كان يدرس بها هذه العلوم فى مدرسة المهندسخانة ، وقد طبعت كتبه فى مطبعة بولاق وكانت من بشائر النهضة .

وأشهر هذه الكتب المترجمة عن الفرنسية :

* جر الأثقال .
* الجبر والمقابلة .
* ثمر الاكتساب فى علم الحساب.
* الهندسة الوصفية .
* جامع الثمرات فى حساب المثلثات .

وقد شجع هذا العمل الرائد لهذا الأستاذ النابه غيره من زملائه على تأليف الكتب الهندسية والرياضية باللغة العربية ، فألف أحمد دقلة بك كتاب (رضاب الغانيات فى حساب المثلثات) ، كما ألف غيره كتبا عديدة فى هذه العلوم الحديثة وهى كتب مطبوعة ، وكانت تدرس فى مدرسة المهندسخانة ، بل إن (على باشا مبارك) الذى تولى نظارة المدرسة فى الجيل اللاحق بجيل الأستاذ بيومى أفندى أنشأ مطبعةً خاصةً لطباعة الكتب الهندسية وكتب الرياضيات فى مدرسة المهندسخانة .

وهؤلاء الأكابر من صناع النهضة المصرية ، كانوا يدركون أن إعادة بناء الحضارة فى مصر ترتبط بلغة مصر ، فنقلوا العلوم الحديثة إلى العربية ، ودرسوها فى الطب والهندسة والجغرافية والفلك وسائر العلوم بهذه اللغة القادرة .

لم يسأل واحد منهم هذا السؤال الخائب :

– هل تستطيع اللغة العربية احتواء علوم العصر وتنكولوجيا العصر؟

ولم ينتظر واحد من هؤلاء العظماء إجابة عن هذا السؤال .

ولكنهم ترجموا ، وألفوا ، ودرسوا ، وطبعوا كتبهم . بلغتهم القومية . ولم تكن عندهم عقدة الخوف من اللغات الأجنبية التى أتقنوها إتقانًا عظيمًا ، ولم يقولوا إن التأليف والتدريس باللغة العربية يمنع العلماء من إتقان اللغات الأخرى . أو يحول بين الطلاب وبين دراسة اللغات الأخرى .

كانت القضية الأساسية عند الأستاذ محمد بيومى أفندى وأمثاله من الرواد الأوائل هى صنع النهضة الحديثة ، وقهر الظلام وإطلاق أشعة النور ، فلم يفكروا فى قدرة لغتهم على استيعاب حضارة العصر ، ولكنهم فكروا فى قدرة عقولهم على صنع حضارة مصر بلغة مصر ، حتى يصل شعاع النور إلى كل العقول .

إن الألمان يدرسون كل العلوم بلغتهم الألمانية وهى ليست لغة عالمية مثل الفرنسية والإنجليزية ، فهل أنقص هذا من قدر العلوم عند الألمان بسبب اللغة ، أو منع العلماء والطلاب عندهم من معرفة اللغات الأخرى ؟

أليس يكفى أن يكون من الألمان (أينشتاين) أكبر علماء القرن العشرين ؟ أقول لك إنه لو كان (رفاعة بك) قد نجح فى نقل معالم الحضارة فى العلوم الإنسانية إلى اللغة العربية عند مطالع هذا العصر ، فإن الأستاذ محمد بيومى أفندى كان أكثر نجاحًا لأنه نقل علوم الهندسة والرياضيات إلى لغتنا العربية .

ولكننا وقد مضى أكثر من قرن من الزمان بعد وفاة الأستاذ محمد بيومى أفندى ، سمعنا شاعر النيل حافظ إبراهيم يقول عن اللغة العربية وهى تنعى حظها بين أهلها فى سنة ١٩٠٣ :

وَسِعْتُ كتاب الله لفظًا وغايةً .
وما ضِقْتُ عن آيٍ به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلةٍ
وتنسيقِ أسماءٍ لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدرُّ كامن
فهل سألوا الغوّاص عن صدفاتى
....

أيهجرنى قومى ، عفا الله عنهم
إلى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى
لعاب الأفاعى فى مسيل فرات .

لو بعث الأستاذ بيومى من قبره المجهول المكان فى الخرطوم ، لقال لشاعر النيل حافظ إبراهيم الذى نزع الإنجليز رتبته العسكرية فى الخرطوم وأعادوه إلى مصر :

– لا ياشاعر النيل . . ها هى كتبى بلغتى فيها كل ما طلبته من وصف الآلات وذكر المخترعات .

حقًّا . . كان هذا الأستاذ المهندس الماهر من عظماء مصر فى هذا العصر .

على مبارك

فلاح برنبال

كلما تخيلت صورة هذا الشاب المصرى الفلاح ، العائد من باريس وقد ارتدى ثياب الملازم فى الجيش ، وكانت ثيابًا مقصبةً ، ثم دخل قريته برنبال ، ودقّ باب بيته الريفى فى جنح الظلام ، والناس نيام وفتحت له أمه الفلاحة الباب .

كلما تخيلت هذه الصورة التى كتبها على باشا مبارك بقلمه ، تهتز مشاعرى .

وهناك لحظات فى حياة الإنسان تساوى كل حياته ، ومنها هذه اللحظة التى حدث فيها اللقاء بين على مبارك وأمه عند باب خشبى له ضبة من الخشب أيضًا . . فقد كانت الأم تمسك بيدها المسرجة وهى تفتح الباب لترى فى الضوء الخافت ضابطًا واقفًا أمامها ، فتصرخ رعبًا ؛ لأن الضباط والعساكر لا يذهبون إلى البيوت فى ظلمة الليل إلا للشر .

ولكن الشاب الذى كان يدرك هذا المعنى ، قال لأمه :

– أنا على . . أنا على .

فصاحت الأم وهى تقترب بالمسرجة فى يدها نحو وجهه :

– على . . ابنى ؟

ثم اطمأن قلبها ، وتبدل الفزع إلى فرح ، ووضعت المسرجة على الجدار ، ورفعت كفها إلى فمها وزغردت ، وكانت بين أحضان ولدها العائد من فرنسا .

وصحت قرية برنبال على أصوات الزغاريد ، وحمل الفلاحون فوانيسهم ومعهم نساؤهم وأطفالهم ، واتجهوا نحو بيت على مبارك .

هذا المشهد الرائع وصفه على باشا مبارك أبو التعليم وأبو الحضارة فى مصر الحديثة .

قرية مصرية فى الدلتا على مقربة من المنصورة استيقظت ذات ليلة لتحتفل بشاب من أبنائها على أنغام زغاريد النساء ، وانقلب الليل نهارًا ، وعلقت الفوانيس عند باب الحارة ، وفى البيت الريفى الصغير ، وفرشت الحصر ، وجلسوا جميعاً يتأملون الملابس المقصبة التى يرتديها الملازم على مبارك ، وخيل إليهم أنهم فى حلم .

كيف أصبح هذا الفلاح واحدًا من فئة الحكام؟

إن القرى المصرية لم تشهد حكامًا خلال مئات السنين إلا من المماليك والترك والشركس وأشباههم .، وكانوا يشنون الغارات على القرى لينهبوها ، ولم يصدق أهالى برنبال عيونهم وهم يرون ابن قريتهم مرتديًا ثياب الملازم ، ولعلهم كانوا يمدون أيديهم إلى كتفيه ليتحسسوا الجوخ الأسود الذى صنعت منه (ثيابه) ؟ لأنهم كانوا لا يعرفون غير الجلاليب الزرقاء التى وصفوا بها .

ودخل الشاب مع أمه إلى غرفتها ، وأخرج من جيبه جنيهات ذهبية أعطاها لها وطلب منها إعداد طعام لأهل قريته جميعًا ، وسهرت القرية حتى الصباح .

هذا المشهد لا يتكرر .

كان على مبارك فى تلك الأيام يعمل مع (سليمان باشا الفرنساوى) فى إصلاح حصون دمياط ، فاستأذن منه لزيارة والدته فى قريته وكانت مدة الزيارة أربعًا وعشرين ساعة . وخلال هذه الساعات القليلة حدثت هذه الأحداث العظيمة فى هذه البانوراما الليلية المفاجئة .

إن هذه اللحظة هى التى فتحت أبواب المستقبل للمهندس الشاب على مبارك ، لأنه عاش لحظة الحضارة المصرية حياةً كاملةً بكلّ مقوماتها ، بعد أن عرف حضارة فرنسا معرفةً كاملة .

الشىء العجيب هو أن هذا الفتى الفلاح تعلم كل هذه العلوم فى مصر وأوربا ، وقد حدثتك عن لحظة الصدق فى حياته عندما التقى بأمه فى قريته لتتعرف على شخصيته النادرة العظيمة .

كان أبوه عمدةً للقرية ، وتعلم الصبى فى الكتاب ، وحفظ القرآن ، واشتغل كاتبًا مع أحد الموظفين الحكوميين فى عهد محمد على . ثم أخذوه مع بعض الفتيان من أبناء الأعيان المصريين ليتعلم فى المدارس الحديثة التى أنشأها محمد على . وكانت المدرسة فى (قصر العينى) قبل انتقال كلية الطب أو مدرسة الطب إليها من (أبو زعبل) حيث أقيمت لأوّل مرة تحت رياسة الدكتور كلوت بك .

وكانت مدرسة (قصر العينى) داخلية ، وقد فرض عليها النظام العسكرى فى الإقامة والطعام حتى أن الصبى على مبارك ضجّ من حياته فيها ، واعتقد أنها عذاب وتعذيب .

المهم أنه تعلم فى هذه المدرسة ، ثم ألحق بمدرسة المهندسخانة ، وتخرج فيها ، ثم أرسل إلى فرنسا فى البعثة ليكمل دراساته .

وكانت البعثة التى ألحق فيها على مبارك للسفر إلى فرنسا تضم عددًا من أمراء أسرة محمد على ومن بينهم الأمير إسماعيل الذى أصبح خديوى مصر . . وسافرت البعثة سنة ١٨٤٤ .

وشاءت المصادفة أن يكون القائد إبراهيم باشا بن محمد على فى باريس عندما عقد الامتحان النهائى لهؤلاء المبعوثين ومنهم ولده الأمير إسماعيل ؛ وكان ترتيب على باشا مبارك الأوّل بين الناجحين ، وقد أهداه إبراهيم باشا بيده هديّة التفوّق وهى كتاب فى الجغرافيا وعدد من الخرائط ، ثم أقام إبراهيم باشا حفل غداء تكريمًا لأعضاء البعثة .

درس على مبارك الهندسة العسكرية فى باريس ، وبعد عودته اشتغل ياورًا لسليمان باشا الفرنساوى أركان حرب الجيوش المصرية . . ثم تقلب فى وظائف الحكومة ، وأصبح وزيراً للمعارف ، بل إنه كان أشهر وزير معارف فى عصره ، وما زلنا نطلق عليه حتى اليوم لقب : أبى التعليم .

وكانت دراسة على مبارك فى فرنسا من أعظم المؤثرات فى تفكيره كفلاح مصرى ، فقد درس الهندسة العسكرية فى مدرسة متز الشهيرة ، ونال رتبة الملازم الثانى فى الجيش الفرنسى ، وهذه الرتبة تعطى صاحبها امتيازات خاصة ، ولم يكن من السهل الحصول عليها مما يدل على القيمة الذاتية لعلى مبارك الذى تمازجت فى عقله حضارة مصر مع حضارة فرنسا .

وعندما عين ناظرًا لمدرسة المهندسخانة قام بعمل هام وخطير فى حياة النهضة المصرية الحديثة ، وهو تأليف الكتب المدرسية باللغة العربية ، حتى أصبحت كل العلوم الهندسية والعسكرية تدرس بالعربية ، ثم أنشأ مطبعةً خاصةً لمدرسة المهندسخانة طبع فيها أكثر من ستين ألف نسخة من هذه الكتب .

لقد كان الكتاب أهم شيء فى حياة هذا الرجل منذ البداية وحتى آخر لحظات حياته .

وفى عصر إسماعيل لمع نجم على مبارك وسطع ، وقد قلت إنه كان زميلاً للأمير إسماعيل فى الدراسة فى باريس ، وكان إسماعيل يعرف قدره . . فأنعم عليه الخديوى برتبة الباشوية وأسند إليه ثلاث وزارات هى المعارف والأشغال والأوقاف إلى جانب إدارته لمصلحة السكك الحديدية والقناطر الخيرية ، ونهض على مبارك بكلّ هذه الأعباء فى قدرة مذهلة .

وأنت إذا شاهدت القاهرة الحديثة وشوارعها وميادينها وحدائقها ومدارسها وقصورها

فلابد من أن تتذكر على باشا مبارك ، فهو المهندس الذى خططها ، وهو فى نفس الوقت صاحب كتاب (الخطط التوفيقية) الذى جعله موسوعةً جديدةً تكمل (خطط المقريزى) . . . وكتاب على باشا مبارك مرجع للحضارة المصرية الحديثة فى كل مجالاتها العمرانية والفكرية أو الثقافية ، ولولا هذا الكتاب ما عرفنا تاريخ حياة كثيرين من عظماء مصر وبناة حضارتها .

إن هذا الرجل من عجائب الزمان ، ونحن حائرون فى أمره ، فقد استطاع بمفرده أن يقوم بأعمال لا تستطيع القيام بها عشرات اللجان .

ومن مظاهر عبقريته الفذة أنه عندما حدث خلل فى القناطر الخيرية وأوشكت الدلتا كلها أن تتعرض للغرق ، وعجز المهندسون الفرنسيون عن إصلاح الخلل ، تقدم على مبارك بمشروعه لإصلاح القناطر ، ولم يقتنع الخديوى إسماعيل عندما عرض عليه المشروع . فعقد اجتماعًا حضره المهندسون الفرنسيون وحضره على مبارك واستعرضوا وجهات النظر المختلفة ، وأقر الفرنسيون مشروع على مبارك ، واعترفوا له ، ثم تولى بنفسه إصلاح الخلل ، وأنقذ دلتا النيل من الغرق .

وكان على مبارك مهندسًا على المستوى العالمى وهو صاحب نظرية الوحدة المعمارية فى المبانى العامة ، وقد استخدمها فى إنشاء محطات السكك الحديدية عندما تولى أمرها ، فجعل كل المحطات على نسق معمارى واحد فى كل البلاد بحيث تؤدى الخدمات على خير وجه ، مع اختلاف أحجامها فى المدن الكبيرة أو الصغيرة .

وعندما كان يتولى إدارة السكك الحديدية أراد وزير المالية إسماعيل باشا المفتش إضافة إيرادات السكك الحديدية إلى وزارة المالية ، فرفض على باشا مبارك ، ونجح إسماعيل المفتش فى الوشاية به عند إسماعيل الخديوى الذى فصله من كل وظائفه . . ثم لم يلبث أن أعاده إليها بعد أن عجز عن إدارتها .

كان هذا الرجل سابقًا لزمانه ، وعندما خطط القاهرة الجديدة وصل إليها حنفيات المياه النقية ومصابيح الغاز فى الشوارع والحوارى ، وأدخل الكهرباء لأوّل مرة عند أهرامات الجيزة ، ثم أراد إدخال نظام المجارى أو الصرف الصحى ، فسافر إلى باريس ودرس هذا النظام على الطبيعة هناك حتى ينفذه فى القاهرة . ولكن دولة إسماعيل كانت قد آذنت بالمغيب فلم ينفذ المشروع .

إن الأعمال العمرانية التى نفذها على باشا مبارك فى أنحاء مصر تمثل الوجه الحضارى الجديد للنهضة الحديثة ، وقد تمت فى عصر إسماعيل ، ولكن كثيرين لا يعلمون أن الخديوى نفسه كان مهندسًا ، وكان زميلاً لعلى مبارك فى الدراسة عندما سافر فى البعثة إلى فرنسا كما قلت لك .

وكان مرتب على مبارك أثناء البعثة ٢٥٠ قرشًا كان يأخذ نصفها لنفسه ، ويترك نصفها لوالدته فى قريته برنبال ، وكانت هذه هى عادته طوال فترة تعليمه فى مصر ، مما يدعونا إلى الوقوف مرةً أخرى لتحية الابن العظيم .

إن فلاحِ برنبال المتحضّر يمثّل لنا نموذجًا رائعًا من نماذج عظماء المصريين الذين قادوا حركة النهضة وصنعوا النهضة بالفعل لا بالقول .

كان على مبارك هو الذى أنشأ دار الكتب ، ثم أصبحت هذه الدار أكبر جامعة حديثة فى مصر وتعلمت داخل أروقتها أجيال متعاقبة من المثقفين وشع منها شعاع النور فى حياتنا ، ثم أصبحنا اليوم نفتقدها ، ونسمع أصواتًا تقول إن الأجيال الجديدة لا تقرأ بسبب ارتفاع أثمان الكتب ، ونحن فى جيلنا كنا نقرأ بلا ثمن عندما اعتادت أقدامنا أن تسعى إلى باب الخلق ماشيةً لنوفر أجرة الترام .

كنا فى جيلنا نجد (الكتاب البلاشى) بلا ثمن فى دار الكتب ، وكان شعبنا يجد الماء بلا ثمن فى شيء اسمه (الحنفية البلاشى) على نواصى الحارات . . وكان على مبارك هو الذى أنشأ هذه الحنفيات للفقراء .

وعلى مبارك هو الذى أنشأ مدرسة دار العلوم التى تخرجت منها النخبة الرائدة من مدرسى اللغة العربية فى العصر الحديث ، وكان يختار طلبتها من الأزهر لسبب جوهرى أساسى فقدناه الآن ، وهو أن يكون الطالب من حفاظ القرآن والعارفين باللغة العربية ، فإذا استكمل دراسته من العلوم الحديثة فى دار العلوم يحدث التمازج بين الدراسة الأزهرية وبين الدراسة الحديثة .

وعلى مبارك هو الذى أنشأ (الانقتياتر) وهو مدرج المحاضرات العامة ، وكان هذا المدرج فى درب الجماميز ، وله مواسم للمحاضرات التى يلقيها كبار الأساتذة ، وكان هو نفسه يحضر هذه المحاضرات مما شجع كثيرين من الباشوات على الحضور ، فسعى المثقفون المصريون لسماع هذه المحاضرات ، فكان هذا المدرج يمثل جامعة حرّةً قامت بدور هام فى حركة النهضة العلمية والثقافية .

قال الشيخ حسين المرصفى وهو من كبار علماء الأزهر ، وكان مدرسًا فى دار العلوم إنه

زار على باشا مبارك وزير المعارف فى مكتبه ، وكان مع الباشا رجل فرنسى ، وعندما سمعهما يتحدثان بالفرنسية – وكان الشيخ المرصفى مكفوف البصر – حزن حزنًا شديدًا لأنه لا يفهم ما يقولان ، وخرج الشيخ من مكتب الوزير ، وأقسم ألا يعود إليه إلّا بعد أن يتعلم اللغة الفرنسية ، ونفذ الشيخ قسمه ثم عاد لزيارة الباشا بعد شهر أو بعض شهر وهو يحدثه بالفرنسية .

لقد كان على مبارك نموذجًا رائعًا من نماذج قادة الفكر ، وكانت شخصيته القوية الأخاذة تدعو العلماء إلى تقليده والسير على منهاجه .

إن هذا المهندس الضابط العالم كان حافظًا للقرآن منذ نشأ فى قريته ، وكان عارفًا بالعلوم والثقافات الإسلامية ، وعندما امتزجت الثقافة الفرنسية بالثقافة الإسلامية فى عقله ، أدرك معنى الحضارة ، فأخذ من أوربا ما ينفع ، ولم ينبهر بالمظاهر ، ولكنه أخذ الجواهر .

لقد عرف على مبارك مناهج التعليم فى فرنسا معرفةً كاملةً ، حتى أنه عندما كان وزيرًا للمعارف راجع هذه المناهج وأعاد دراستها بفكر متفتح وعقل ناضج ، ثم وضع بعد ذلك مناهج التعليم فى المدارس المصرية الابتدائية والثانوية ، وظلّت هذه المناهج سائدةً فى مصر أكثر من مائة سنة ، وخرجت الأجيال المتعاقبة من المتعلمين المصريين .

وأنت حين تزور المدرسة السنية للبنات وهى أعظم مدارس البنات التى أنشئت فى مصر ، سترى كيف كان يفكر على مبارك فلاح برنبال المتحضر ، فى هذه المدرسة قاعات للرسم والتدبير المنزلى والموسيقى ، ولن تجد أمثالها فى مدرسة أخرى من مدارس البنات ، ولكنك ستجد لها مثيلاً فى باريس .

إن عمليه نقل الحضارة ليست سهلةً يسيرةً كما يتخيل بعض الناس ؛ لأن النقل العشوائى يصيب المجتمعات الناهضة بالنكسات والصدمات ؛ ولذلك فإن الأعمال العظيمة التى قام بها على مبارك خلال فترة قصيرة تعتبر من دلائل عبقريته الفذة فإن هذا الرجل لم ينفصل عن جلده ، وظلّ مصريًّا أصيلاً ، وهو الذى وصل إلى أعلى درجات العلم والثقافة فى مختلف فروع العلم والثقافة .

لقد أنشأ مجلة (روضة المدارس) على نفقة وزارة المعارف ، وجعل منها نافذةً جديدةً للفكر المستنير ، حتى يحبب التلاميذ فى القراءة ، وحتى تكون هذه المجلة مواكبةً للعلوم والآداب الجديدة والمتجددة .

وبلغ من حرصه على إحداث النهضة أنه أنشأ فى درب الجماميز معمل الكيمياء والطبيعة ، وفتح أبوابه للتلاميذ حتى يكونوا على صلة دائمة بالتطورات العلمية الحديثة .

تعددت اهتمامات على مبارك وتنوعت ، وكلما حاولنا ملاحقته فى أعماله الجليلة ، أدركنا أننا لا نستطيع إدراكه . فقد كان الرجل كما قال عن نفسه لا يعود إلى داره إلا فى الليل ، وأنه كان فى ليله مشغولاً بنهضة أمته .

وبرغم هذه الأعباء التى حملها على كتفيه طوال سبعين عامًا هى حياته الحافلة ، فقد ترك لنا ثروةً هائلةً من المؤلفات لم نستطع حصرها ، فقد ألّف وترجم عددًا كبيرًا من الكتب المدرسية عندما اشتغل بالتدريس فى المدارس العسكرية وفى مدرسة المهندسخانة التى تولى نظارتها ، وكان له الفضل الأول فى تعريب العلوم الهندسية والرياضية .

ولكن على مبارك ترك للمكتبة العربية كتابين من أهم الكتب التى ألفت فى العصر الحديث .

* الخطط التوفيقية فى عشرين مجلدًا ظهرت بين سنتى ١٨٨٧ – ١٨٨٩ ، والأجزاء الستة الأولى من الكتاب خصصها للقاهرة . والجزء السابع للإسكندرية . والأجزاء الباقية لمدن مصر وقراها . كما خصص الجزء الثامن عشر لمقياس النيل ، والتاسع عشر للترع والرياحات ومنشآت الرى . والجزء الأخير لنقود مصر طوال كل العصور القديمة والحديثة .

وهذا الكتاب الموسوعى الضخم يضم تاريخ مصر العلمى .

* كتاب (علم الدين) وهو قصة عمرانية هامة ، تدّل على اهتمامات على مبارك الخاصة بالعمران الذى هو أساس الحضارة .

وهذه القصة تحتاج إلى دراسة خاصة من ناحية بنائها وأسلوبها ، لأنها تعتبر من البدايات الأولى فى محاولة كتابة القصص الحديثة فى أدبنا .

إن فلاح برنبال الذى منحته فرنسا رتبة الملازم ثان كضابط فى الجيش الفرنسى من الشخصيات الفريدة فى حياة مصر المعاصرة .

إنك تستطيع أن ترى لمسات كفيه على أشياء كثيرة فى أنحاء مصر . . وهو يقول لك عن منشآته فى القاهرة الجديدة . .

. . وجرى العمل ، فظهرت كل هذه المبانى الحسنة . والشوارع المستقيمة المتسعة المحفوفة

بالأشجار المخضرة النضرة ، المستوجبة للقادمين على المدينة انشراح الصدور ، والفرح والسرور .

لقد كان على مبارك واحدًا من أولئك الذين آمنوا بأن الحياة تقرأ على صفحات كتاب . . ومن عرف كيف يقرأ الكتب يستطيع الحياة . . أما أولئك الذين يؤلفون الكتب فإنهم صناع الحياة .

وعلى مبارك واحد من صناع الحياة فى مصر الحديثة .

محمد قدرى

أول مقنن للشريعة الإسلامية

كلما تحدثت مع أحد أصحابي عن محمد قدرى باشا ، سألني :

– هل هو صاحب شارع قدرى فى السيدة زينب ؟

لقد أصبح الشارع أشهر من الرجل . . ولم يسألني أحد :

– من هو محمد قدرى باشا ؟

هذه إحدى عجائب الفكر المصرى الحديث فى الجيل الماضى ، فقد أوشك الناس أن ينسوا تواريخ رواد النهضة إلّا قليلاً . ولكن الجهل الجديد من شباب المثقفين يبحث عن هؤلاء الرواد ، وهذه إحدى دلائل اليقظة التى تصنع النهضة .

ذات يوم شاهدت سيدةً ومعها ولدها الصبى الصغير أمام تمثال صغير للفيلسوف الألمانى لايبنتز فى مدينة لايبزج أمام مبنى الجامعة القديمة ، وكانت الأم تشرح لابنها تاريخ حياة هذا الفيلسوف عندما سألها عنه ، فجلست على دكة خشبية فى الحديقة التى تحيط بالتمثال وأنا فى قمة السعادة .

إن الشعوب المتقدمة تعلم أن حياتها موصولة ، وأن حاضرها امتداد لماضيها ، وهذا هو سبب تقدمها ، ووضعها فى مراتب العالم الأول .

ومن أخطر الأخطار التى تعرضت لها أجيالنا الجديدة ذلك الصوت المشئوم الذى يشبه صوت البوم ، عندما نعق يقول إن تراثنا هو سبب تخلفنا . ثم أصبح الجهال الذين يكتبون الكلمات الميتة دعاة للانفصال الحضارى فى حياتنا .

ما علينا . . يرحمهم الله أحياءً وأمواتًا .

كل هذا سببه محمد قدرى باشا الذى استطاع وحده أن يقوم بالأعمال التى تعجز عن القيام بها اللجان التى مازالت تحاول تقنين الشريعة الإسلامية .

ولد محمد قدرى فى ملوى بصعيد مصر من أب أناضولى وأم مصرية ، حوالى سنة ١٨٢١ ، وبعد أن تعلم فى تلك المدينة الصعيدية الصغيرة على طريقة عصره من حفظ بعض

سور القرآن فى الكتاب ، وتلقى الدروس فى المدرسة التى كان يطلق عليها اسم (مكتب ملوى) ويختار لها التلاميذ من أبناء بعض السادة ، ألحق بمدرسة الألسن فى القاهرة عندما كان ناظرها رفاعة بك .

وكانت الرحلة العلمية لهذا الفتى الأناضولى المصرى ترتبط فى الأصل بوالده الذى كان من أصحاب السلطة فى عهد محمد على ، ولكننا لا نعرف عنه شيئًا أكثر من أنه كان من موظفى الدولة فى ملوى .

واسم (محمد قدرى) من الأسماء المختارة التى كانت دولة محمد على وحفيده إسماعيل تحب إطلاقها على النجباء من التلاميذ الذين يتنازل آباؤهم عن أسمائهم سواء كانوا من الفلاحين أو الترك إلّا من كانت له عصبية وعائلة تضرب بجذورها فى تاريخ مصر من أمثال رفاعة رافع أو على مبارك وأمثالها من الفلاحين الصرحاء الأصلاء .

لقد حدثنى صديق المرحوم الأستاذ محمد شوقى الذى كان يعمل فى إدارة المطبوعات ثم اشتغل صحفيا فى أخبار اليوم عن خاله (أمين باشا سامى) فقال لى إن اسمه لم يكن (أمين سامى) ولكن الخديوى إسماعيل اختار له هذا الاسم لأنه لم يعجبه اسمه الفلاحى .

ولذلك فإننا نتعب فى محاولة الوصول إلى تاريخ حياة كثيرين من عظماء مصر فى العصر الحديث من أمثال : بهجت باشا ومظهر باشا وقدرى باشا وغيرهم ؛ لأن الخديوى هو الذى كان يختار هذه الأسماء .

وقد سمعت من بعض المعاصرين أن الخديوى إسماعيل كان يحلو له الحضور فى حفلات تخرج التلاميذ فى المدارس ويوزع عليهم الجوائز الثمينة ، فى هذه الحفلات كان يطلق عليهم أسماء جديدة غير أسمائهم الحقيقية مثل : تحسين أفندى ورستم أفندى . وغير ذلك من أسماء لطيفة .

ولذلك فإننا لا نحاول البحث عن حياة محمد قدرى فى ملوى ، ونشأته فى هذه المدينة الصغيرة التى زرتها منذ سنوات قريبة ، ورأيت فيها قريةً مصريةً تعيش فى العصور الوسطى ، ولعلها كانت عندما مشى الصبى (محمد قدرى) فى طرقاتها على الصورة التى رأيتها عليها بعد أكثر من مائة سنة .

لقد بدأت الحياة الحقيقية لهذا الفتى الأناضولى المصرى فى مدرسة الألسن عندما أصبح

تلميذًا لرفاعة بك . فظهر نبوغه وميله إلى العلم والترجمة ، فأتقن اللغة الفرنسية إتقانًا كاملاً إلى جانب إتقانه اللغة العربية .

وبعد تخرجه عينه رفاعة بك مدرسًا مساعدًا بالمدرسة . ثم أدرك ميله إلى دراسة القانون ، فوجهه إلى الدراسة فى الأزهر ، فحضر دروس الفقه على كبار المشايخ ، ودرس كتب الشريعة الإسلامية بعقلية جديدة تختلف عن عقلية مشايخ الأزهر .

أصبح الشاب المثقف محمد قدرى تلميذ رفاعة بك فى صراع فكرى بين ثقافتين إحداهما فرنسية والثانية أزهرية ، فحاول التوفيق بينهما عن طريق القانون .

لم تكن ثقافة أدبية بل كانت ثقافةً قانونية ؛ ولذلك اصطدم فى عقله القانون الفرنسى مع الشريعة الإسلامية وهى مصادمة عنيفة ليست مثل صدام الأفكار الاجتماعية أو الأدبية أو الفكرية ؛ لأن القانون له أصول وقواعد وأحكام ثابتة لا تقبل الجدل إلا فى إطار الحق والعدل والميزان المنصوب ، ولها منطق علمى ثابت الأركان .

القانون ليس نظريةً فى الشعر تقبل الصواب والخطأ ، ولكنه أحكام قاطعة لها مواد يحكم القضاة بها فى أخطر قضايا الإنسان ، وقد تصل به إلى حبل المشنقة .

لقد تكونت عقلية (محمد قدرى) أثناء دراسته فى مدرسة الألسن تكوينًا قانونيًّا ، وليس فى استطاعتى تحليل أسباب هذا التكوين القانونى لهذا الرجل النادرة الفذ من خلال دراساته أو مناهج مدرسة الألسن ، بل إن الدراسات التى قدمت عن هذه المدرسة العجيبة لم توضح لنا حتى الآن كيف استطاعت ضم دراسات متعددة تحت عنوان الترجمة ، مع أنها كانت تقوم بدور كليات الآداب والحقوق والاقتصاد والعلوم السياسية والفلسفية فى وقت واحد ! .

من تلاميذ هذه المدرسة (عثمان جلال) مترجم روايات موليير وأشهرها رواية (تارتوف) التى مصرها عثمان جلال وسمّاها (الشيخ متلوف) .. وهذا الرجل هو الرائد الحقيقى للمسرح المصرى لو كتب تاريخ المسرح فى مصر بطريقة علمية وليس على طريقة المشخصاتية .

ما علينا .. الهموم كثيرة .

نرجع إلى الحديث عن محمد قدرى باشا وأقول لك إننى أعرف أن أستاذى الدكتور محمد حسين هيكل باشا كان أول من تحدث عن قدرى باشا فى كتابه (تراجم مصرية وغربية) .. وأنا أعود للكتابة عن هذا القانونى العبقرى بعد سنوات طويلة مما كتبه أستاذى .

لست أدرى الآن ماذا كتب الدكتور هيكل باشا عن قدرى باشا ، ولكننى أعلم أنه كان

أول من نبه إلى قيمة هذا الرجل العظيم فى حياة مصر المعاصرة .. ثم نسى الناس هذه القيمة العظيمة ، حتى عدنا نبحث عن تطبيق الشريعة الإسلامية فى حياتنا ، فعدت للكتابة عن قدرى باشا ، وليس بين يدى الفصل الذى كتبه الدكتور هيكل باشا عنه ، وهذه خطيئة لا أغتفرها لنفسى .. وأرجو أن تغتفرها لى .

المهم ..

أدرك رفاعة بك مواهب تلميذه محمد قدرى ؛ ولذلك وجهه إلى دراسة الشريعة فى الأزهر الشريف ، وبذلك اجتمعت لمحمد قدرى ثقافة فرنسية وأزهرية كما قلت لك .. وعندما كلف الخديوى إسماعيل رفاعة بك بترجمة قانون نابليون الذى اشتهر فى عالم القانون باسم (الكود) ، لم يجد رفاعة بك أحدًا يعاونه فى الترجمة غير تلميذه (محمد قدرى) القانونى الضليع .

ولكن ترجمة قانون نابليون من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية كانت مقدمة الشرور لتقويض المجتمع المصرى ، عندما أراد الخديوى تمزيق السلطة القضائية ، فأصبحت فى مصر ثلاث سلطات قضائية هى :

* المحاكم الشرعية .
* المحاكم الأهلية .
* المحاكم المختلطة .

عاصر قدرى باشا مرحلة التمزق الذى وصلت فيه السلطة القضائية المصرية إلى هذه الثلاثية الغريبة العجيبة مما لم يحدث له شبيه فى العالم ، فأصبحت فى مصر محاكم شرعية ومحاكم أهلية ومحاكم مختلطة ، وكل نوع من هذه المحاكم له سلطات وله شرائع وقوانين يتوه فيها المواطن المصرى ولا يصل إلى حقه .

فى تلك الأيام تولى قدرى باشا ترجمة قوانين المحاكم المختلطة تمهيدًا لوضع قوانين المحاكم الأهلية الجديدة التى أراد إسماعيل الخديوى أن يجعلها مواجهة للمحاكم المختلطة بعد أن أصبحت الشريعة الإسلامية عاجزةً عن مسايرة التفرنج ، فأصبحت المحاكم الشرعية قاصرةً على قضايا الأوقاف والأحوال الشخصية .

وعين قدرى باشا مستشارًا فى محكمة الاستئناف المختلطة ، وهو منصب كبير يجعله مساويًا

للمستشارين الأجانب الذين استقدمهم الخديوى إسماعيل من أوربا لتولى مناصب القضاء فى المحاكم المختلطة ، مما يدل على المكانة القانونية لهذا الرجل المثقف العظيم .

لست أريد أن أحدثك عن المناصب التى تولاها قدرى باشا ؛ لأنه وصل إلى منصب وزير العدل أو ناظر الحقانية فى وزارة شريف باشا الدستورية سنة ١٨٨١ عندما قامت الثورة العرابية فى عهد الخديوى توفيق . . كما كان وزيرًا للمعارف فى وزارة شريف باشا الرابعة فى عهد توفيق وهى الوزارة التى استقالت احتجاجًا على ترك السودان لبريطانيا أثناء ثورة المهدى .

كان محمد قدرى باشا رجلاً وطنيًا عالى القدر فى كل مراحل حياته ، كما كان نزيه القصد فى كل أفكاره واتجاهاته ، وقد سيطرت عليه أفكار أستاذه رفاعة بك من ناحية الديمقراطية .

ولذلك تعاون مع شريف باشا الذى وضع أول دستور لمصر فى حياتنا المعاصرة ، ولا شك فى أن قدرى باشا كانت له يد فى كتابة هذا الدستور الأول الذى جاء نتيجةً لثورة أحمد عرابى ضد الاستبداد .

إن الحركة الديمقراطية المصرية مدينة لهذا القانونى الضليع الذى نسيناه فى غمره الأحداث المتلاحقة التى عاشت فيها بلادنا خلال مائة سنة من العذاب منذ سنة ١٨٨١ حتى سنة ١٩٨١ ، ثم بدأنا نفتح عيوننا على حقائق تاريخنا المجهول ، ونتعرف على تطور الفكر التقدمى فى بلادنا الذى حمل شعلته رجال من أمثال قدرى باشا وأستاذه بل أستاذ الأجيال رفاعة بك .

لقد كان قدرى باشا وزيرًا للعدل فى أخطر لحظات التاريخ المصرى المعاصر ، وسط لهيب الثورة العرابية ، فشارك فى رسم الحركة الديمقراطية الجديدة مشاركةً فعّالةً عندما صاغ المواد الأساسية للحياة البرلمانية فى مصر .

اقرأ معى هذه المواد . .

* النواب مطلقو الحرية فى إجراء وظائفهم وليسوا مرتبطين بأوامر أو تعليمات تصدر لهم تخل باستقلال آرائهم ولا بوعد أو وعيد يوجّه إليهم .

* لا يجوز التعرض للنواب بوجه ما ، وإذا وقعت من أحدهم جناية أو جنحة مدة انعقاد المجلس فلا يجوز القبض عليه إلا بمقتضى إذن من المجلس .

* كل نائب يعتبر وكيلاً عن عموم الأمة المصرية لا عن الجهة التى انتخبته فقط .

* اللغة الرسمية التى تستعمل فى المجلس هى اللغة العربية ، وتحرير المحاضر والملحقات يكون بتلك اللغة .

* لا يسوغ لأحد النواب أن يستنيب عنه غيره لإبداء رأيه .

* يجوز لكل مصرى أن يقدم للمجلس عرضًا ، وهذا العرض يحال النظر فيه على لجنة من المجلس لتحكم بدرجة اعتباره وهل يقبل أم يرفض . وإذا كان العرض متعلقًا بالحقوق الشخصية وتبين بالبحث أن مقدمه لم يسبق له تقديمه إلى المأمور المتعلق به ذلك الطلب أو إلى اللجنة التابع لها ذلك المأمور فإنه يرفض رأسًا .

هذه هى الديمقراطية المصرية فى لغة ١٨٨١ كما سجلها قدرى باشا فى هذه المواد من لائحة مجلس النواب ، وهى كما ترى تمثل فكرة الحرية فى مواجهة الاستبداد ، وأعظم شىء فيها هو أنها جعلت اللغة العربية هى اللغة الرسمية للدولة ، بعد أن كانت فى مصر لغتان هما التركية والعربية ، وكان الخديوى يصدر مراسيمه وأوامره باللغة التركية ثم تترجم إلى العربية بعد ذلك ، وظلت هذه الحالة مضطربةً فى مصر فكان فى قصر عابدين (دفتر تركى) و (دفتر عربى) وفى الدفترين أوامر ومراسيم خديوية قد تترجم ، وأحيانًا لا تترجم ، فوضع قدرى باشا الحد الفاصل وجعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية ، وهذه مسألة لا يستهان بها فى ذلك الزمان ، عندما كان يكتب فى مطلع كل خطاب رسمى كلمة :

– أفندم حضرتلى .

استطاع هذا المصرى المثقف .. الأناضولى الأب . المصرى الأم .. أن يحقق مصريته فى لغته ، ثم استطاع أن يقوم بعمل فكرى أعظم من ذلك فى إسلامه .

ألف قدرى باشا كتبه الثلاثة الخالدة التى جمع فيها الشريعة الإسلامية ، وصاغها فى مواد على أسلوب (قانون بونابرت) الذى كان قد شارك أستاذه رفاعة بك فى ترجمته إلى اللغة العربية .

هذه الكتب هى :

* مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان :

وهذا الكتاب يضم المواد القانونية فى المعاملات المدنية والشرعية على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة ، وقد أجازه شيخ الجامع الأزهر ، واعترف به كبار علماء الشريعة بعد

دراسات عميقة . وهو أول كتاب وضع الفقه فى مواد قانونية ، ولم يستطع أحد من رجال القانون حتى اليوم أن يؤلف كتابًا مثله .

* الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية .
* قانون العدل والإنصاف فى القضاء على مشكلات الأوقاف .

إن قيمة هذه الكتب العظيمة التى نسيها من يحاولون الرجوع إلى شريعة الإسلام فى القانون ، تحمل دلالات عصر الانصراف عن الشريعة الإسلامية إلى القوانين المستوردة من فرنسا ، والتى طبقت ومازالت تطبق فى مصر .

لقد كان قدرى باشا هو الذى اشترك مع أستاذه رفاعه بك فى ترجمة (قانون نابليون) إلى اللغة العربية ، ثم أصبح مستشارًا فى محكمة الاستئناف المختلطة التى تنطق باللغة الفرنسية ، ولا تعرف العربية ، وكان فى الإمكان أن يصبح قدرى باشا من الفئة المتفرنجة .. وكان الله يحب المحسنين ! !

ولكن هذا العظيم رفض كلّ هذا بضميره ، وليس بوظائفه الرفيعة .

إن هذا التراث القانونى الرفيع الذى تركه لنا محمد قدرى باشا يدل على أن الرجل كان يريد أن يجعل شريعة الإسلام فى عصر المدنية الحديثة أعظم شأنًا – وهى أعظم – من قانون بونابرت .. الكود الذى عشنا معه قرنًا من الزمان حتى فقدنا أنفسنا ، ثم بدأنا نبحث عن أنفسنا فى شريعتنا .

إن رحلة العودة إلى النفس شاقة وصعبة ، ولكنها محتومة ، ولا سبيل إلى الفرار منها فى لحظات النهضة ومحاولة الإعادة لصنع الحياة واسترجاع الحضارة ، وقد أصبح كلّ ما نقرأه عن تطبيق الشريعة الإسلامية فى القانون كلامًا لا يجوز أن نلتفت إليه .

أنا أقول لكم إن شريعة الإسلام كانت هى القانون قبل أن تصبح فى مصر محاكم أهلية ومحاكم مختلطة .

وكان آخر كتاب مخطوط لم يطبع لمحمد قدرى باشا عنوانه :

(تطبيق ما وجد فى القانون المدنى مطابقًا لمذهب أبى حنيفة) .

لو كانت فوق رأسى قبعة لرفعتها احترامًا لهذا القانونى الضليع .. ثم أرفعها مرةً أخرى لأستاذى الدكتور هيكل باشا الذى سبقنى للتعريف بقدرى باشا .. ولكن .. أين القبعة ؟ ,

محمود حمدى .. الفلكى

أول من أقام مرصدًا فوق السطوح

كلما سرت فى شارع الفلكى بقلب القاهرة أذكر هذا العالم المصرى الكبير محمود حمدى باشا الفلكى .. صاحب الشارع ، وصاحب الميدان الشهير على ناصية الشارع .

كانوا فى الجيل الماضى يتفاخرون بألقاب العلم ، وأشهرها لقب المهندس والحكيم الفلكى .. ومن هؤلاء المتفاخرين اللواء محمود فهمى باشا المهندس رئيس الأركان العسكرية فى الجيش العرابى ، والدكتور محمد درى باشا الحكيم ناظر مدرسة طب القصر العينى ، صاحب أوّل مطبعة لطباعة كتب الطب التى كانت باللغة العربية . وهى المطبعة الدرية لطباعة الكتب الطبية) ، وكان مقرها فى حارة السقايين بحى عابدين .

أما محمود حمدى فقد كان أوّل من لقب نفسه بلقب الفلكى فى عصر النهضة المصرية الحديثة .. فإذا ذكر اسم الفلكى باشا فهو محمود حمدى أنبغ من أنجبتهم مصر فى علوم الرياضيات والفلك فى ذلك الجيل الأول من رواد النهضة فقد ولد فى سنة ١٨١٥ وتوفى فى سنة ١٨٨٥ .

تخرج فى مدرسة المهندسخانة ، وعين أستاذًا مساعدًا بها لأنه كان أول الناجحين . . وانصرفت همته إلى إتقان اللغة الفرنسية ، وترجم فيها بعض كتب الرياضيات إلى اللغة العربية ، عندما كانت حركة التعريب للعلوم الحديثة طريقًا للنهضة المصرية .

وأغرم الشاب النابغة بعلوم الفلك فدرسها فى المراجع الفرنسية دراسةً راسخةً مستفيضةً أهّلته لأن يصبح واحدًا من علماء الفلك العالميين فى عصره .

كان محمود حمدى يقفز فوق سلالم المجد قفزًا حتى أن محمد على أنعم عليه برتبة (صاغقول اغاسى) ، عندما كان أقرانه فى رتبة الملازم ، وهذا الاستثناء يدل على النبوغ المبكر لهذا الشاب المصرى الذى ولد فى قرية من قرى طنطا .

لقد كانت وظائف الحكومة فى عصر محمد على ترتبط بالرتب العسكرية ، ولو كانت

وظائف مدنية ، ويمنح أصحابها رواتب الرتب العسكرية وكان كادر الوظائف الحكومية واحدًا ، ولا يجوز فيه الاستثناء إلا بأمر من محمد على شخصيًّا .

ولذلك كانت ترقية محمود حمدى إلى رتبة الصاغ مما يلفت النظر .

ومن المصادفات اللطيفة أن هذا الأستاذ الشاب كان من تلاميذه النابغة الآخر : على باشا مبارك .

وكانت تسميته بالفلكى قد اشتهرت فى القاهرة عندما ابتكر وضع التقاويم السنوية للتواريخ الهجرية وللميلادية والقبطية ، وكان يبين فيها مواقع الشمس والقمر لكل سنة من هذه السنوات .

ثم سافر فى بعثة إلى فرنسا للتخصص فى علم الفلك ، والرياضيات ، ومكث هناك تسع سنوات ، وقد اتخذ مرصد باريس محل إقامة له .. ثم دفعه حب العلم ، فزار معظم مراصد أوربا .. ثم دفعه الطموح إلى إدخال تعديلات وإصلاحات على آلات الرصد أقرها ونفذها علماء الفلك من الفرنسيين .

واشتهر محمود حمدى فى أوربا كلها ، ونشرت له المجلات العلمية أبحاثًا فلكيةً هامةً لفتت إليه الأنظار .

قدم محمود حمدى عندما كان فى فرنسا رسالةً فى التقاويم الإسرائيلية إلى مجمع العلوم فى بلجيكا ، واهتم هذا المجمع بالرسالة ونشرها سنة ١٨٥٥ . وخلاصة هذه الدراسة العلمية أنه حدد بداية تاريخ اليهود فى ٧ أكتوبر سنة ٧٦١ قبل الميلاد ، وذكر أن اليوم يبتدئ عندهم فى الساعة السادسة مساءً ، ويقسم إلى ٢٤ ساعة وتقسم الساعة إلى ١٠٨٠ قسما ، يقسم كل منها إلى ٧٢ جزءًا . وبحث فى أسبوعهم وشهرهم وسنواتهم ، والأيام التى تبتدئ بها شهورهم وسنواتهم ، وأعيادهم ، ومقارنة تاريخهم بالتاريخ الميلادى .

لقد اعترف المجمع العلمى البلجيكى بمحمود حمدى الفلكى المصرى ، ثم اعترف به المجمع العلمى الفرنسى أيضًا عندما قدم إليه رسالةً عن (المواد المغناطيسية الأرضية فى باريس وضواحيها) . ودعى هذا النابغة لتلاوة رسالته بنفسه أمام أعضاء المجمع الذى قرر طبعها ونشرها .

ثم نشرت (المجلة الأسبوعية) وهى مجلة المستشرقين فى أوربا الدراسة التى لم يسبق إليها أحد من علماء الفلك فى العالم القديم أو الحديث ، وهى دراسة فلكية عن (التقاويم العربية

قبل الإسلام) ، وقد حقق فيها تاريخ ميلاد النبى ﷺ ، وقال إنه صلوات الله وسلامه عليه ولد فى ٩ ربيع الأول الموافق ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ ميلادية . وبحث فى رسالته عن عمر النبى ﷺ عند وفاته فبلغ ستين سنة شمسية و٢٨ يومًا أو٦٣ سنة قمرية و٣ أيام .

وقال محمود حمدى إن العرب قبل الإسلام كانوا يعملون بالحساب القمرى ، وأنهم فى جاهليتهم لم يكونوا يعرفون الساعات التى ينقسم إليها اليوم .

ثم عاد محمود حمدى إلى مصر ليبدأ رحلة جديدةً من رحلات الحضارةْ المصرية الحديثة .

لقد طارت شهرته ، فأنعم عليه سعيد باشا برتبة (أميرالاى) وكلفه بوضع خريطة مفصلة للقطر المصرى ، فوضع ثلاث خرائط :

* خريطة الوجه البحرى .
* خريطة الوجه القبلى .
* خريطة الإسكندرية .

وأصبحت خرائط الفلكى باشا مشهورةً باسمه ، يرجعون إليها عند التدقيق ، وكانت أول خرائط توضع للقطر المصرى .

وعندما أراد وضع خريطة للإسكندرية ، قام بعمل لم يسبق أحد إليه . فقد خطّط معالم الإسكندرية القديمة ، ونقب فى حفائرها ، وهو أوّل عالم فى العصر الحديث كشف عن آثار الإسكندرية ، وموقع سورها القديم ، وقد ألف رسالةً باللغة الفرنسية عن الإسكندرية القديمة طبعها سنة ١٨٦٦ ، وتتضمن رسالته نتاج اكتشافاته وما قام به من النقب والحفر ، وما وصل إليه من كشف معالمها القديمة ، كأسوارها وشوارعها ، وأفنيتها ، ومسارحها ، ومتحفها ، ومكتبتها الشهيرة ، وقصورها ، ومبانيها ، وضواحيها .

كان الفلكى باشا أول عالم خطط معالم الإسكندرية القديمة ، على ما كشفت له أعمال الحفر تحت الأرض ، وقد بذل جهودًا ضخمةً فى هذه الأعمال ، وكان معه جماعة من المهندسين المصريين ونحو مائتى عامل يشتغلون فى التنقيب والحفريات . وكان أول من خطّط سور البطالسة القديم تخطيطًا مبنيًا على الاكتشاف والفحص الدقيق .

ثم رسم خريطة الإسكندرية القديمة التى أصبحت مرجعًا عند العلماء فى أبحاثهم .

لقد حاول علماء الحملة الفرنسية بحث مواقع الإسكندرية ، ونشروا أبحاثهم فى كتاب (وصف مصر) ، ولكنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه الفلكى باشا لأنهم لم ينقبوا ولم يحفروا

الأرض ، بل اكتفوا بذكر نتائج المشاهدات والآراء التاريخية وما نقلوه عن مؤرخي العرب والإفرنج .

وقد عقد المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي مقارنةً بين أعمال مهندسي الحملة الفرنسية وبين أعمال محمود باشا الفلكي ، وانتهى إلى أن الفلكي باشا كان أوّل عالم عصري خطط معالم الإسكندرية القديمة .

كان عظيمًا هذا الرجل الذي لم نعد نذكر له غير شارع باسمه .. وميدان أمام بيته الذي هدم وقامت فوق أرضه عمارة حديثة .

آه لو كنا نحافظ على تراثنا الحضاري .. لأصبح بيت الفلكي باشا مُتحفًا كما أراد صاحبه الذي فتح بابه لكل باحث يريد الاطلاع على كتبه الثمينة وخرائطه وأدواته الفلكية ومرصده الصغير الذي أقامه فوق السطوح .

لقد شاهدت هذا البيت فى صدر الميدان ، وكان مكونًا من طابقين ، وحوله سور حديدى ، فقد كان من البيوت المشهورة فى حى عابدين ، وكان فى نفس الميدان بيت أحمد عرابى باشا الذى صودر ثم هدم أيضًا وقامت مكانه عمارة .

وماذا لو أقمنا تمثالاً لمحمود حمدى الفلكى وسط هذا الميدان ؛ لنذكر الناس بقيمة العلم والعلماء ؟ .

أحلام وآمال تطوف بالخيال .

المهم ..

حدث كسوف الشمس الكلى فى دنقلة سنة ١٢٧٦ هـ . والتفت العالم إلى هذا الحدث الذى لا يتكرر ، فكلف سعيد باشا والى مصر محمود باشا الفلكى بالسفر إلى دنقلة وملاحظة هذا الكسوف .. وقام العالم العظيم بمهمته ، ووضع رسالةً قدمها لسعيد باشا ، وبعث بها إلى أكاديمية العلوم فى باريس ، فنالت استحسان العلماء .

كان هذا الرجل عالميًّا كما قلت لك ، وهو من دلالات استمرار الحضارة المصرية وأصالتها ، وكلما قلبنا صفحات من تاريخ حياته ، وحياة رفاقه من صناع النهضة الحديثة ، أمسكنا بأيدينا حلقات هذه السلسلة الذهبية التى كادت تختفى بسبب الادعاءات البلهاء التى يلقى بها بعض الكتاب حروفا ميتةً على صفحات الصحف أو الكتب .

ليس من العيب أن يكون محمود باشا الفلكى قد تعلم فى فرنسا ، واستفاد من حضارة

أوربا لأن هذه الحضارة الأوربية ذاتها أخذت علومها وفنونها من حضارة الإسلام ، ونهر الحضارة يتدفق ولا يتوقف ، وله تيارات تعبر البلاد فى مختلف الأزمان ، وتحدد لنفسها المكان .

إن الحضارة أخذ وعطاء ، وقد حقق الفلكى باشا هذه النظرية بالفعل لا بالقول وقد ذكرت لك أنه أدخل تعديلات على آلات الرصد فى مرصد باريس ، وأخذ بها علماء الفلك فى فرنسا ونفذوها ، كما كانت دراساته وأبحاثه فى التقاويم الفلكية مذهلةً ومبهرة ، ولم يسبقه أحد إليها ، وقد اعترف بذلك المجمع العلمى البلجيكى والمجمع العلمى الفرنسى .. فهل بعد هذا شهادة ؟ .

إن مصر لا تستورد الحضارة ولا تستورد الثقافة ، ولكنها على مر التاريخ تأخذ وتعطى ، وهذه هى رسالتها الحقيقية فى كل المجالات .

أما الذين يزعمون أننا نستورد ثقافتنا ، فإنهم لم يعرفوا تاريخ مصر ودورها فى حضارة العصر الحاضر ، ونحن نكتب لهم هذه الصفحات لعلهم يراجعون أنفسهم ، فإما أن يسكتوا حتى يعلموا ، وما أن يعملوا بعد أن يتعلموا .

لقد أراد الفلكى باشا معرفة عمر الأهرامات والغرض الأصلى من تشييدها ، وتناسبها مع كوكب الشعرى ، وأخذ بنفسه مقاييس الأهرامات ، وموقعها من التناسب الفلكى .

يقول محمد مختار باشا :

«كنت موجودًا معه عند شروعه فى أخذ مقاييس الأهرام ، وموقعها من التناسب الفلكى وأعلم علم اليقين أنه وصل إلى معرفة الغرض من تشييدها ؛ إذ وجدها محكمة البناء فى رسم يقابل كوكب الشعرى عند طلوعه ، فكان الذى بناها قصد أن يجعلها مزولةً ليعرف منها يوم شم النسيم ؛ وكذلك لأجل تعريض جثث المدفونين فيها لموافاة صعود الكوكب المذكور ، فسبغ عليهم من آياته رحمةً وغفرانًا ؛ لأن كوكب الشعرى كان من معبودات المصريين القدماء» .

هذه الرسالة الممتعة عن الأهرامات من وجهة النظر الفلكية تربط بين الحضارات المصرية العريقة وبين أفكار محمود باشا الفلكى عن طريق العلم .

ومن ألطف الأعمال التى قام بها الفلكى باشا فى القاهرة أيام زمان أنه أنشأ مدفع الظهر فى القلعة ، فكان الناس يضبطون ساعاتهم على طلقته فى الساعة الثانية عشرة ظهرًا ، ولعله أراد بذلك أن ينبههم إلى قيمة الزمن فى حياة الإنسان أو يدعوهم إلى الصلاة التى تحين عادةً فى

تلك الساعة على اختلاف الفصول بالتقديم أو التأخير دقائق معدودات .

لقد تولى هذا العالم الفذ أعمالاً جليلةً .. فكان ناظرًا لمدرسة المهندسخانة ، وكان وزيرًا للأشغال وللمعارف .. وكان رئيسًا للجمعية الجغرافية . ومثل مصر فى المؤتمر الجغرافى الذى عقد فى باريس سنة ١٨٧٥ ، والمؤتمر الجغرافى الذى عقد فى البندقية سنة ١٨٨١ .

استطاع الفلكى باشا إدخال العلم فى الحياة اليومية للشعب المصرى ، ولكن الذى حدث بعد ذلك كان مؤسفًا ، فقد أصبح لقب الفلكى بعيدًا عن العلم منذ سرق بعض الأدعياء فكرة التقويم السنوى الذى ابتكره الفلكى باشا لإصدار تقاويم غريبة مازالت تصدر حتى الآن ، ويتنبأ فيها أصحابها بأحداث ستحدث ، ويستخدمون فيها ذكاءهم لما يمكن توقعه من وفاة ملك يعانى سكرات الموت أو وقوع حرب بدت بوادرها ، إلى غير ذلك من أحداث قد تتحقق .

ثم دخلت الخرافة فى حياة الناس ، حتى أنه أصبح من الأبواب الثابتة فى الصحف اليومية باب (حظك اليوم) : بل إنه تصدر كتب عن الأبراج والنجوم ، وتوجد مكاتب لهذه الخرافات (يشوف فيها) بعض من يحملون لقب الفلكى البخت والحظ والنصيب .

لقد استطاع محمود باشا الفلكى إخراج علم الفلك من الخرافة إلى العلم فى عصره عندما جعل هذا اللقب العظيم مرادفًا للعلوم والرياضيات وأوشك أن يقضى على أشهر محترف عرفته مصر وهو (أبو معشر الفلكى) ولهذا الرجل كتابان أحدهما صغير والثانى كبير ، وفيها جداول وطلاسم يشتغل بها الدجالون لمعرفة النجم والطالع .

وأنت إذا طالعت كتاب (أبو معشر الفلكى الكبير) أو كتاب (أبو معشر الفلكى الصغير) ستدرك أن محمود حمدى الفلكى عندما لقب نفسه بهذا اللقب ، كان يقصد القضاء على الخرافات التى تسيطر على المجتمع ، ومازالت تسيطر ، وليس هذا قاصرًا على مصر ، بل إنه منتشر فى أرقى المجتمعات الأوربية ؛ لأن الخرافة لم تمت فى حياة البشر ، وقد شاهدت الألمان يدخلون القاعة التى كان (مارتن لوثر) يترجم فيها الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية ، عندما هرب من حكم البابا بإعدامه ، ولجأ إلى قلعة (فاريتورج) فى مدينة « إيزناخ » فى جمهورية ألمانيا الشرقية .. وخيل لمارتن لوثر ذات ليلة وهو يكتب أوراقه ، أن الشيطان دخل غرفته ، فقذفه بدواة الحبر ، واصطدمت الدواة بالجدار الذى انتشرت عليه بقعة كبيرة سوداء .

شاهدت الألمان فى عصرنا ينبشون الجدار ذا البقعة الحبرية السوداء ؛ لعلهم يحصلون على

ذرة منها ، يصنعون منها حجابًا يعلّقه الواحد أو الواحدة فى رقبته ليقضى الحاجات ، أو يقرب بين الأحباب ، أو يشفى المرضى . وهكذا تسيطر الخرافة على عقول الناس .

ولكن سيطرة النجوم والكواكب أشد ؛ لأن بعض الشعوب عبدتها من دون الله ، وقد فسر محمود باشا الفلكى هذه الظاهرة عندما قاس الأهرامات قياسًا فلكيًا وربطها بكوكب الشعرى كما قلت لك ؛ ولذلك أراد هذا العالم الكبير تنوير الناس عن طريق العلم ، واتخذ لنفسه لقب الفلكى ، رغبةً منه فى بعث حركة علمية حقيقية ترفض الخرافة ، وتحاول القضاء عليها ، وهذا التفكير فى ذاته من أعظم دلالات اليقظة المصرية . وسبب ذلك أن مصر بالذات تعتبر أضخم مستودع للمأثورات الشعبية التى بلغ عمرها سبعة آلاف سنة ، وهى بذلك تضم أكبر مجموعة من الأساطير والخرافات إلى جانب أكبر تراث علمى ، وقد اختلط العلم بالخرافة فى مصر منذ آلاف السنين لأسباب حضارية قديمة ، من أهمها ارتباط العلم بالكهنوت داخل إطار الأسرار ، حتى أن الطبيب أو المهندس أو الفلكى فى مصر الفرعونية كان كاهنًا .

إن الدور الذى قام به محمود باشا الفلكى كان من أهم الأدوار التى أدّتها الفئة المثقفة المصرية فى العصر الحديث من أجل تحرير الفكر المصرى عن طريق العلم ، وكان اتصال العقل المصرى بالعقل الأوربى ، كما رأيت فى أحوال الفلكى باشا ، يمثل ظاهرة لقاء الحضارات ، ولا يمثل الخضوع لحضارة عالية تسيطر على حضارات مغلوبة ، كما تصور بعض المهزومين الذين يطفون فوق السطح أحيانًا لظروف خاصة لا سبيل إلى دفعها . فنحن لا نملك منع القش من الطفو على السطح وسط السفن الهائلة التى تتحرك مجاديفها وسط تيار النيل المندفع من الشلالات .

إن محمود حمدى الفلكى الذى أصبح له شارع وميدان فى قلب القاهرة ، يستحق أن نقيم له تمثالاً صغيرًا تحيطه الزهور وسط الميدان الذى يحمل اسمه .

هذا الرجل يمثل انتصار العلم على الخرافة .

محمد عثمان جلال

أوّل كاتب مسرحي فى مصر

أتعبنى هذا الرجل تعبًا شديدًا ، وأرغمنى على قراءة كتب ومجلدات عن المسرح المصرى فى العصر الحديث لأننى أحببت إعادة معرفته والتعرف إليه ، مع أن عباس محمود العقاد كتب عنه فصلاً فى كتابه « أدباء مصر » ، بل إننى كتبت عنه مقالاً فى مجلة الأدب منذ سنوات طوال .

ولكن عثمان جلال الذى عرفه العقاد ، والذى عرفته أنا أيضًا ، ليس هو هذه الشخصية التى تجلّت لى بعد أكثر من عشرين عامًا أو ثلاثين عامًا فى التعرف عليه ، وسط أكداس من أوراق الأوهام كانت تلقى بين أيدينا فنصدق بعضها ، ونكذب بعضها ثم نكتب عن شخصيات تاهت فى خضم الأوهام .

لقد عرفت الأستاذ حافظ جلال حفيد محمد عثمان جلال بك ، عندما كان مديرًا لمكتب رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى باشا ، وكنت أتعجب لأن حافظ جلال كان واحدًا من مترجمى دائرة المعارف الإسلامية مع إبراهيم زكى خورشيد وعبد الحميد يونس ، وكان لهم مكتب متواضع فى شارع حسن الأكبر فى حىّ عابدين ، يصدرون منه دائرة المعارف الإسلامية .

كان حافظ جلال من أبناء النعمة الظاهرة ، وكان مؤدبًا مهذبًا شديد التأديب والتهذيب ، إنه خلع معطفه الثمين فى ليلة من ليالى البرد الشديد على واحد من موظفى رياسة مجلس الوزراء ، عندما شعر بأن الرجل يرتعش من البرد .

لقد عرفت عثمان جلال بك عن طريق حفيده حافظ جلال ، ولكن هذا اللون من المعرفة لم تكن فيه ثقافة أو علم ، بل كان حديثًا عن تفاخر الحفيد بالجدّ من ناحية القدرات الذاتية التى تحتفظ فى الأسرة بالمناصب الرفيعة ؛ ولهذا عرفت الجد والحفيد على مستوى المجتمع ، ولم أبحث عن قيمة عثمان جلال الفنان ؛ لأننى عرفت فيه الموظف رفيع الشأن .

ومن خصائص المجتمع المصرى أنه ينظر كثيرًا إلى الشخصيات بوظائفها ، وليس بقيمتها ،

وهذه من المصائب ، ومن معوقات التقدم ، ومازالت هذه النظرية قائمةً حتى اليوم ، فى بعض الأحوال .

إن عثمان جلال الفنان من الشخصيات التى تستحق الدراسة المستعصية المتأنية ؛ لأنه كان الوحيد من تلاميذ رفاعة رافع الطهطاوى الذى استهواه الفن بمفهومه العصرى ، بينما كان السيد صالح مجدى بك وإبراهيم بك مرزوق ، وهما من تلاميذ رفاعة أيضًا ، ينظمان الشعر بالطريقة التقليدية ، ولكل واحد منهما ديوان مطبوع ، وكانت لهما أيضًا وظائف رسمية رفيعة .

ومن اللطائف أن إبراهيم بك مرزوق سمى ديوانه (الدر البهى المنسوق) حتى يحكم السجع مع اسمه .

لم يهتم مؤرخو الأدب المصرى الحديث بهؤلاء الأدباء الذين تعلموا فى مدرسة الألسن بين يدى رفاعة بك ، مع أنهم يمثلون مرحلةً من مراحل التطور فى النهضة الأدبية ، فقد كانوا يتقنون اللغات الأجنبية ، وكانوا أوّل من اطلع على الآداب الأوربية فى العصر الحديث ، بل إن هؤلاء الثلاثة : صالح مجدى وإبراهيم مرزوق وعثمان جلال ، كانوا يمثلون أوّل لقاء بين الأدب العربى والآداب الأوربية فى مطلع النهضة المصرية الحديثة ، وثلاثتهم كانوا شعراء . ولكن مؤرخى الأدب اهتموا بثلاثة آخرين هم : صفوت الساعاتى والشيخ على الليثى والشيخ على أبو النصر المنفلوطى وثلاثتهم أيضًا من الشعراء ، ولم تكن لهم صلة بالآداب الأوربية على وجه الإطلاق ، ولم تكن لهم معرفة بلغة من اللغات الأجنبية .

إننى عندما أكتب هذه الكلمات أحفر بأظافرى بين صخور جبل المقطم ، لأن تاريخ الأدب المصرى الحديث . لم يكتب حتى اليوم ، وهذه فضيحة أكاديمية يحمل وزرها كليات الآداب التى امتدت أطرافها من أقصى الصعيد إلى شواطئ الإسكندرية .

كان هؤلاء الثلاثة المثقفون : مجدى ومرزوق وجلال . من تلاميذ رفاعة بك كما قلت لك . ولكنهم كانوا يمثلون ركن الأدب فى هذه المدرسة العجيبة التى تخرجت فيها طلائع النهضة . ومع أن ثلاثتهم اشتغلوا بالوظائف الرفيعة ، وكان أهمها مناصب القضاء . فى المحاكم المختلطة بحكم ثقافتهم الفرنسية ، إلا أنهم اشتركوا فى النزعة الأدبية . ولكن محمد عثمان جلال تميز على صاحبيه بالاهتمام بالآداب الفرنسية شعرًا ونثرًا ومسرحًا ، بينما سلك مجدى ومرزوق الطرق التقليدية فى نظم الشعر ، ولم يجددا فيه شيئًا بل إن الثقافة الفرنسية التى عرفاها لم تؤثر فى

هذا الشعر التقليدى من قريب أو بعيد ، إلا ماكان من نظم الأناشيد الوطنية التى قلد فيها صالح مجدى أستاذه رفاعه بك مترجم نشيد المارسلييز الفرنسى .

ويبقى لنا من ركن الأدب فى مدرسة رفاعة بك هذا الأديب الشاعر الزجال المسرحى : محمد عثمان جلال .

وكان ظريفًا لطيفًا فيما يبدو ، وقد ظهر ظرفه وخفة دمه ، عندما رقى زملاؤه إلى درجات أعلى ولم تصل إليه الترقية ، فتقدم بشكوى إلى رئيس الوزراء رياض باشا ، لم يسبقه إليها أحد وكانت شكواه هى هذا الزجل اللطيف الذى قال فيه :

الخير عم الناس وفاض

ماحد إلا واستكفى

إشمعنى أنا ياعم رياض

وقعت من قعر القفه !

وبهذا الزجل استحق عثمان بك جلال الترقية التى حرم منها ، دون دخول فى باب التظلمات والشكاوى والأسباب والمسببات .

هذا الرجل أديب مطبوع ، وهو واحد ممن جنت عليهم الوظائف الرفيعة ، فضيعوا فيها أعمارهم ، جريًا وراء بريق خادع ، وجهد ضائع .

ولد محمد عثمان جلال فى إحدى قرى بنى سويف أيام محمد على ، وكان والده موظفًا من سلالة تركية ، وحفظ بعض سور القرآن فى كتاب القرية ، ثم التحق بالمدارس فى القاهرة على طريقة عصره ، حتى وصل إلى مدرسة الألسن ، فأتقن اللغات العربية والتركية والفرنسية .

وفى مدرسة الألسن بدا عليه الميل إلى الشعر والأدب والتعريب ، وكان ميالاً إلى الفن الروائى ، وأدرك رفاعة بك هذا الميل فشجعه على المضى فيما أراد ، وأنت تعلم أن أستاذ الأجيال رفاعة رافع كان يحتضن المواهب ، ويوجه تلاميذه نحو ما يحبون ، حتى تتدفق مياه الجداول فى النهر العظيم ، ويحدث الخصب فى الفكر .

كان إتقان جلال للغات العربية والتركية والفرنسية بمقدرة فائقة إحدى مواهبه الفذة فاشتغل فى قلم الترجمة ولما يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، وكانت اللغات التى يتقنها تؤهله لهذا العمل الذى تحتاج إليه الحكومة فى أيامه ، فقد كانت اللغتان العربية والتركية رسميتين فى دولة محمد على وخلفائه ، وكانت اللغة الفرنسية هى اللغة التى تحتاج إليها الدولة فى

معاملاتها مع فرنسا التى ارتبطت بمصر فى ذلك العصر ارتباطًا يكاد يكون كاملاً فى كل مجالات بعث الحضارة الحديثة فى وادى النيل .

ولكن أعمال الترجمة الرسمية فى الديوان ، لم تكن هى هدف هذا الفتى ابن الستة عشر ربيعًا ، فقد تطلع إلى ترجمةٍ من نوع آخر ، وهى ترجمة المسرحيات بوجه خاص .

لقد ترجم جلال أساطير لافونتين وسماها (العيون اليواقظ فى الحكم والمواعظ) وهى تعريب شعرى باللغة الفصحى ، واشتهرت هذه الترجمة شهرةً عظيمةً أيام الاهتمام بالآداب الرفيعة ، واعتبرت (العيون اليواقظ) من عيون الأدب ، وهى تدل على براعة عثمان جلال ، وقدرته الفائقة فى الترجمة الفنية العالية ، كما تدل على تمكنه من اللغتين العربية والفرنسية بمفهوم المعرفة لأسرار اللغتين وما تضمان من فن التعبير الشعرى .

ولكن عثمان جلال كان يتجه إلى المسرحيات بوجه خاص ، قبل أن يظهر فى مصر أو غيرها كاتب يهتم بهذا اللون من الأدب الجديد الذى لم يعرفه العرب فى العصر الحديث ؛ ولذلك فإننى قلت لك إن تاريخ الأدب المصرى لم يدرس دراسةً علميةً حتى اليوم ؛ لأننى عندما قرأت ما كتب عن المسرح ، وهو فن جديد ، وجدت المؤلفين يهتمون بالممثلين ولا يهتمون بالرواد فى نقل هذا الفن إلى حياتنا ، أى أنهم نظروا إلى المسرح من وجهة نظر المشخصاتى لا من وجهة نظر الكاتب الأديب الفنان . ولذلك قصروا فى دراسة (عثمان جلال) وهوايته العظيمة التى جعلته يترجم عيون الأدب المسرحى الفرنسى ، ويطبعها وينشرها . ويجمع مجموعةً نادرةً منها سماها (الروايات المفيدة فى علم التراجيدة) طبعت بالمطبعة الشرقية فى القاهرة عام (١٨٩٣ – ١٨٩٤) .

كان جلال هو الذى عرف الناس باسم (موليير) قبل أن يظهر المهرج اليهودى (يعقوب صنوع) الذى ألف هزليات مبتذلة لها صفة سياسية لمهاجمة سيده ومولاه الذى أنعم عليه ورباه خديوى مصر إسماعيل باشا ، ثم تجرأ صنوع فلقب نفسه بلقب (موليير مصر) .

الشيء العجيب أن المؤلفين والباحثين ، يهتمون بدور (يعقوب صنوع) فى المسرح المصرى ، ولا يعرفون دور عثمان بك جلال . لأن الأسباب السياسية كانت أقوى من مفهوم الثقافة والحضارة فى مصر الحديثة ، ولكننا اليوم نعيد النظر فى كل هذه القضايا حتى لا يختلط الأمر على أجيال تأتى من بعدنا ، وتلومنا على التقصير فى تبصيرها بجوانب غامضة فى تاريخ الفكر المصرى الحديث .

لم تعد الأسباب السياسية الطارئة فى حياة الشعب المصرى ، والتى زالت وسقطت بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، مما يوجب علينا التحكم فى إصدار الأحكام الثقافية أو الفنية فى حياة شعبنا ومهما كان أثر السياسية فى حياة الفن ، فإن النظرة إلى مفهوم الفن يجب أن تعرف كل الحقائق لتدرك الفارق بين المهرج وبين الفنان .

إن عناصر الإبهار الوقتية فى الفنون لاقيمة لها إلا فى لحظة الإبهار ، ثم تنطفئ الصواريخ ولو بلغت عنان السماء ، وتبقى على الأرض الأعمال الجادة الرزينة المؤثّرة فى مجرى تيار الثقافة ، وهذه الأعمال ترتبط بالعقل والفكر والفلسفة وأشياء أخرى عميقة صعبة ، لا علاقة لها بتهريج المهرجين ؛ لأنها من أعمال أصحاب الثقافة الرفيعة التى تقوم على العلم والموهبة داخل إطار واحد .

وعثمان جلال كما دل عليه لفظه وتعبيره عندما نشر رواياته المترجمة عن : موليير وراسين قال إنها : علم التراجيديا ، وسماها :

(الروايات المفيدة فى علم التراجيدة) .

وهذه التسمية تدلك على شخصية (عثمان جلال) الذى كان ينظر إلى المسرح نظرةً علميةً منذ أكثر من ثمانين سنة ، فقد توفى سنة ١٨٩٨ عن سبعين عامًا ، بعد أن كرس حياته كلها لنقل المسرحيات الفرنسية إلى العربية بطريقة التمصير أو الاقتباس وأشهر هذه المسرحيات هى :

* مدرسة الأزواج .
* الشيخ متلوف (طرطوف لموليير) .
* مدرسة النساء .
* الحزين أو .. النكدى .
* استير .
* النساء العالمات .
* أفيجينيا .
* الإسكندر الأكبر .
* السيد .
* هوراس .
* الثقلاء .

ونحن لم نعرف عثمان جلال كاتبًا مسرحيًّا إلا فى مسرحية (الشيخ متلوف) التى اقتبسها عن رواية (طرطوف) لموليير. وهى أشهر أعماله على وجه الإطلاق . وقد قدمت على خشبة المسرح طوال نصف قرن من الزمان على الأقل . وتعتبر من وجهة نظر الفن المسرحى من النصوص الرائدة فى الاقتباس ، أو التمصير. وقد تعلم منها كتاب كثيرون كيف يمصرون المسرحيات .

أما المسرحيات الأخرى التى ترجمها عثمان جلال . وقد ذكرت لك بعضها ، فإنها تدل على عبقرية الاختيار ؛ لأنها ترجمت بعد عصره ترجمات متعددة وقدمت للناس فى مصر وخارج مصر عن طريق فرق مسرحية متعددة . والاختيار فى ذاته يحمل دلالة الفهم لمتطلبات المجتمع من الفنون الأجنبية ، وهذا وحده يحتاج إلى الإدراك الواعى الذى تميز به عثمان جلال رائد المسرح المصرى فى العصر الحديث .

قالوا إنه من سلالة تركية ، وكانت له زوجة مصرية ، ويبدو أن هذا القول كان له تأثير فى اتجاهاته الفنية ؛ لأن ترجماته للمسرحيات كانت تتم باللهجة المصرية ، وليس باللغة العربية الفصحى ، ولم تكن هذه اللهجة المصرية العامية تستخدم فى الكتابة أو الترجمة فى ذلك العصر ، بل إنها استخدمت فى الأغانى وحدها من بين كل الفنون القولية ، وقد جمع الشيخ محمد شهاب الدين هذه الأغانى العامية فى مصر والشام أيام محمد على فى كتابه الشهير (سفينة شهاب) ، وألف بعض الشعراء أغنيات باللهجة العامية المصرية ومنهم السيد على الدرويش الشاعر الرسمى لدولة محمد على . وصاحب الأغنية الشهيرة :

طربوش مايل على خده .

ومنهم الشيخ على الليثى شاعر الخديوى إسماعيل ، وصاحب الأغنية الشهيرة يوم عزل إسماعيل عن العرش :

أنا اللى استحق اللى جرى
ماحد غيرى اللى انظلم
طاوعت أسباب الهوى
حتى غدا خصمى حكم

لم تكن اللهجة العامية تستخدم فى كتابة النثر الفنى ، بل إن اللغة الفصحى المستخدمة كانت ثقيلةً مليئةً بالأسجاع ، وقد استخدمها (عثمان جلال) نفسه فى ترجمة رواية (بول

وفرجينى) وسماها (الأمانى والمنة فى حكاية قبول وورد جنة) .

كان قد ترجم اسم (بول) إلى (قبول) .. وترجم اسم (فرجينى) إلى (ورد جنه) على طريقة عصره فى الالتزام بالسجع ثم بالمحسنات اللفظية ، كما كان كتابه (العيون اليواقظ) الذى ترجمه عن (لافونتين) دليلاً على التزامه بالقيم اللغوية فى أيامه من ناحية الفصاحة اللفظية الجافة المرهقة .

ولكن .. ماذا حدث فى ترجماته للمسرحيات ؟ التمصير .. استبدل بالشخصيات الأجنبية شخصيات مصرية .. إضافة بعض المفاهيم المتعارف عليها فى المجتمع المصرى إلى مفاهيم موليير أو راسين أوكورنى .

كل هذه الأشياء كان يقوم بها عثمان جلال عندما يترجم المسرحيات الفرنسية ، وقد يضيف إليها إضافات مصرية خالصة كما حدث فى مسرحية (الشيخ متلوف) ، بل إنه حاول التأليف المسرحى الخالص فى رواية (الخدامين والمخدمين) ، وهى مسرحية من فصلين زجلية شعرية ، باللهجة العامية ، وهى كوميديا تمثل السلوك فى المجتمع المصرى الحديث عندما كانت توجد فى القاهرة مكاتب خاصة للمخدمين ، وكان المخدم يقوم بأدوار كثيرة قد تصل إلى منافاة الشرف والكرامة ، وهذه المسرحية تمثل الفكر الاجتماعى عند عثمان جلال ، عندما حاول معالجة مشكلة اجتماعية فى مسرحية .

لقد كان عثمان جلال فاهمًا لرسالة المسرح فى المجتمع ، ولكنه لم يستخدم عناصر الإثارة السياسية أو الوطنية أو الدينية فى كل ما ترجمه ومصره أو ألفه من مسرحيات ، بل كان بحكم ثقافته يحاول ربط المسرح بالمجتمع . كما أنه لم يكن من دعاة التغريب الذين جاءوا من بعده فقدموا ترجمات لمسرحيات عالمية بقصد العرض المسرحى للمتفرج الذى يراها وكأنه يقرأ كتابًا يقدم له على خشبة المسرح بهدف التثقيف أو الإمتاع وإظهار القدرات فى التمثيل والإخراج المسرحى .

كان عثمان جلال فيما أعتقد يريد إدخال المسرح العالمى فى الأدب العربى الحديث كفن جديد قائم بذاته ، ثم اصطدم منذ البداية باللغة .. لغة المسرح ، وحل جلال هذه المشكلة عندما استخدم العامية المصرية لغةً جديدةً فى مسرحه .

إن اللهجة العامية المصرية التى استخدمها عثمان جلال فى نصوصه المسرحية تحتاج إلى

دراسة عميقة ، بل إنها تحتاج إلى معجم لألفاظها حتى نصل إلى حقيقة هذه التجربة العجيبة الفريدة .

لم يستخدم أحد اللهجة المصرية فى المسرح الحديث قبل عثمان جلال ، بل كانوا يستخدمون اللغة الفصحى ، حتى جاء (يعقوب صنوع) فاستخدم هذه اللهجة تقليدًا لعثمان جلال ، ثم استخدمت العامية المصرية بعد ذلك فى المسرح .

وظل المسرح يتأرجح بين العامية والفصحى حتى اليوم . بل إن لغة المسرح مازالت هى العقبة الكبرى التى يصطدم بها كتاب المسرح .

ولكن .. لماذا استخدم عثمان جلال اللهجة العامية فى المسرح ؟

يخيل إلى أنه عندما قرأ المسرحيات الفرنسية أدرك أن لغتها يمكن أن تصل إلى جمهور المشاهدين ثم عرف أن اللغة الفصحى فى عصره ، وهى لغة السجع والمحسنات اللفظية يصعب وصولها إلى الجماهير ، فلم يحاول الكتابة بلغة فصحى بسيطة عندما صعب عليه ذلك ، فكتب حوار مسرحياته باللهجة العامية وهى أسهل عنده من لغة السجع والمحسنات والشعر المصنوع فى قوالبه .

لقد كان عثمان جلال أول كاتب استخدم اللهجة المصرية فى المسرح ، عندما كتب (الشيخ متلوف) وغيرها من المسرحيات المترجمة ، وبرغم أن مترجمى المسرح استخدموا الفصحى بعد ذلك فقد ظلت تجربة عثمان جلال هى الأساس فى كتابة المسرح ، وكانت لها آثارها الخطيرة فى لغة المسرح حتى اليوم ، فنحن نملك لغتين للمسرح إحداهما فصحى والثانية عامية . فتختلف لهجاتها المصرية والشامية والعراقية والمغربية ، وهذا الازدواج اللغوى من أسباب أزمة المسرح .

ولكن عثمان جلال كان معذورًا فى استخدام اللهجة العامية لأنه لم يجد بديلاً لها فى فصحى زمانه المثقلة بالسجع والمحسنات ، حتى إن عبد الله باشا فكرى وهو من أصحاب البيان فى عصره ، وكان وزيرا للمعارف ، اضطر إلى استخدام اللهجة العامية فى رسائله لأصدقائه حتى يكون خفيف الظل فى هذه الرسائل اللطيفة التى ظهرت فيها بلاغة هذا الكاتب المبدع عبد الله باشا فكرى .

لقد فجّر عثمان جلال قضية الفصحى والعامية منذ قرن من الزمان .. ونحن مازلنا نبحث عن حل للتقريب بين الفصحى واللهجات العامية حتى اليوم .. فهل نصل إلى هذا الحل ؟ .

هذا سؤال جوابه على فم الزمان حين تنطق الشفاه جميعًا بلهجة واحدة فصيحة حديثةمعاصرة .. ثم تصبح للمسرح لغة واحدة كما أصبحت للصحافة لغة واحدة .

الدكتور محمد درى باشا

حكيم أنشأ مطبعة للكتب الطبية

هذا الرجل من المشاهير لأنه يملك باسمه شارعًا فى حى العجوزة بالجيزة .. وقد أصبحت اللافتات الزرقاء التى تحمل أسماء الشوارع تذكرنا بعظماء مصر.

وكانت الحملة الفرنسية هى التى وضعت لافتات زرقاء فى القاهرة ، ولكنها لم تكن تحمل أسماء الشوارع ، بل إن الفرنسيين وضعوها لتنظيم مواقف الحمير التى كانت وسيلة المواصلات الوحيدة داخل المدينة الكبيرة ، وكان كل موقف يحدد عدد الحمير التى تقف فيه ، ويكتب ذلك على لافتة زرقاء مثل :

– موقف لأجل ٣ حمير.

وقد شاهدت بعض هذه اللافتات الزرقاء فى بعض الأماكن منذ خمسين سنة عندما كنت صبيًّا ، ولاحظت فيها أخطاء إملائية ، وخطاً عربيا كتبه أحد المستشرقين ممن يرسمون الحروف رسما .

المهم هو أن القاهرة عرفت اللافتات الزرقاء من حملة بونابرت ، وعندما قام محمد على بتنمير البيوت أى وضع أرقام لها ، استخدم نفس الطريقة ، ومازالت اللافتات التى تحمل أرقام البيوت وأسماء الشوارع والحوارى والأزقة والدروب زرقاء ، ويبدو أن الفرنسيين هم الذين قاموا بهذه الأعمال لأن دولة محمد على كانت شديدة الاتصال بفرنسا وثقافتها وحضارتها .

كل هذا الكلام دفعنا إليه الدكتور محمد درى باشا الذى أطلق اسمه على شارع فى العجوزة .

وأنا أضحك كلما قرأت فى الصحف أن الذين يملكون إصدار شهادات الميلاد الجديدة بأسماء الشوارع يرفعون لافتة زرقاء باسم من الأسماء ثم يضعون لافتةً أخرى باسم آخر على طريقة ملوك الفراعنة فى محو أسماء أسلافهم ونقش أسمائهم على المسلات أو جدران المعابد ، وكانوا يعتقدون أن هذا يخلد أسماءهم .

ولكن ما ذنب الدكتور محمد درى باشا فى كل هذه المناقشة ؟

أقول لك إن شهرة الشوارع ليس معناها التعريف بمن تحمل لافتاتها الزرقاء أسماءهم من مشاهير الرجال .

كان الشاعر الشهير شيللر قد سكن فى بيت صغير بمدينته (لايبزيج) الألمانية الشرقية ، داخل حارة ضيقة ، واستهوانى زيارة هذا البيت الذى كتب فيه الشاعر قصيدة السعادة التى أصبحت السيمفونية الخامسة لبيتهوفن ، وظللنا نبحث عن هذا البيت الصغير أكثر من ساعة ، حتى أطلت علينا سيدة من نافذة وسألتنا عما نبحث ؟ وقلنا لها : بيت شيللر ، وقالت لنا : فى هذه الحارة .. واسم شيللر مكتوب على جدار فى الحارة .

هذا الشاعر الكبير لم يطلق اسمه على الشارع الكبير ، ولكن على الحارة الصغيرة ، ولم يستطع أحد استبدال اسم الشارع واسمه : شارع الشعراء .

كل الناس فى هذا الحى يعرفون شيللر ، ويقرءون شعره ، ويحفظون بعضه منذ كانوا تلاميذ فى المدارس .

ولكن الذين يسكنون فى شارع درى لا يعرفون من هو الدكتور محمد درى ؟ .. هذه هى المشكلة التى جعلتنا نتناقش حول أمور لا دخل للرجل فيها .

ولد محمد درّى فى قرية (محلة أبو على) وهى إحدى القرى القريبة من طنطا سنة ١٨٤١ ، وتلقى التعليم الابتدائى والثانوى ثم ألحق بمدرسة المهندسخانة عندما كان ناظرها على باشا مبارك .. ولكن هذا الشاب كان متعلقًا بدراسة الطب لا الهندسة ، فطلب من أستاذه معاونته على الالتحاق بمدرسة الطب .

ويبدو أن على مبارك ظل يحاوره ليعرف منه أسباب تركه لمدرسة المهندسخانة ، وهى أعظم أمنيات شاب مثله ، وأراد الباشا أن يعرف أيضًا وهو المهندس العظيم لماذا يترك شاب مثل محمد درى مدرسة المهندسخانة ويذهب إلى مدرسة الطب ؟ .

واقتنع على مبارك بوجهة نظر الشاب الناشئ محمد درى ، وساعده فى الالتحاق بمدرسة الطب ، حتى يحقق رغباته الحقيقية وميوله الطبيعية ، وحفظ محمد درى هذا الجميل لعلى باشا مبارك ، فأصدر بعد سنوات كتابًا عن تاريخ هذا الرجل العظيم وطبعه فى مطبعته التى أنشأها ، فى حارة السقايين بعابدين ، وسماها (المطبعة الدرية لطباعة الكتب الطبية) ، ولم تطبع هذه المطابع كتابًا فى علم أو فن غير الطب سوى هذا الكتاب الفريد عن حياة على مبارك .

بدأ محمد درى دراسة الطب ونجح فى الامتحان السنوى ، ولكن حدثت مفاجأة مذهلة قاتلة ، فقد ألغى الوالى سعيد باشا مدرسة الطب وأمر بإلحاق طلابها بالجيش ، ووجد الشاب هاوى الدراسة الطبية نفسه جنديًّا فى إحدى الأورط العسكرية فى الجيش .

فقد مدرسة المهندسخانة والطب معًا وأوشكت آماله أن تتبدد .

ولم ييأس هذا الشاب الطموح ، واستمر يدرس الطب فى الكتب التى تصل إلى يده وألحت عليه رغباته فطلب من رؤسائه أن يعيِّن ممرضًا فى الجيش .

ثم أصبح طالب الطب ممرضًا ، ولم يفهم الأطباء الذين كان يعمل معهم لماذا اختار هذه المهنة ؟ .. وكانت معرفته بالطب تلفت النظر فهو ممرض ممتاز ، ولديه معارف طبية واسعة فاعتقد أطباء الجيش أنها مهارة أو شطارة ، ولم يدركوا أنه كان يتعلم منهم الصنعة بعد أن أغلقت مدرسته .

ولكن الذى حدث هو أن سعيد باشا أعاد فتح مدرسة الطب ، فعاد إليها محمد درى ، وأتم دراسته بنجاح باهر ونبوغ ظاهر ، فعين معيدًا للجراحة فى المدرسة ، وبدأ نجمه فى الصعود .

ثم حدث الرضى من الوالى سعيد باشا ، فقرر إرسال بعثة من أساتذة الطب إلى فرنسا للتزوّد بأحدث ما وصلت إليه باريس فى العلوم الطبية ، وكان الدكتور محمد درّى أصغر أعضاء هذه البعثة سنا وأنبغهم وأكثرهم علمًا .

وعاد الأطباء إلى مصر فى أوائل عهد إسماعيل ليعملوا فى مستشفيات الحكومة ، وبقى الدكتور محمد درى فى باريس بسبب صغر سنه ، وكان الخديوى إسماعيل هو الذى لاحظ هذه الملاحظ عندما عرض عليه كشف بأسماء أعضاء هذه البعثة العلمية التى ضمت ستةً من الأطباء كانوا يحملون رتبة البكوية ، وقد بلغ سن بعضهم ما يقرب من خمسين سنة ، فأعادهم جميعًا من البعثة التى سافروا إليها للنزهة لا للعلم .

أدرك إسماعيل بذكائه اللماح أن هؤلاء الأطباء ضحكوا على عمه سعيد ، ولكنه استثنى المعيد الشاب الدكتور محمد درى وتركه يدرس فى باريس بعد أن عرف كل ظروفه وأحواله ، وبقى الشاب الحالم فى باريس نحو سبع سنوات ، وأتم دراسته على أشهر الجراحين ، ونبغ فى الجراحة نبوغًا فائقًا فذًّا .

وعندما كان الخديوى إسماعيل فى زيارة لباريس التقى به الدكتور محمد درى ، فعطف عليه وشمله برعايته بعد أن سمع من أساتذته الاعتراف بنبوغه ومهارته .

وكان من خصائص إسماعيل برغم كل نقائصه الذكاء والفراسة والقدرة على معرفة الأشخاص ، ولم يكن حاكمًا جاهلاً ولكنه كان صاحب نزوات طائشة أطاحت به وبملكه ، وكثيرون لا يعرفون أنه كان مهندسًا بارعًا وقد درس دراسات عالية فى فيينا وباريس وفهم حضارة أوربا فهمًا واعيًا عميقًا . ولكن نزواته ضيعت ملكه .

أدرك الخديوى أن هذا الشاب المصرى الفلاح المولود فى (محلة أبو على) وابن السيد عبد الرحمن أحمد أحد فلاحى هذه القرية ، سيكون له شأن عظيم .

وعاد الدكتور محمد درّى من باريس لشغل منصب كبير الجراحين فى مستشفى قصر العينى والأستاذ الأول للجراحة بمدرسة الطب .

كان مثل النجم الثاقب .. وانهالت عليه الرتب والألقاب حتى نال رتبة الباشوية ، وأصبح نجم الجراحة فى مصر ، وذاعت شهرته فى أرجاء البلاد من أسوان إلى الإسكندرية .

بلغ الدكتور درى ذروة الشهرة بما عرف عنه من النبوغ فى فنه . والمهارة فى إجراء العمليات الجراحية الدقيقة والخطيرة والدقة فى تشخيص الداء ووصف الدواء .

وكان قصر العينى ومازال من أهم المراكز العالمية فى الجراحة على وجه الخصوص وقد نال هذه الشهرة بسبب هؤلاء العباقرة من أمثال الدكتور درى والدكتور محمد على البقلى باشا والدكتور على باشا إبراهيم وغيرهم ممن ذاعت أسماؤهم فى أنحاء العالم ، وعرفتهم كليات الطب فى أرجاء الدنيا أساتذةً لا يشق لهم غبار .

أصبح الشاب الذى اشتغل ممرضًا فى الجيش المصرى من أشهر الجراحين ، وقد اعترف له أساتذته فى باريس بهذه المهارة والعبقرية .

ولكن .. هل فى قصر العينى سر من الأسرار ؟

إننى كلما عدت لمراجعة تاريخ مدرسة طب قصر العينى بين سطور الكتب والمراجع أحس بأن شيئًا غامضًا يضمه هذا البناء الذى نجدده فى أيامنا ، ويخيل إلى أنه يعيش فى طقوس فرعونية قديمة عمرها سبعة آلاف سنة .

وحتى هذه اللحظة يفاخر الأطباء بكتابة أسمائهم على اللافتات مقرونةً بوظائفهم فى قصر العينى ؛ لأن هذه الوظائف هى التعبير الصادق عن الثقة والمهارة .

والشيء الذى يلفت النظر هو أن مدرسة طب قصر العينى كان لها هذا الدور الضخم فى بناء الحضارة المصرية الحديثة ، ومازالت تمارس هذا الدور بنفسها أو عن طريق بناتها كليات الطب فى مختلف الجامعات ، حتى أن الطبيب المصرى فى لندن أصبح فى أيامنا يتفوق على الطبيب الإنجليزى .

يا أخى .. هذا الرجل محمد درى باشا الحكيم يجرنا دائمًا إلى مناقشةالقضايا ويبدو أنه كان فيلسوفًا محبا للمناقشة ؛ لأنه كان متعلقًا بالعلم والتأليف .

لقد عرف عنه أنه كان يقتنى مكتبةً علمية نفيسة ، اشتهرت فى عصره ، وكان يرجع إليها زملاؤه ، فهو ليس من كبار الجراحين فحسب . ولكنه من كبار العلماء أيضًا . وكانت مكتبته الطبية من أهم المراجع العلمية فى مصر ، ثم ذهبت أدراج الرياح كما ذهبت مكتبات عظماء الرجال فى بلادنا ، ومازال بعض الكتاب ينادون ويصيحون ويطالبون بأن تسعى دار الكتب القومية إلى اقتناء هذه المكتبات .. ولكن من يقرأ ومن يسمع كما كان يقول أستاذنا أحمد أمين .

ومن أهم مقتنيات الدكتور محمد درى التى تحدث عنها زملاؤه من كبار الأطباء مجموعته التشريحية التى وصفت بأنها لم يكن لها مثيل حتى فى كليات الطب العالمية .

لم يكن هذا الأستاذ العظيم كبير الجراحين وكبير أساتذة الجراحة فى قصر العينى فحسب ولكنه كانت له قضية أساسية فى حياته العلمية .

بأى لغة يدرس الطب فى قصر العينى ؟

لقد كانت دراسته بالفرنسية ، وكانت نشأة مدرسة الطب منذ أيام كلوت بك فرنسية وكانوا يحضرون التراجمة لترجمة المحاضرات للطلاب الذين يدرسون الطب ، كما كان هناك فريق آخر يتعلم الفرنسية ليدرس هذا العلم .

وكان الدكتور درى باشا لا ينظر إلى مشكلة اللغة ؛ لأنه قرر تدريس الطب باللغة العربية ورأى أن هذا لا يمنع إطلاقًا من مراجعة كتب الطب بأى لغة من لغات الدنيا ، ولا يمنع من الاطلاع على أحدث ما وصل إليه الطب فى العالم . ولم تكن هذه نظرة الدكتور درى باشا وحده ، ولكنها نظرة كل زملائه من أساتذة الطب .

بل إن هذا هو ما حدث فى كل العلوم الحديثة ، فقد كان على باشا مبارك ناظر المهندسخانة يدرس العلوم الهندسية والرياضية باللغة العربية .

وفى هذا العصر حدث التقدم الحضارى العظيم فى مصر ، ولم تكن تستورد الخبراء الأجانب فى الصناعة والزراعة كما نفعل نحن الآن ؛ لأنها كانت تملك الخبراء الذين تعلموا أحدث العلوم فى أوربا ، وكانت كل المصانع التى أنشئت فى عصر محمد على وإسماعيل يشرف عليها مصريون .. وكان علماء مصر فوق قمة المجتمع الحضارى الجديد .

وكانت قضية الدكتور محمد درى هى تدريس الطب باللغة العربية .

ولكن . . أين كتب الطب التى يدرسها الطلاب ؟

المشكلة سهلة وبسيطة ويسيرة .

أنشأ الدكتور درى باشا مطبعته المتخصصة وسماها (المطبعة الدرية لطباعة الكتب الطبية) وجعل مقرها فى حارة السقايين ، ودارت آلات الطباعة لتقدم لمدرسة الطب كتبه وكتب زملائه .

طبع كتابه الضخم (بلوغ المرام فى جراحة الأجسام) فى أربعة مجلدات . . ثم طبع كتابه (الإسعافات الصحية فى الأمراض الوبائية) . . وغير ذلك من مؤلفاته التى كانت تدرس فى قصر العينى .

وقامت المطبعة الدرية بالدور الرائد العظيم فى طبع كتب أساتذة الطب الكبار ، ولم تكن تستورد كتابًا واحدًا فى العلوم الطبية من أوربا وكان طلبة الطب يجدون بين أيديهم كل الكتب التى يدرسونها بغير مشقة أو عناء .

إن هذا الرجل وأمثاله من عظماء مصر يجب علينا أن نتعلم من تجاربهم حتى نستطيع إعادة بناء مصر .

قام بمفرده بإنشاء أضخم مكتبة طبية فى داره لتكون مرجعًا لكل من يريد المزيد من العلم .

أنشأ بمفرده مطبعةً خاصةً لطباعة الكتب الطبية . وطبع فيها عشرات الكتب والمجلدات .

أنفق أمواله ولم يحسب حساب الأرباح والخسائر فى أعماله العظيمة التى قام بها لوجه الله لا يطلب من أحد جزاءً ولا شكرًا .

كل هذه الأعمال قام بها رجل واحد انتهت رحلته فى سنة ١٩٠٠ . . وبقى منه شارع يحمل اسمه فى حى العجوزة . . هو شارع الدرى .

الدكتور محمد على البقلى باشا

طبيب عيادته أهم من « قصر العينى »

قد لا تصدق أن المرضى قد هجروا مستشفى قصر العينى وذهبوا إلى عيادة الدكتور محمد على البقلى طبيب قسم قيسون فى قلب القاهرة بعد أن أخرجه الوالى المجنون عباس باشا الأوّل من وظيفة مدرس فى مدرسة الطب إلى وظيفة حكيم قسم من أقسام القاهرة .

عباس باشا الأوّل هو الذى جعل الأستاذ الأكبر رفاعة بك ناظر مدرسة ابتدائية فى الخرطوم ، وجعل محمد بيومى العبقرى الموهوب الذى استدعته جامعة باريس لتدريس العلوم الرياضية ، مدرسًا للحساب فى الخرطوم مع زميله رفاعة بك ، ثم انتهت حياة بيومى أفندى بضربة شمس أو بضربة طغيان واستبداد وفساد .

مات محمد بيومى فى الخرطوم حزنًا وأسفًا وأسى .

ولكن الذى حدث مع هؤلاء المثقفين العظماء ، ومع أطباء الطب البيطرى الذين ألبسهم عباس باشا الأوّل الزعابيط وجعلهم حفاةً بعد موت حصانه الأحمرانى الذى عجزوا عن علاجه ، لم يستطع أن يفعله مع الدكتور محمد على البقلى كبير الجراحين فى مدرسة الطب ، فأمر بنقله ليصبح طبيب قسم قيسون .

لم يغضب الدكتور البقلى ، ولكنه افتتح لنفسه عيادةً يعالج فيها الأغنياء بالفلوس ، ويعالج الفقراء بالمجان ، وقد يأخذ من أموال الأغنياء ليعطيها للفقراء ثمنًا لدواء أو غذاء أو كساء . . وكل شيء بثوابه كما يقول المثل الشعبى المصرى .

وأصبحت عيادة الدكتور البقلى أهم من قصر العينى ، وقل الوارد على مستشفى القصر العينى كما يقول على باشا مبارك ، وجلس الأطباء الأجانب ينتظرون مريضًا واحدًا يسمح لهم بعلاجه ولكن المرضى كانوا يذهبون إلى الدكتور البقلى .

هل هذا الطبيب المصرى العبقرى أهم من كل هؤلاء الأطباء الأجانب ومن معهم من المصريين ؟

هذا هو التحدى .

يأخذ من الأغنياء ويعطى الفقراء وكلهم سعداء .

ولد هذا العظيم فى زاوية البقلى مركز منوف سنة ١٨١٥ ابنًا لأسرة مرموقة فى قريته وتعلم فى الكتاب بالطريقة المعتادة فحفظ بعض سور القرآن الكريم وأتقن القراءة والكتابة ومبادئ الحساب ، وفى التاسعة من عمره أدخله أحمد أفندى البقلى مدرسة أبو زعبل حتى نال شهادة التجهيزية وعمره خمسة عشر عاما وكان أول فرقته ، فالتحق بمدرسة الطب عندما كان ناظرها الدكتور كلوت بك ، وظهرت عليه مخايل الذكاء واشتهر بالنبوغ والتفوق وتوقد القريحة ، فلما أتم دراسته اختاره كلوت بك فى البعثة التى أرسلت إلى فرنسا للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة باريس ، وكان مرتبه فى البعثة ١٥٠ قرشاً ، فترك لوالدته خمسين قرشًا ، واكتفى لنفسه بمائة قرش .

وبعد أن أتم دراسته فى جامعة باريس ، أعد رسالة الدكتوراه وكان موضوعها (الرمد الصديدى المصرى) . . ثم عاد إلى مصر سنة ١٨٣٨ وعين مدرسًا للجراحة والتشريح فى مدرسة الطب ، وكبيرًا للجراحين فى مستشفى قصر العينى .

وأصبح الطبيب الشاب ابن الثلاثة والعشرين عامًا أشهر الأطباء والجراحين فى مصر ، وتعرض للأحقاد والحسد وخاصةً من الأطباء الأوربيين الذين لم يستطيعوا الوقوف أمام عبقريته ونبوغه فاستخدموا ضده سلاح الوشاية والنميمة ، حتى أبعده عباس باشا الأول من مدرسة الطب ومن قصر العينى ، وظلت شهرته فى اتساع ، وذكره على كل لسان فى أرجاء مصر .

ظل الدكتور البقلى خمس سنوات يعمل فى عيادته ، حتى عينه سعيد باشا والى مصر الذى حكم بعد عباس الأول ، كبيرًا لأطباء الجيش ، ثم عاد لمنصبه كبير جراحى مستشفى قصر العينى . وعين وكيلاً لمدرسة الطب ومدرسًا للجراحة بها ، وجعله سعيد باشا طبيبه الخاص مع الاحتفاظ بكل وظائفه ، واصطحبه معه فى رحلته إلى أوربا .

لقد أصبح الدكتور محمد على البقلى ألمع الشخصيات الطبية فى عصره ، وكانت مصريته غامرةً متدفقة ، فهو الذى وقف وحده ضد الأطباء الأجانب الذين حاولوا السيطرة على مدرسة الطب ومستشفى قصر العينى ، فتحداهم جميعًا ، وتحدى معهم عباس باشا الأول الحاكم المستبد المجنون ، وأكد للناس أنه يستطيع بمفرده أن يأخذ كل المرضى من مستشفى قصر العينى ويعالجهم فى عيادته .

هذا الموقف الصلب القوى الفريد من أعظم المواقف التى سجلها الدكتور البقلى بمشرط الجراح وعبقرية الطبيب .

وزفد نجمه صعودًا عندما أصبح الطبيب الخاص للوالى سعيد باشا .

وفى عصر إسماعيل زاد نجم الدكتور البقلى صعودًا ، فأصبح أول ناظر مصرى لمدرسة الطب .

هذه الرحلة السريعة الخاطفة من كتاب قرية زاوية البقلى حيث كان يجلس الصبى محمد على البقلى على الحصيرة ليردد مع زملائه آيات من كتاب الله الكريم . . إلى كرسى ناظر مدرسة طب قصر العينى ، ليست من الرحلات العادية فى ذلك العصر ؛ لأنه لم يكن فى مصر طبيب مصرى واحد قبل إنشاء مدرسة الطب ، بل كان بعض الأجانب يمارسون هذه الصناعة فى حارة الإفرنج عند شارع الموسكى ، ولم يكن أحد يعرف هل هم أطباء أم دجالون ؟

وقد وصف الجبرتى دكاكين هؤلاء الأطباء الأجانب وذكر أن كثيرًا منهم كانوا من الدجالين الذين تسببوا فى مصائب وكوارث بسبب جهلهم وكانت السلطة الحاكمة توقفهم عن العمل فى معظم الأحوال حرصًا على سلامة الناس .

وبعد إنشاء مدرسة الطب فى عهد محمد على كان ناظرها هو الدكتور كلوت بك وهو رجل شريف القصد نزيه الهدف ، وكان من أعظم أعماله تخريج أطباء مصريين ، وهو الذى علم الدكتور البقلى وأرسله فى البعثة إلى باريس ، ولكن الأطباء الأجانب الذين كانوا يعملون فى قصر العينى حاربوا النهضة المصرية ، ثم تكتلوا ضد الدكتور البقلى فى عهد عباس الأول حتى أبعدوه عن مدرسة الطب كما قلت لك ؛ ولذلك كانت رحلة هذا العظيم صعبة جدًا فى عصره ، وكان وصوله إلى نظارة مدرسة الطب خلفًا لأستاذه الدكتور كلوت بك من أهم انتصارات الإرادة المصرية التى كانت تحارب فى جبهتين :

* السلطة الحاكمة المستبدة الجاهلة .
* النفوذ الأجنبى المتغلغل .

لقد كان عباس الأول شخصيةً غريبة الأطوار مصابًا بكل ألوان الشذوذ ، فقد أصدر أمرًا لجميع موظفى الحكومة بتربية ذقونهم وإلا فصلوا من الخدمة ، وعندما أنشأت شركة بريطانية أول خط حديدى فى مصر بين القاهرة والإسكندرية أصدر أمره إلى شاعره الشيخ محمد شهاب

الدين بكتابة قصيدتين إحداهما فى مدح الملكة فيكتوريا ، والثانية فى مدح رئيس وزرائها بالمرستون ، وإرسال القصيدتين إلى لندن لتسليمهما للملكة ورئيس الوزراء .

وأنت ترى كيف عاش الدكتور البقلى ورفاقه من المثقفين المصريين فى هذا الجو الرهيب الغريب .

وعندما وصل الدكتور البقلى إلى كرسى النظارة فى مدرسة الطب بدأ يحقق أعظم أحلامه :

* تعريب العلوم الطبية .
* التدريس فى مدرسة الطب باللغة العربية .

لقد أراد إنهاء النفوذ الأجنبى نهائيًّا حتى لا يعود للسيطرة على مدرسة الطب . وحتى تصبح المدرسة الطبية المصرية هى صاحبة الكلمة العليا ، وليس معنى ذلك كما يتبادر إلى بعض الأذهان الانفصال عن التيارات العلمية العالمية ، أو عدم تعلّم اللغات وإتقانها ، فهذا شيء آخر ، فالانجليز يدرسون الطب بالإنجليزية ، والفرنسيون بالفرنسية ، والألمان بالألمانية ، والطليان بالإيطالية ولم يقل أحد إن استخدام لغاتهم القومية فى تعلم الطب أبعدهم عن عالمية العلم .

بل إن العلوم الطبية بالذات عربية الأصل ، وقد ظل كتاب (القانون فى الطب) للشيخ الرئيس ابن سينا يدرس فى جامعات أوربا قرونًا عديدة ، وما زالت كلية الطب فى جامعة باريس تحتفظ بالصورة التذكارية لابن سينا فى صدر قاعتها الرئيسية .

كان الدكتور البقلى يعرف كل هذه الحقائق ، ويعرف أن معظم المصطلحات الطبية أصلها عربى ولذلك كانت دعوته لتدريس الطب باللغة العربية منطقية وعلمية .

وعندما أصبح التدريس باللغة العربية قامت المشكلة :

* أين الكتب الطبية العربية التى يرجع إليها الطلبة ؟

خلال هذه الأيام المجيدة فى حياته أنعم عليه الخديوى إسماعيل برتبة الباشوية ، وعندما استقبله الخديوى فى قصر عابدين دار بينهما الحديث حول تدريس الطب باللغة العربية ، وعدم وجود كتب عربية فى العلوم الطبية .

وقال له الخديوى إسماعيل :

– لماذا لا تؤلف هذه الكتب يا باشا ؟

– ومن سيطبعها يا أفندينا ؟.. إنها كتب كبيرة باهظة التكاليف ، وعدد طلاب الطب

محدود ولا يستطيعون شراءها .

وجلس إسماعيل الخديوى يستمع ، والدكتور البقلى باشا يتحدث :

– وفى فرنسا هذه الكتب تنفق عليها الحكومة وتعطيها للطلبة بأثمان رمزية ، وهى تباع داخل الجامعة .. وإذا كان الطالب غير قادر على دفع الثمن تمنح له بالمجان .

وأنا عندما كنت فى البعثة كانت إدارة البعثات تشترى لنا هذه الكتب التى مازلت أحتفظ بها .

كان إسماعيل ينظر من نافذة قصر عابدين ، وهو يستمع إلى هذه الكلمات ، وفجأةً التفت إلى الدكتور البقلى باشا وقال له :

– أنت وزملاؤك تؤلفون الكتب ، وأنا أطبع هذه الكتب فى مطبعة بولاق .

وأصدر الخديوى أمرًا لمدير المطبعة الأميرية فى بولاق بطباعة كل الكتب التى يرسلها إليه الدكتور محمد على البقلى باشا ناظر مدرسة الطب .

ثم بدأت النهضة الطبية فى مصر ، وأصبحت مدرسة الطب مصريةً مائةً فى المائة كما أراد ناظرها العظيم .

أصدر الدكتور البقلى مؤلفاته القيمة :

* روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى – طبع سنة ١٨٤٣ .
* غرر النجاح فى أعمال الجراح – فى جزءين طبع سنة ١٨٤٦ .
* غاية الفلاح فى أعمال الجراح – طبع ١٨٦٥ .

ولم يقف الدكتور البقلى وحده فى الميدان ، بل شاركه زملاؤه أساتذة مدرسة الطب فى التأليف والترجمة ، فكونوا أول مكتبة طبية حديثة باللغة العربية وكان أشهرهم :

الدكتور إبراهيم بك النبراوى وقد ترجم من الفرنسية كتاب (الأربطة الجراحية) و(الفلسفة الطبيعية) من تأليف الدكتور كلوت بك .

* الدكتور أحمد حسن الرشيدى بك ، وله من المؤلفات : عمدة المحتاج لعلمى الأدوية والعلاج – رسالة فى تطعيم الجدرى ترجمها عن الدكتور كلوت بك – الدراسة الأولية فى الجغرافية الطبيعية – .. وكتب أخرى كثيرة بلغت عشرة مؤلفات ، وكان أهمها كتابه (عمدة المحتاج) الذى أصدره فى أربعة مجلدات كبيرة ويعتبر أول دائرة معارف طبية فى اللغة العربية .

* الدكتور محمد الشافعى بك وله كتاب (أحسن الأغراض فى التشخيص ومعالجة الأمراض) طبع فى مجلدين سنة ١٨٤٣ ، وكتاب « السراج الوهاج فى التشخيص والعلاج)

فى أربعة مجلدات — طبع سنة ١٨٦٤ .

وقد اشترك فى حركة الترجمة والتأليف الدكتور محمد الشباسى بك ، والدكتور مصطفى بك السبكى ، والدكتور عيسوى النحراوى ، والدكتور حسين الرشيدى أستاذ الصيدلة ، والدكتور على هيبة أستاذ الولادة وأمراض النساء ، والدكتور حسين عوف باشا أستاذ أمراض العيون وغيرهم كثيرون ، كان لهم الفضل الأول فى تحقيق النجاح لحركة تعريب الطب .

هؤلاء الأطباء العظماء كانوا شركاء الدكتور البقلى فى هذه الحركة الهامة التى تعتبر من أهم حركات النهضة العلمية فى مصر ، ولو أنها انتكست ولم تستمر بعد الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ ، فقد عصف بها الاستعمار ، وأخمد جذوتها ، وجعل اللغة الإنجليزية هى لغة مدرسة الطب المصرية .

ويجب أن ندرك أن هذه المدرسة الطبية نشأت فى البداية فرنسية اللغة عندما أنشأها الدكتور كلوت بك ، ولكنها عربت الطب ، ولم يحدث شىء عندما تمت حركة التعريب ، بل ظلت مدرسة طب قصر العينى أعظم المدارس الطبية فى الشرق ، وكان يلتحق بها طلاب من بلاد الشام فى عصر إسماعيل ، وتخرج فيها كثيرون منهم .

وفى سنة ١٨٦٥ قام الدكتور البقلى باشا بعمل أكثر جراءةً من تأليف الكتب الطبية فى اللغة العربية ، فقد أصدر بالاشتراك مع زميله الدكتور إبراهيم دسوقى بك مجلة اليعسوب ، وكانت أول مجلة طبية تصدر باللغة العربية .

إن نظرات هذا الرجل العظيم وطموحه كانت تتعدى حدود عصره وزمانه .

لو كان فى يدنا إحصاء بعدد المجلات الطبية فى العالم فى سنة ١٨٦٥ أى منذ ١١٦ سنة ، فقد لا تكون أكثر من خمس مجلات فى كل اللغات ، وكان منها مجلة (اليعسوب) التى كانت تصدر فى القاهرة باللغة العربية .

كيف فرت هذه النهضة من أيدينا ؟

لقد سرق الاستبداد والطغيان والاستعمار نهضة مصر الحديثة ، وكانت كلما خطت خطوة إلى الأمام أعادوها خطوتين إلى الوراء .

ولكن الوطن الذى ينجب أمثال هؤلاء العظماء لن يعود إلى الوراء .. وسيمضى لإعادة بناء الحضارة بعون الله .

عبدالله فكرى باشا

أول وزير أعلن حق التعليم فى مصر

ليست هذه هى المرة الأولى التى ألتقى فيها بالوزير عبدالله باشا فكرى ، فقد أثرت بسببه مشكلةً مع أستاذى طه حسين منذ ثلاثين عامًا عندما جلس الدكتور طه حسين باشا على الكرسى الذى كان يجلس عليه عبدالله باشا فكرى وزيرًا للمعارف .

كان طه حسين قد أعلن بصوت يدوى كالرعد أن العلم للناس كالماء والهواء ، وقرر مجانية التعليم حتى المرحلة الثانوية ، واعتقد كثيرون حتى هذه اللحظة أن ما قام به وزير المعارف الدكتور طه حسين باشا كان عملا خارقا للعادة ، وما زلنا نتباهى بمجانية التعليم الجامعى عندنا مما حققته ثورة ٢٣ يوليو .

ومنذ متى كان التعليم فى مصر له أجر ؟

إن أضخم جامعة نشأت فى دار الإسلام وفى قلب القاهرة وهى الجامع الأزهر كانت تأوى طلابها من المجاورين لأعمدة العلم ، وكانت تعطيهم الجراية وهى الطعام الذى كان يجرى عليهم راتبًا يوميًّا فى أرغفة من الخبز يستبدلون ببعضها طعاما رخيصا من الفول والطعمية .

ولم أشك فى أن الدكتور طه حسين كان يعرف هذه الحقيقة منذ كان مجاورا فى الأزهر ، وقد عاش حياة المجاورين بكل قسوتها مما صوره فى كتاب الأيام .

المهم هو أن التعليم فى مصر لم يكن له أجر فى الجامع الأزهر ، وفى بدايات العصر الحديث منذ محمد على حتى حفيده إسماعيل ، كانت الدولة تدفع للتلاميذ مكافآت ورواتب وتنفق على تعليمهم فى مصر وأوربا .

ولم تظهر حكاية مصروفات التعليم إلا بعد الاحتلال البريطانى لمصر الذى حاول وقف حركة النهضة ، ولكنه برغم ذلك لم يستطع منع مجانية التعليم فى الأزهر ومدرسة دار العلوم ومدرسة المعلمين العليا ، وظلت هذه المعاهد العليا تدفع للطلاب جرايات أو رواتب لتشجيعهم على طلب العلم .

وعندما أعلن الدكتور طه حسين مجانية التعليم تذكرت كل هذه الرحلة المشرقة فى حياة

مصر ، وكنت أسمع من شيخى أمين الخولى أن العلم لايؤجر عليه ، وأن أكابر العلماء فى تاريخ الإسلام لم يكونوا يطلبون أجرا على تعليم طلابهم ، لأن العلم للناس كالماء والهواء .. هكذا قال طه حسين .

ولكن مجانية التعليم شيء آخر .

فى عام ١٩٥٠ كتبت مقالا فى جريدة البلاغ كان عنوانه (التعليم بين عبد الله باشا فكرى والدكتور طه حسين باشا) ، وكان طه حسين وزير المعارف الذى زلزل الدنيا بكلمتى : الماء والهواء وقلت إن عبد الله باشا فكرى وزير معارف الثورة العرابية كان أبعد هدفًا لأنه لم يقرر مجانية التعليم فقد كان هذا أمرا متعارفا عليه ، ومفروغًا منه ، ولكنه قرر حق كل مصرى ومصرية فى التعليم العام .. وأن هذه هى قضية مصر .

واليوم .. وبعد ثلاثين عاما ما زالت القضية معلقة لم يصدر فيها حكم لصالح الشعب المصرى الذى بلغ تعداده أكثر من أربعين مليونا غالبيتهم العظمى من الأميين .

لقد غضب طه حسين من مقالى غضبا شديدا ، واعتبره هدما لسياسته التعليمية ، مع أننى كنت أريد شيئا آخر هو أن يصبح التعليم فى مصر من حقوق المواطنة حتى تحدث النهضة الحقيقية ، ولا يهم بعد ذلك أن يكون التعليم الثانوى أو الجامعى بالفلوس . أو بالمجان ، فقد كانت المدارس الثانوية والجامعة فى أيامنا تمنح المجانية لمن يستحقونها ولو أنهم كانوا قلة قليلةً بعضهم فقراء قادرون على التعلم والوصول إلى أقصى درجات العلم ، وبعضهم قادرون نوابغ يرجى منهم الوصول إلى هذه الدرجات العليا فى العلم .

ولكن قضية الصفوة المتعلمة فى المجتمع وبعد مائة سنة من قرار الحل النهائى والجذرى لها الذى اتخذه وزير المعارف عبد الله باشا فكرى عندما قرر حق التعليم للمصريين جميعا ، ليست هى المشكلة التى مازلنا نواجهها حتى اليوم وهذا الحق مجانى وليس له ثمن ولا أجر ولا مصروفات .. وهذه بديهية .

كان تقرير هذا الحق من المبادئ الأساسية للثورة العرابية ، ثم سقط مع سقوط هذه الثورة .

وكان تقرير هذا الحق من المبادئ الأساسية لثورة ١٩١٩ التى قررت التعليم الإلزامى ، وعينت الشيخ عبد العزيز جاويش مديرا لهذا التعليم الذى عصفت به الأهواء ، وذهب أدراج الرياح وسط صراعات الأحزاب والملك والمندوب السامى البريطانى .

رحلة طويلة وشاقة ومثيرة كان بطلها الأول هذا الرجل : عبدالله فكرى .. وكان فيلسوفها الأستاذ الأكبر الإمام الشيخ محمد عبده .

هذا الرجل أصبح قضية القضايا فى الحياة المصرية الحديثة . وهو يستحق الدراسة من ناحية أفكاره التعليمية برغم أنها لم تتحقق ، فإنها تمثل الاتجاه الثورى الحقيقى فى حركة النهضة المصرية الحديثة .

لقد كان عبدالله فكرى - مثل طه حسين - أديبا شهيرا ، وقد تناوله المؤلفون فى الغالب من هذه الناحية ، وقد جمع انتاجه الشعرى والنثرى فى مجلد واحد أشرف عليه ولده أمين باشا فكرى ، ولكننى لا أعرض عليك شخصية الأديب الكبير الذى كان رائد تجديد النثر العربى كما كان محمود سامى البارودى رائد تجديد الشعر . وقد كان فكرى وزير المعارف فى وزارة البارودى وهى وزارة الثورة العرابية ، فهما متعاصران فى الثورة وفى التجديد مما يدعونا إلى التأمل فى حقائق التطور الحديث الذى ارتبط بالأفكار والقيم أكثر من ارتباطه بالأشخاص الذين شاركوا فى صنع النهضة . فإن هذه الشخصيات العظيمة كانت التعبير المجسد عن ملامح التقدم فى مجالات العلم والأدب والفن ، ولا يجوز النظر إلى واحد منهم على أنه ظاهرة فريدة أو وحيدة ، فإن عناصر المشاركة الجماعية هى التى تحدث عوامل النهوض فى المجتمعات .

وأنت ترى كيف كان عبدالله فكرى ، وهو شاعر تقليدى ، يجدد فى أسلوب النثر ، عندما كان محمود سامى البارودى يجدد فى أسلوب الشعر .

لم يستطع فكرى القيام بتجديد الشعر مع أنه نظم ديوانًا كاملاً ، ولكن مواهبه مكنته من كتابة لون جديد من النثر لا تثقله المحسنات البديعية والسجع الممجوج الذى كان سائدًا على أقلام كتاب عصره ، بل إنه كتب رسائل بارعةً باللهجة العامية المصرية تعتبر فى قمة الفن النثرى .

لقد أردت الابتعاد عن تحليل شخصية عبدالله فكرى كاتبا وشاعرا ، حتى لا يصرفنى هذا عن التعريف به كرائد من رواد حركة التعليم فى مصر ، ولكنه أرغمنى على هذا الحديث الموجز عن شخصيته الأدبية ، حتى ندرك معا أن الرجل كانت له قيمة ذاتية ، وأن هذه القيمة هى التى مكنته من فتح الباب الموصد فى وجه الملايين الذين يحتاجون إلى الماء والهواء حاجتهم إلى رغيف الخبز ، بل إن حاجتهم إلى التعليم مازالت حتى هذه اللحظة أهم من الماء والهواء والخبز .

ولكن .. من هو هذا الرجل الذى نتحدث عنه ؟

من المصادفات أن الذى عرفنا بعبد الله فكرى باشا هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، فهو الذى كتب بقلمه تاريخ حياة هذا الرجل العظيم الذى تصدى لتحقيق آمال الأستاذ الإمام وسط لهيب النار فى الثورة العرابية ، وكان كلاهما من رجالها ، ومن مشعلى نورها بنارها .

كان محمد عبده ، فيلسوف الثورة يدعو إلى تحقيق التعليم قبل تحقيق الديمقراطية ، ويقول إن الشعب الجاهل لايستطيع انتخاب مجلس النواب الذى يمثله تمثيلا صحيحا ، وكان عرابى يقول إن إسقاط الطغيان والاستبداد لايتم إلا عن طريق مجلس النواب الذى يمثل الشعب .

وعندما حدث هذا الصدام العنيف بين نظريتين متعارضتين ، كان عبدالله فكرى هو الرجل الذى تصدى لحل المشكلة التى مزقت الثورة فيما بعد وعصفت بها .

لم يكن الوقت مناسبا للبحث عن حلول للمشكلات ، قبل حل المشكلة الأساسية وهى نظام الحكم فى مصر ، ولكنهم جميعًا أغمضوا عيونهم عن ذلك حتى بعد خيانة الخديوى توفيق وأعوانه للثوار وهم فى أوج قوتهم وسيطرتهم ، ولم يكن فيهم مطالب بإعلان الجمهورية غير ضابط صغير اسمه (محمد عبيد) فك أسر عرابى ورفاقه من سجن قصر النيل ، ولم يسمع أحد من الباشوات كلامه ، بل إن عرابى رشح محمود سامى البارودى لرئاسة الجمهورية فلم يقبل واعتذر ، وقال لعرابى إنه هو أحق بذلك ، ورد عليه عرابى ردا ساذجا عندما ذكر البارودى بأن جده كان من سلاطين المماليك فى مصر ، ويمكن أن يصبح ملكا لمصر !!

المهم هو أن عبدالله فكرى كان يسمع كل هذا الكلام ، وكان يخطط لمستقبل التعليم فى مصر .

إن عبدالله فكرى من سلالة أزهرية ، وكان أجداده من علماء الأزهر ، ولكن والده كان مهندسًا ضابطًا فى جيوش محمد على ، وأمه من بلاد المورة ، وقد جاء بها أبوه خلال اشتراكه فى الحروب فى تلك البلاد ، وأخذها معه إلى الحجاز أثناء حروب محمد على هناك ، حيث ولد عبدالله فى مكة .

وكان والد (عبدالله فكرى) واسمه (محمد بليغ) من كبار موظفى الدولة ، فهو باشمهندس الشرقية ، ثم أصبح مهندس الجيزة والبحيرة ، وتوفى عندما كان ولده لم يبلغ الحلم .. ثم بدأت رحلة الفتى الذى كتب اسمه بمعرفة السلطة الحاكمة (عبدالله فكرى) فى الأزهر الشريف .

وأنت ترى معى أن اسمى (محمد بليغ) و(عبدالله فكرى) لا علاقة لهما بالأسرة التى

ينتميان إليها من علماء الأزهر ، فقد كانت هذه الأسماء تمنح للموظفين مع قرار تعيينهم فى وظائفهم فيما يبدو لى ، فهى أسماء مزدوجة لا علاقة لها بالآباء والأجداد ، وكأنها أسماء شهرة .

تعلم الفتى فى الأزهر ، وكان فى نفس الوقت يتقن اللغة التركية وهى التى أهلته لوظيفة فى الديوان ، ويبدو أن سبب ذلك هو أمه التى كانت من بلاد المورة وتتكلم التركية .

المهم هو أنه كان يتقن العربية كأزهرى لم يفارق صحن الجامع حتى بعد توظفه ، وكان يتقن التركية التى يتحدث بها مع أمه المورالية ، وكان هذا النموذج من عارفى اللغتين العربية والتركية مطلوبا فى دولة محمد على وخلفائه ؛ ولذلك وصل عبدالله فكرى إلى المناصب الرفيعة ، غير أن هذه المناصب لم تكن هى السبب فى شهرته ، فقد كانت له مواهب خاصة جعلته أديبا شاعرا كاتبا ، كما أنه كان يتقن اللغة الفارسية أيضًا إلى جانب العربية والتركية .

وفى عهد إسماعيل كان (عبدالله فكرى) مدرسا للأمراء ومنهم ولى العهد (محمد توفيق) وأخوه حسن وحسين وغيرهم من أمراء أسرة محمد على ، وبذلك دخل من باب قصر عابدين ، وأصبح من أقرب المقربين .

ثم أصبح أستاذ الأمراء ومعلمهم واحدا من كبار المعلمين فى عصره ، واشتغل مع على باشا مبارك الذى مازلنا نصفه بأنه أبو التعليم فى مصر ، وسنظل نصفه بهذا الوصف الجميل .

ويبدو أن علاقة عبدالله فكرى كانت وثيقة بعلى مبارك ، وأنه تأثر بأفكاره فى التعليم قبل أن يعرف محمد عبده . فقد كان على مبارك أستاذا عظيما على مستوى فكرى رائع فى تطبيع مناهج التعليم الحديثة فى مصر ، ثم كان محمد عبده فيلسوفًا داعية إلى حق الشعب فى التعليم قبل حقه فى الديمقراطية .

وأصبح عبدالله فكرى وزيرا للمعارف ومسئولا عن التعليم فى مصر خلال لحظة الانطلاق الثورى الملتهب ، يجمع بين مناهج على مبارك وبين فلسفة محمد عبده .

إن هؤلاء الرجال جميعا كانوا فى عصر واحد ، وقد كان على باشا مبارك من المعاصرين لهذه الأحداث التى نتحدث عنها ، وقد حاول القيام بدور حمامة السلام بين أحمد عرابى وبين الخديوى الخائن توفيق فعجز عن ذلك . كما أن عبدالله باشا فكرى كان من المتهمين الذين حوكموا أمام المحكمة العسكرية مع أحمد عرابى ، ولكن المحكمة أصدرت حكما ببراءته لأن دوره كوزير معارف لم يدخل فى نطاق السياسة والحرب ، ورغم ذلك منع عنه معاشه الشهرى

وأرادوا أن يذلوه حتى يتضور جوعا ، فكتب للخديوى الخائن توفيق قصيدته الذائعة التى جعل عنوانها :

(عريضة استعطاف واسترحام لولى الأمر والإنعام) وقال فى استهلال واستعطافه :

كتابى توجه وجهة الساحة الكبرى
وكبر إن وافيت واجتنب الكبرا
وقف خاضعا واستوهب الإذن والتمس
قبولاً ، وقبل سدة الباب لى عشرا
وبلغ لدى الباب الخديوى حاجة
لدى أمل يرجو له البشر والبشرى

أذل الحرص أعناق الرجال ..!!

هذا الأستاذ الجليل الذى كان يجلس أمامه توفيق الأمير قبل أن يصبح خديوى مـ
مقعد الدرس تلميذًا له ، أصبح يقف خاضعًا على باب توفيق يقبل العتبات ويلتمس
حتى يعاد إليه معاشه .. ثم لايؤذن له بالدخول إلا بعد القصيدة .

يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده عن هذه الواقعة ، وكان هو نفسه سجينًا ،
وحكم عليه بالنفى ثلاث سنوات إلى بلاد الشام :

« عقب الثورة سجن (عبدالله فكرى) ضمن من سجن بتهمة الاشتراك فيها مع
العلماء والأمراء (أى الكبراء وليسوا أمراء أسرة محمد على) وغيرهم ، وكان ذلك بـ
وشى به بعض المفسدين ، وقد ثبتت براءته من تهمة الاشتراك فيها بعد التحقيق الذ
من كان مفوضا إليهم أمر هذه الحادثة ، فأفرج عنه وخرج من السجن ، وبقى معاشه ،
والتمس مقابلة الخديوى فلم يسمح له بذلك ، فنظم فى ذلك قصيدة سارت مسرى الأ
الشهرة ، فلما عرضت على الخديوى أجلها ، وأحلها من القبول محلها ، وسمح له بالمـ
يديه ، وأقبل عليه وأطلق معاشه .

ونحن لانلوم عبدالله فكرى على هذا الموقف ، ولكننا نلوم الزمن الذى ألجأه إلى
فقد كان زمنا لعينا .

سارت حياة فكرى باشا بعد ذلك فى طريق العلم بعيدا عن السياسة ، فسافر إلى

لأداء فريضة الحج ، والتقى بعلماء مكة المشرفة والمدينة المنورة ، الذين استقبلوه أعظم استقبال ثم سافر بعد ذلك إلى بلاد الشام وزار بيت المقدس ودمشق وبعلبك ، وكانت له هناك صولات وجولات مع العلماء والأدباء والشعراء .

وقبل نهاية رحلته الترابية عين رئيسًا للوفد العلمي المصرى فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى استكهولم ، وخلال فترة ذهابه وعودته طاف بعدد من عواصم أوربا وشاهد بلاد النمسا وإيطاليا وسويسرا والدانمرك والسويد والنرويج وألمانيا .

الذى يلفت النظر أنه قدم لمؤتمر المستشرقين فى استكهولم بحثا فريدا سماه (عجالة البيان على ديوان حسان) وهذا البحث تحقيق علمى لديوان شاعر الرسول ﷺ (حسان بن ثابت) ، حيث جمع كل ماتيسر له من نسخ مخطوطة لهذا الديوان ، وقارن بينها ، وحقق أصولها ، ثم كتب ترجمة لحياة الشاعر وشرحا لإحدى قصائده . وقد أثار هذا البحث الفريد اهتمام المستشرقين ، واحترام الصحافة والحكومة فأنعم الملك أوسكار الثانى ملك السويد والنرويج عليه بنيشان (وازه) من الدرجة الأولى ، وهذا التقدير من الملك لعالم مصرى يعتبر من أعظم درجات التشريف للعلم والعلماء .

لقد حدثتك عن الرجل .. وبقى أن أحدثك عن الموقف الذى دعانى للعودة إلى الكتابة عن عبدالله باشا فكرى بعد ثلاثين سنة من كتابة مقالى الأول عنه فى جريدة البلاغ ، متحديا به أستاذى طه حسين فى تجربة النهضة التعليمية الحديثة فى مصر .

هذا الموقف منشور بكل تفصيلاته فى جريدة الوقائع المصرية الصادرة فى ٢٨ مارس ١٨٨٢ وقبل أن يضرب الأسطول البريطانى مدينة الإسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨٢ بشهور قلائل .

تصور معى كيف أن مصر كانت تحدد موقفها من التعليم قبل أن يضربها أسطول بريطانيا فى الإسكندرية بثلاثة شهور ، وقد نشرت الوقائع المصرية تفاصيل جلسة مجلس النواب عن مستقبل التعليم فى مصر نشرا كاملا .. وكل كلمة مطبوعة فى الجريدة الرسمية تعتبر شمعة أضاءها هذا الرجل عبدالله فكرى .

كان عبدالسلام المويلحى نائب القاهرة هو الذى تقدم إلى حكومة البارودى باشا بمذكرة عن توسيع دائرة المعارف العمومية فى مصر ، وركز المويلحى على ثلاثة أسئلة :

١ – بيان المدارس الأميرية الموجودة فى مصر حينذاك .

٢ – بيان عن المدارس التى يمكن لوزارة المعارف إنشاؤها فى هذا العام ١٨٨١ – ١٨٨٢ من المندرج فى ميزانيتها .

٣ – بيان ما يمكن تخرجه من مدرسة المعلمين خلال العام وحتى اجتماع مجلس النواب فى السنة القادمة .

ولكن وزير المعارف عبدالله فكرى لم يقدم لمجلس النواب إجابة تقليدية عن الأسئلة المطروحة ولكنه أضاف إلى إجابته وضع سياسة مستقبلية للتعليم فى مصر ، ولم يخرج من قاعة مجلس النواب إلا بعد أن أخذ موافقة المجلس الاجماعية على سياسته التى مزقتها حراب العساكر البريطانية المعتدية على مصر بعد ثلاثة شهور .

قال وزير المعارف منذ مائة سنة : إن الحكومة لاتستطيع بناء المدارس المطلوبة لتعليم أبناء الشعب وبناته ، وقال لأعضاء مجلس النواب فى عام ١٨٨١ :

– إذا أنشأت الحكومة فى السنة أربع مدارس بل خمسًا بل عشرا بل فى كل شهر مدرسة .. لزمكم على تلك الحالة أن تنتظروا لحصول هذا الغرض نحو خمسمائة سنة .

ولم يكن وزير المعارف قد أتى لمجلس النواب متحديا للشعب المصرى ونوابه ، ولكنه جاء بالحل معه وفى أوراقه .

طالب النواب والأعيان والأغنياء بإنشاء المدارس فى بلادهم وقراهم .. وقال لهم :

– إيجاد المدارس على نفقة الأهالى لايكلفهم غير جزء صغير من المصاريف ، فالطوب يضرب فى البلد ويحرق فى البلد ويبنى بمعرفة بنائين وفَعَلَةَ منها ، ولا يخفى ما فى ذلك من قلة النفقات .

ثم قدم الوزير لأعضاء مجلس النواب رسما يشمل تخطيط مدرسة من الدرجة الأولى والثانية والثالثة ، وقال للنواب .

– أعرضه عليكم مثالاً ، وفى الجيزة مدرسة من الدرجة الأولى ، وفى قليوب مدرسة من الثالثة جعلت فى تلك الجهات الواقعة على خط سكة الحديد ليسهل معاينتها وتكون كل منها نموذجًا لنوعه .

وطالب النواب بمشاهدة هذه النماذج ، وقال إنه يمكن بناء مدارس بتكاليف أقل ، ولو بالطوب الأخضر لأن القصد المنفعة وليس الوجاهة .

وقد حل الوزير كل المشكلات حتى تعيين المدرسين ورواتبهم ، وقرر أن يكون المدرس من

أهل القرية مثل خطيب المسجد أو غيره من الأزهريين ، على أن تتحمل الحكومة راتبه وجعل الراتب بين ٢٠٠ قرش و٣٠٠ قرش .

وحدد المواد التى تدرس فى هذه المدارس وهى القرآن والإملاء والمطالعة والحساب وبعض العلوم الطبية .

وقد تدخل فى المناقشة الشواربى بك نائب قليوب فأيد وزير المعارف فى وجوب بث المعارف الابتدائية فى أنحاء القطر ، ولكنه قال إن فن الزراعة لازم جدا لبلادنا ، فوافقه الوزير على ذلك .

أما أحمد أفندى عبد الغفار نائب تلا ، فقد أكد أن سعادة ناظر المعارف أتى على ما فى النية ، طالب بتشكيل لجنة للتنفيذ ، وطالب الوزير بأن يشرف اللجنة بالحضور فى بعض لأحيان وقال عبدالله فكرى إنه يشرفه حضور اللجنة .. وأعلن على مسمع من النواب :

– إن حضورى إلى اللجنة لا أتأخر عنه البتة وما عليها إلا أن تعين لى الأوقات التى تلائمها والبيانات التى تحتاج إليها ، فأحضر فى الأوقات المعينة مع البيانات اللازمة .

. . . . . .

وفى جلسة يوم السبت ٢٠ ابريل ١٨٨٢ قرر مجلس النواب المصرى هذا القرار الهام والخطير :

« إن الحالة التى وصلت إليها البلاد بهمة ذوى النجدة والغيرة من أبنائها (أحمد عرابى وأصحابه من الثوار) تستدعى الاجتهاد فى تعميم التعليم وتسهيل طرقه فقررت أن يقوم كل واحد من النواب بإنشاء مكتب (مدرسة) من الدرجة الثالثة فى بلدة تُعلم فيه القراءة والكتابة وطرف من الحساب والفقه والنحو بدون أن تتكلف الحكومة بشىء من النفقات سوى أن تتنازل عن الموضع الذى تبنى فيه من البراح الباقى تحت ملكها . أما الذين يعهد إليهم فى تلك المكاتب (المدارس) فيؤخذون بواسطة نظارة المعارف من الجامع الأزهر وعلى النظارة ترشيحهم للقيام بهذه الوظائف كما سبق ذلك فى خطبة ناظر المعارف أمام هيئة المجلس وكما أقرت عليه اللجنة أيضا .

وطالب على بك القريعى نائب المنصورة بطبع رسومات المدارس وتقديم نسخة لكل عضو لتنفيذها .

(استحسان) .. ثم فضت الجلسة فى الساعة العاشرة مساءً .

. . . . . .

كان عبد الله فكرى هو بطل هذا الموقف .. وكان هو أول من أعلن حق التعليم فى مصر منذ مائة عام .

من حق هذا الرجل العظيم أن ننحنى تحية لأفكاره الرائدة التى مازلنا فى حاجة إلى من ينفذها لينقذ مصر من الأمية الطاحنة .

محمود فهمى .. المهندس

من أساطين العسكرية المصرية

فى حرب أكتوبر ١٩٥٦ عندما وقع العدوان الثلاثى على مصر ، نفذت العسكرية المصرية خطة اللواء محمود فهمى باشا المهندس ، التى عجز عن تنفيذها فى يوليو ١٨٨٢ . فدخلت بوارج الأسطول البريطانى من بورسعيد ووصلت إلى الإسماعيلية ، كما اقتحمت قطع بحرية بريطانية مياه السويس . وأصبح جيش عرابى فى التل الكبير تحت نيران المدافع الإنجليزية ، ثم وقعت هزيمة التل الكبير ، واحتلت بريطانيا مصر.

ولكن القيادة العسكرية المصرية التى تعلمت هذا الدرس ، سدت منافذ قناة السويس فى الشمال والجنوب عام ١٩٥٦ ، فعجزت الجيوش البريطانية الفرنسية عن الوصول إلى الإسماعيلية واعترف بذلك قادة هذه الجيوش بل إنهم قالوا إن قواتهم لو خرجت من بورسعيد وتقدمت خطوةً واحدةً على الشريط الضيق الممتد إلى الإسماعيلية فإن المصريين سيقضون عليها قضاءً مبرمًا ، بعد أن يقطعوا عنها المدد من الأساطيل الرابضة فى مياه بورسعيد.

هذه الخطة رسمها هذا المهندس العسكرى محمود فهمى باشا ، أحد زعماء الثورة العرابية وأحد قادتها المرموقين ، وهو واحد من الباشوات السبعة المحكوم عليهم بالإعدام بعد هزيمة التل الكبير ، ثم خفف الحكم عليهم بالنفى إلى جزيرة سيلان ، وقد توفى فى منفاه فى شهر ذى الحجة سنة ١٣١١ هجرية .

إن اللواء محمود فهمى باشا من الشخصيات القادرة فى التاريخ المصرى الحديث برغم أنه لم يستطع تنفيذ خططه العسكرية كاملة عندما كان مسئولا عن الاستحكامات فى جيش عرابى . بعد أن ضرب الأسطول البريطانى مدينة الإسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨١ . ثم احتلتها العساكر الإنجليزية ، ظل محمود فهمى فى المدينة التى خلت من سكانها حتى يوم الجمعة ١٤ يوليو .. وهو يحدثك بنفسه عن مشاهداته :

«كنت أنا فى ذلك الوقت موجودا فى الإسكندرية ، ولا أحد فيها ، وحاراتها مرممة بالقتلى خراب ينعق فيها البوم والغراب ، ورأيت الخديوى (توفيق) وحرمه وأتباعه يتوجهون إلى رأس

التين وخلفه عساكر الإنجليز محافظين عليه ولم أر أحدًا خلاف سعد أبو جبل وكان قائمقام أورطة المستحفظين . فقال لى : إن لم تذهب من هنا حالاً صرت قتيل الخديوى فى هذه الليلة ، فاتبع نصيحتى واخرج من الإسكندرية .

فخرجت مسرعًا حتى وصلت إلى كفر الدوار ، وتقابلت مع عرابى ، وقلت له

– إن الخديوى توجه إلى رأس التين تحت خفارة الإنجليز .

فقال لى :

– إن قطر السكة الحديد مستعد له عند محطة الشيخ جابر ، ليركب فيه ويعود إلى القاهرة .

فقلت له :

– هذا ما رأيت .. لقد لجأ الخديوى إلى الإنجليز .

ومن هذا الوقت ألزمت نفسى بالأعمال والأشغال اللازمة للتحفظ ، وإلا فأنا ميت ميت ، وكل يعمل حسب ما هو مسخر له ، فأشرت على عرابى بإشغال ما يوافق إجراءه من عمل المتاريس والتحصينات بجهة كفر الدوار ، فأرسل عرابى وجلب فلاحى المديريات المجاورة لكفر الدوار ، وباشرت أشغال التحصينات ، وخططتها . وباشرت أعمالها ، وركبت مدافعها ، ونظمت مزاغلها ، حتى جاءت محكمة التحصين من شاطئ ترعة المحمودية إلى شواطئ بحيرة مريوط ، وكانت على ثلاثة خطوط من خطوط المدافعة القوية . بحيث لا يمكن التغلب عليها ، ولا الوصول إليها ، وسددت ترعة المحمودية ، ومنعت المياه العذبة عن الإسكندرية . ورتبت على السد الطوابى بالمدافع ، حتى صار لا قدرة لعساكر الإنجليز على القرب منها ولا الوصول إليها » .

هذا هو الموقف الأول لهذا الرجل العسكرى النادر ، وقد عجز جيش الغزاة الإنجليز عن الاقتراب من كفر الدوار . وعُزلوا مع الخديوى توفيق داخل الإسكندرية التى خلَت من سكانها ، ومنعت عنها المياه العذبة ، وأصبح من المستحيل تقدم الجيش البريطانى إلى القاهرة .

ثم اتجه بصر اللواء محمود فهمى باشا المهندس إلى الشرق .. إلى قناة السويس ، وطلب من عرابى باشا ردم القناة حتى لاتدخلها عساكر الإنجليز .

وهذا هو الموقف الثانى الذى لم يتحقق .

كتب محمود فهمى باشا فى مذكراته :

« قال لى عرابى » .

– الآن يقتضى مناظرة سعادتكم المواقع العسكرية ، وترتيب العساكر اللازمة للمحافظة عليها .

فركبت وابورًا مخصوصًا على السكة الحديد ، وتوجهت إلى رأس الوادى والإسماعيلية لحد السويس ، وكان عرابى قبل ذلك أرسل لوكيل الجهادية بترتيب آلاى تحت قيادة محمد عبيد ، وإرساله إلى جهة رأس الوادى ، وأمر بوضع أورطة منه فى محطة نفيشة بجوار الإسماعيلية لأجل المحافظة عليها ، ولما قربت أنا من السويس وجدت محافظها هرب منها ، وانحاز وكيلها إلى المراكب الإنجليزية . واحتلتها العساكر الإنجليزية ونشروا فيها إعلانات بأنهم يحاربون من أجل سلطة الخديوى توفيق باشا كل من لم يكن منقادًا لأوامره ، وكذا محافظ بورسعيد وقنال السويس ترك وظيفته وانحاز إلى الأسطول البريطانى ، واحتلت عساكر الإنجليز بورسعيد ، وتقابلت فى الإسماعيلية مع الموسيو ديليسبس ، وأخبرته بحال القنال ، فقال :

– القنال فى عهدتى ، ولا يمكن لأى وابور أو سفينة حربية المرور من للقنال حسب نص المعاهدات الدولية ، وإن لاحظت أن أحد الوابورات الحربية حضر وأراد المرور من القال ، يلزمنى فى هذا الوقت سده بتفريق بعض الشلوبات فيه ومنع المراكب الحربية من المرور فيه ، ولا يخشى عرابى من جهة القنال مطلقا » .

ثم روى محمود فهمى قصة الاستعدادات الحربية على الجهة الشرقية ، بعد أن عجز الإنجليز عن اقتحام استحكامات كفر الدوار ، ودارت معارك بين طلائع القوات البريطانية وبين الجيش المصرى بقيادة الفريق راشد باشا حسنى . وقام اللواء محمود فهمى بسد ترعة الإسماعيلية حتى لاتصل المياه العذبة إلى القوات الغازية .

ولكن الذى حدث فى الجبهة الشرقية قبل هزيمة التل الكبير كان مذهلا .

يقول محمود فهمى باشا :

* وردت قطارات السكة الحديد بجهة المسخوطة مشحونةً بالأنفار الفلاحين نحوا من ٤٠٠٠ نفر لأجل سد القناة وعمل الاستحكامات اللازمة .

* حضر الفريق راشد باشا حسنى بأورطتين واحدة من آلاى (على يوسف) وأخرى من آلاى (عبدالقادر عبدالصمد) وبطريتين طوبجية كروب ، وأخريين مدافع جبلى ، وهرب

(على يوسف) وتوجه إلى رأس الوادى ، وشرعت أنا فى عمل الاستحكامات ، وسددت ترعة الإسماعيلية من عند المسخوطة سدا محكمًا ، وخرجت العساكر الإنجليزية من الإسماعيلية ، واستمر راشد باشا حسنى معهم فى محاربة طول النهار بنيران الطوبجية فقط .

. . . . . .

هذا الموقف العسكرى للواء محمود فهمى باشا يحتاج إلى دراسة مستفيضة ، وقد انهزم الفريق راشد باشا حسنى بعد أن فر عنه عساكره الذين حرضهم (على يوسف) الخائن على عدم القتال ، ثم هرب هو نفسه ، كما أن الأربعة آلاف فلاح الذين أرسلهم عرابى لسد قناة السويس تبعثروا فى الصحراء .

وبقى اللواء محمود فهمى باشا وحده .. وهو يقول فى مذكراته :

« وفضلت أنا واقفًا فى الموقع وحدى مع خدامى ، ولا أعلم أين أتوجه ، وبينما أنا فى هذه الحالة إذ أحاط بى عساكر السوارى الإنجليز » .

وكان رئيس أركان حرب الجيش العرابى أول أسير يقع فى قبضة الإنجليز .

وكانت هذه هى مقدمات هزيمة الجيش العرابى فى معركة التل الكبير ، التى لم تطلق فيها رصاصة واحدة من جيش مصر .

لقد انتهى محمود فهمى المهندس عندما وقع فى أسر القوات البريطانية عند صحراء الإسماعيلية وانتهت معه الثورة العرابية كلها وقائدها أحمد عرابى . وسبب ذلك هو أن هذا الرجل كان العقل العسكرى للثورة ، وكان يملك قدرات باهرة فى فنون التكتيك العسكرى . وقد وضحت لك خططه العسكرية كما كتبها بنفسه .

لقد تأخر تنفيذ خطته فى سد قناة السويس ، لأن عرابى صدق كلام المسيو ديليسبس ، بل إن محمود فهمى نفسه قابل ديليسبس كما ذكرت لك ، وسمع رأيه ، ولو أن هذا الفرنسى المغامر الكاذب عند كلمته لاستطاع منع السفن الحربية البريطانية من دخول قناة السويس ، لو أغرق كراكةً واحدةً عند مدخل القناة فى الشمال وكراكة عند مدخلها الجنوبى .

بعد كل هذا أنا لم أقل لك : من هو اللواء محمود فهمى باشا .. المهندس ؟

والحقيقة أن مواقف هذا الرجل أسرتنى ومازالت تأسرنى ، فكان اهتمامى بمواقفه أهم من اهتمامى بتاريخ حياته ، وهو شخصية مثقفة تعرف قيمة العلم فى الحياة ، ومن أمثال هذه الشخصيات يجب أن نتعلم .

بسبب هزيمته عندما عجز عن سد قناة السويس فى سنة ١٨٨٢ ، تعلمنا فى سنة ١٩٥٦ كيف نسد منافذ قناة السويس فى وجه الأساطيل الغازية ، وكان هو المهندس العسكرى صاحب الفضل فى هذا التكتيك الحربى ، ولذلك فإن التاريخ الحضارى لمصر يصبح أحيانًا بعض المواقف العظيمة لأمثال هؤلاء العظماء من أبناء مصر.

ومهما كانت الأخطاء ، ومهما كانت المهاترات أو الخصومات والادعاءات ، فإن شيئًا واحدايبقى دائما فى ضميرنا ومشاعرنا وعقولنا وقلوبنا وهو مصر. وقيمتها الحضارية التى يمثلها رجال عظماء من أمثال محمود فهمى باشا المهندس .

كان محمود فهمى باشا المهندس أحب أحباب عرابى قبل الهزيمة .. ثم أصبح أعدى أعدائه حتى فى المنفى بعد الهزيمة .. وكان يبتعد عن زعيمه ، ويشنع عليه ، ويوجه إليه اتهامات تافهة ، بل إنه كان يعارضه ويعارض كل زعماء الثورة العرابية من رفاقه فى السلاح ، وعندما قرر الأطباء الإنجليز أن جو جزيرة سيلان يضر بصحتهم جميعًا ، كان هو الوحيد الذى قال إن جو هذه الجزيرة يناسبه ولا يضر بصحته ، حتى مات هناك فى منفاه بسبب عناده ، والأعمار بيد الله ولكل أجل كتاب .. ولا اعتراض .

لقد رمى محمود فهمى باشا المهندس زعيمه أحمد عرابى باشا بكل النقائض بعد سقوط الثورة العرابية ، مع أنه اعترف فى مذكراته الشخصية بمدى الاحترام الذى كان زعيم الثورة يقدمه إليه ، حتى أنه كان لايتحدث إليه إلا بلقب : سعادتك. وهو لقب الباشوية .

بل إن عرابى باشا كان يمنحه كل الإمكانات والتسهيلات لتحقيق أهدافه العسكرية ، مما يدل على تقدير زعيم الثورة لواحد من أهم زعمائها العلماء المثقفين .

وفى اللحظات الأخيرة مع خداع ديليسبس الذى كان من أخطر أسباب سقوط الثورة العرابية ، أرسل عرابى باشا أربعة آلاف نفر فى قطارات السكك الحديد لسد قناة السويس إلى اللواء محمود فهمى باشا الذى كان قد قابل ديليسبس من قبل ، وخدع بأقواله قبل أن يخدع عرابى باشا .

والسؤال الحائر الذى يحيرنى هو :

— من كان سبب سقوط الثورة العرابية ؟

لقد وجه اللواء محمود فهمى المهندس الاتهام إلى زعيمه القائد أحمد عرابى ، ولكنه فى مذكراته لاينفى عن نفسه تهمة الاشتراك فى أسباب هزيمة التل الكبير التى أدت إلى الاحتلال

البريطانى لمصر. بل إن محمود فهمى المهندس كان هو الضابط العظيم الذى قابل فرديناند ديليسبس ، وتحدث عن اقتحام السفن الحربية للأسطول البريطانى لقناة السويس .

ولكننا بعد مائة سنة من الثورة العرابية لانتحدث عن الاتهامات ، فقد كانت لها فى وقتها وفى أعقاب الاحتلال البريطانى لمصر ظروف نفسية خاصة ، لم تترك الفرصة للدارسين والباحثين والمؤرخين لمحاولة معرفة الحقائق .. وويل للمهزوم . وعندنا فى مصر مثل يقول :

– إذا وقعت البقرة كثرت سكاكينها .

وقد وضح اللواء محمود فهمى رئيس أركان حرب القوات العرابية ظروف الهزيمة قبل أن تصل قوات الجيش البريطانى إلى التل الكبير ، وكان قد وقع فى الأسر قبل المعركة المباغتة التى لم تدر رحاها ، ويمكن تلخيص ذلك فى نقطتين :

* تأخر اللواء محمود فهمى فى سدّ قناة السويس ، فقد وصل الأربعة آلاف نفر الذين بعث بهم عرابى للقيام بهذه المهمة بعد أن وصلت طلائع المراكب الحربية الإنجليزية إلى الإسماعيلية بعد أن سيطرت على بورسعيد شمالاً والسويس جنوبًا . وقد حدث هذا التأخير بسبب خداع ديليسبس ، لا بسبب جهل عرابى أو اللواء أركان حرب محمود فهمى المهندس ، كما زعم المرجفون الذين هاجموا أحمد عرابى وثورته .

* وجود بعض الضباط المتمصرين من الخونة فى صفوف الجيش العرابى وعلى رأسهم (على يوسف) الذى تنبه له اللواء محمود فهمى المهندس ، وقال فى مذكراته إنه هرب من صفوف الجيش ، ولولا أسر اللواء محمود فهمى ما استطاع هذا الخائن القيام بدوره الخسيس .

لقد شغلتنا مواقف اللواء محمود فهمى المهندس وشخصيته عن التعرف على تاريخ حياته ونشأته لأن هذا الرجل بالذات يمثل الفكر العسكرى للثورة العرابية ، وهو الذى وضع خطط الدفاع عن مصر فى وجه الغزو البريطانى ، وقد نجحت استحكاماته فى كفر الدوار كما قلت لك فى صد الغزاة ، ولو أنه أتم خطته فى قناة السويس لتغير وجه التاريخ ، ولكن هذا العمل لم يتم بسبب التوانى والتأخير فى تنفيذ الخطة العسكرية المرسومة مما أدى إلى الهزيمة .

ولعلك تريد التعرف على هذه الشخصية المصرية النادرة بعد أن عرفت بعض مواقفها . وأحب أن أقول لك إن الهزيمة فى المعارك الحربية لاتسقط شخصيات القادة ؛ فقد انهزم بونابرت فى معركة ووترلو .. وانهزم روميل فى معركة العلمين .. والشعوب القادرة تدرس أسباب هذه الهزائم حتى لاتتكرر ، وهذا هو ما حدث فى سنة ١٩٥٦ عندما تعرضت مصر

للعدوان الثلاثى فاستفادت من هزيمة عرابى فى التل الكبير ، ونفذت خطة محمود فهمى فى سد قناة السويس كما ذكرت لك .

ولكن من هو محمود فهمى ؟

فلاح عظيم من إحدى قرى بنى سويف .. يقول إن والده كان يملك بعضًا من الأطيان ، وإنه من عائلة فقيرة ، وقد تم اختياره عندما كان صبيا ليتعلم فى مدرسة بوشى التى أنشئت مع غيرها من المدارس فى عهد محمد على ، وكانوا يختارون من كل قرية ولدا واحدا ذكيا من بنيها ليتعلم فى هذه المدرسة ، وكان عمره خمس سنوات .

وكان اختيار هؤلاء الأولاد الصغار يتم بدقة بالغة ، ولعله من التواضع أن يقول إنه من عائلة فقيرة مع أن والده كان من أصحاب الأطيان ، ثم انتقل إلى القاهرة وتعلم فى المدرسة التجهيزية التى كان مقرها مع مدرسة الألسن فى قصر الألفى بالأزبكية ، ثم ألحق بمدرسة المهندسخانة فى بولاق ، وتخرج فيها . وعين مدرسًا بالمدرسة الحربية الهندسية لعلم الاستحكامات والفنون العسكرية . واستمر يعمل بالتدريس فى المدارس العسكرية المختلفة ، وتخصص فى علم الاستحكامات العسكرية . حتى عين باشمهندس القلاع شاطئ البحر الأبيض المتوسط فى « أبو قير » إلى رشيد إلى البرلس ، وأنشأ سبع عشرة قلعة .

وظل محمود فهمى الذى حمل لقب المهندس يعمل فى الجيش ، فكان أركان حرب الفرقة المصرية فى حروب العرب والجبل الأسود .

وبعد هذه الحرب تقلد الوظائف الرفيعة ، فكان وكيل محافظة القاهرة ، وباشمهندس عموم الاستحكامات المصرية ، ثم وزيرا للأشغال فى وزارة الثورة العرابية التى تولاها محمود سامى البارودى .

وخلال الحرب العرابية ظل محمود فهمى باشا باشمهندس الاستحكامات العسكرية وكان هو المهندس العسكرى الوحيد بين قواد الجيش العرابى ، كما كان المسئول الأول عن الخطط والتكتيك العسكرى كما قلت لك فى البداية . وقد وضع الخطط المحكمة التى تدل على قدراته الظاهرة والباهرة فى هذا الفن .

وعندما حدثت الهزيمة ، وسقطت الثورة العرابية ، كان أشد زعمائها حزنًا وأسى ، لأنه كان المهندس الذى رسم وخطط وعرف أنه يستطيع بخططه رد الغزاة ، ثم تبدد ذلك كله فى لحظة

واحدة ، ووجد نفسه وحيدًا على صهوة جواده وسط الصحراء ، ومن حوله عساكر الفرسان الإنجليز يقودونه إلى الأسر .

إن مذكرات محمود فهمى المهندس عن الثورة العرابية من أخطر المذكرات التى كتبت عن هذه الحقبة من تاريخ مصر ، وقد كتبت لك ملامحها الأساسية التى تعتبر وثيقة عسكريةً هامة ، أكثر من اعتبارها وثيقة من وثائق التاريخ ، لأن أحداث الثورة العرابية ذاتها كتبت مرات عديدة ، ومازال بعض الكتّاب يتناولونها بالدراسة والبحث من كافة نواحيها ، ولكن الناحية العسكرية لم يتحدث عنها إلا هذا المهندس الفذ صاحب خطة الحرب التى نفذ نصفها ، ثم شاءت الأقدار ألا ينفذ النصف الآخر .. وكان على وشك تنفيذها .. قاب قوسين أو أدنى .

تلك إرادة الله .. ولا راد لقضائه .

قاسم أمين

ممن غيّروا حياتنا

أهم ما يعرفه المعاصرون عن قاسم أمين أنه صاحب دعوة تحرير المرأة . ونحن كلما تذكرنا تطور المرأة المصرية المعاصرة . ذكرنا اسم هذا المصرى العظيم المقدام ، وقد نذكر معه اسم صديقه الجليل الإمام محمد عبده الذى وقفت ضدّه قوى الرجعية لأنه استقبل امرأةً فرنسيةً سافرةً فى أحد أروقة الأزهر الشريف .

ولم تكن مشكلة المرأة هى المشكلة الوحيدة التى عانى منها المجتمع المصرى فى عصر قاسم أمين ، فقد تعرضت مصر كلها لحملة شرسة بعد سقوط الثورة العرابية واحتلال الإنجليز لمصر عام ١٨٨٢ ، ووجهت إلى المصريين اتهامات كثيرة ، كان الهدف منها إضعاف روحهم المعنوية ، وإخضاعهم لسيطرة الاحتلال .

وكان قاسم أمين يعرف حقائق المناقشة التاريخية الكبرى التى دارت فى باريس خلال شهر مارس ١٨٨٣ بين جمال الدين الأفغانى وبين المفكر الفرنسى أرنست رينان الذى كان يعمل فى ذلك الوقت مستشارا لوزارة المستعمرات الفرنسية .

لقد ادعى رينان أن الإسلام سبب تخلف الشرق ، فتصدى له الأفغانى وأفحمه ، حتى اضطر المفكر الفرنسى إلى الاعتراف بجمال الدين ، وقال إنه رأى فيه مثيلاً لابن رشد .

ولكن الحملة لم تتوقف . ولكنها بدأت تتجه إلى مصر التى وقعت فى براثن الاحتلال ، باعتبارها عصب العالم الشرقى والإسلامى ، والقادرة على مواجهة الغزو فى كل عصر . فهى التى ردّت الغزو التتارى والغزو الصليبى ، وهى التى ردّت حملة بونابرت عن الشرق ، وهى التى كسرت جيش فريزر البريطانى فى حوارى رشيد .

وكان الذى تزعم الحملة الجديدة ضد المصريين رجل فرنسى اسمه (الدوق هاركور) أحد قضاة المحاكم المختلطة . وقد أصدر كتابا كان استمرارًا لحملة منظمة ضد مصر التى اتجهت نحو أوربا تطلب منها العون فى قضيتها ضد بريطانيا ، فاتخذت بريطانيا من أجهزة الإعلام المعروفة فى ذلك الوقت سلاحًا تحارب به المصريين وترميهم بالتهم الباطلة ، حتى تتبدد قضية الجلاء

وسط الزوابع المثارة على صفحات الجرائد أو الكتب .

ولكن بعض أحرار الفرنسيين تصدوا للحملة البريطانية ، ومنهم المسيو بوكار الذى أصدر كتابًا تحت عنوان (حورس) دفاعًا عن عراقة مصر وحضارتها ، وجعل شعاره (جلاء — استقلال — حياد) .

حدث ذلك عام ١٨٩٤ ، وهو من الأعوام الخطيرة فى حياة مصر ، فقد وقع خلاله حادثان خطيران ، أولها حادث الحدود الشهير ، عندما كان عباس حلمى الخديوى يستعرض القوات المصرية فى الصعيد ، وحين وصل إلى وادى حلفا أبدى ملاحظة على حالة الجند ، وقال على ملأ فى الناس :

— إن هؤلاء الجنود فى حالة تدعو إلى الخجل .

وثار لورد كتشنر باشا سردار الجيش المصرى . وغضب لورد كرومر المعتمد البريطانى فى القاهرة ، وطلب من عباس أن يقدم اعتذارًا قبل عودته إلى العاصمة . وفى محطة الفيوم فى يوم ٢٦ يناير ١٨٩٤ كتب الخديوى برقية الاعتذار وأرسلها إلى كتشنر .

أما الحادث الثانى فكان قضية الاتجار فى الرقيق ، فقد ضبط على شريف باشا رئيس مجلس شورى القوانين ، ومحمد الشواربى باشا ، والدكتور عبدالحميد الشافعى وحسين واصف باشا ، عندما اشتروا عددًا من الرقيق ؛ وألقى القبض عليهم فيما عدا الشواربى الذى فر إلى قليوب . ثم ادعى شريف باشا أنه من رعاية إيطاليا وحضر القنصل الإيطالى وأفرج عنه . وعقدت محكمة عسكرية لمحاكمة المتهمين ، وأصدرت ضدهم احكامًا بالحبس لمدد متفاوتة ، ثم صدر عنهم عفو بعد ذلك . ولكن الحادثة سببت ثورة شديدةً فى الرأى العام المصرى ، وكان لها صدى فى الرأى العام الأوربى .

فى هذا الجو المثير أصدر (الدوق هاركور) كتابه عن المصريين فتصدى له قاسم أمين ، وأصدر كتابا تحت عنوان (المصريون) . وكان ذلك فى عام ١٨٩٤ .

وهذا الكتاب لم يلتفت إليه الدارسون لقاسم أمين ، رغم أهميته الكبرى فى بيان وجهات نظر هذا المفكر المصرى الذى رأى من واجبه أن يبين حقيقة شعبه فى جرأة نادرة ، فقط أصدر كتابه باللغة الفرنسية ، وكتب على غلافه أنه من تأليف قاسم أمين المستشار بمحكمة استئناف القاهرة ، وبذلك تحمل وحده مسئولية كل حرف فى كتابه .

وحين نستعرض هذا الكتاب النادر الذى صور المصريين على حقيقتهم فى تلك الفترة ،

سنجد أنفسنا مضطرين إلى الوقوف عند قضايا أساسية تعرض لها قاسم أمين ، وسنترك بعض القضايا التى حلها الزمن ولم يعد لها وجود فى المجتمع المصرى اليوم .

وأحب أن أقول للقارئ إننى سأترك عامدًا الفصول التى كتبها قاسم أمين عن المصرى وعن المجتمع المصرى فقد تعمد (الدوق هاركور) أن يتحدث عن المسلمين والأقباط ورده قاسم أمين إلى صوابه ، وكانت هذه إحدى ألاعيب الاستعمار البريطانى فى مصر عندما أراد تفريق عنصرى الأمة حتى يفتت وحدتها .

وسنترك أيضًا الفصل الذى كتبه المؤلف عن (الرق) رغم طرافته فقد انتهت هذه القضية من مجتمعنا ، وقد أثيرت فى ذلك الوقت بصورة تلفت النظر .

ولابد لنا من اجتياز الفصول التى كتبها قاسم أمين عن المرأة وعن الطلاق وعن الحب وعن الدين لأن مجتمعنا اجتاز خلال تطوره كل العقد التى كانت متحكمةً فى تصرفات الناس تحت ضغط الجمود الفكرى المتزمت الذى لفت نظر الرجل الأوربى ورأى فى العلاقات الشخصية بين الرجل والمرأة ما يباين مظاهر الحضارة الأوربية ، فحاول أن يرد ذلك إلى الدين ، ولم يدرك أن الإسلام لم يحكم على المرأة بالاستعباد ، ولم يبح للرجل حرية الطلاق إلا بشروط هى أفضل على كل حال من القيود التى يلتزم بها الأوربى ثم يبيح لنفسه تعدد النساء بطرق غير مشروعة .

لقد رفع الحجاب عن المرأة المصرية . وأصبح الزواج فى بلادنا غير مقيد بالقيود الاجتماعية التى كانت سائدة فى العصر الذى كتب فيه (الدوق هاركور) وغيره من الأوربيين اعتراضاتهم على النظام الشرقى فى تعرف الفتى بالفتاة واقترانهما أو طلاقهما .

وهذه الفصول ليست جديدة فى فكرة قاسم أمين ، بل هى امتداد لأفكاره عن تحرير المرأة مما يعرفه جمهرة الناس .

ولذلك فإننى أوثر الحديث عن الجديد فى فكر قاسم أمين من ناحية بناء المجتمع المصرى وتركيبه .

وأول لمحة تلفت النظر هى حديث قاسم أمين عن الروح العسكرية عند المصريين ، فقد اتهمهم (الدوق هاركور) بأنهم لم يمارسوا الحرب أجيالاً طويلةً ، وأنهم فقدوا الخصائص العسكرية .

وتصدى له قاسم أمين فتحدث عن حملة بونابرت وهزيمة جيش المماليك أمام جيشه ،

وتساءل : من الذى وقف ضد الغزو الفرنسي ؟ وقال فى ألفاظ شاعرية ، إن حب الوطن دفع المصريين دفعًا إلى محاربة جيش بونابرت حتى أرغم على الخروج من مصر.

ثم تحدث عن جيش الفلاحين فى عصر محمد على ، وكيف استولى على غزة ويافا وعكا ودمشق ووصل إلى قونية ، حتى وقعت موقعة (نزيب) التى تعتبر صفحةً ناصعةً من صفحات الجيش المصرى الذى هزم الجيش التركى . وأصبحت قوات مصر على أبواب قسطنطينية .

ووقف قاسم أمين عند كلمة قالها (الدوق هاركور) عن جيش عرابى حين وصفه بأنه لم يكن جادا فى الحرب مما سهل انتصار الجيش البريطانى عليه فى موقعة التل الكبير.

ورد قاسم أمين على الدوق قائلا إن العالم كله يعلم – فيما عدا الدوق هاركور – أن أسباب هزيمة الجيش العرابى كانت بسبب انقسام رؤساء الجند إلى طائفتين إحداهما تمنح الولاء لعرابى والأخرى تمنح الولاء للخديوى توفيق . ثم صدر بعد ذلك إعلان من السلطان العثمانى باعتبار عرابى مِن العصاة .

ثم قال قاسم أمين :

« فلنترك عرابى وجنوده ، ولنجب على سؤال أهم وأعلى قيمة .

هل كان الجنود الذين حاربوا فى عصر محمد على تنقصهم الكفاءة العسكرية ، والتعليم الحربى ، والشجاعة والبسالة ؟

وهل كان الجنود الذين حاربوا عام ١٨٧٧ تحت علم الخلافة العثمانية فى قلب روسيا تنقصهم الشجاعة والبسالة أم كانوا أكثر شجاعة من الترك أنفسهم ؟ » .

والتقط قاسم أمين من تصريحات قواد الإنجليز فى حرب استرداد السودان ما يثبت نظريته فى العسكرية المصرية ، ومن هذه التصريحات :

١ – صرح الجنرال جراهام فى ٣ مارس ١٨٨٥ أن معركة طوكر أكدت شجاعة وبسالة المصريين ، وأشاد بشجاعة البكباشى مختار.

٢ – أشاد الجنرال « ولسلى » فى ١٧ مارس ١٨٨٥ بشجاعة الفرسان المصريين ونشر بيانه فى الجريدة العسكرية .

وقد جمع قاسم أمين عددًا من هذه التصريحات ونشر نصوصها تأكيدًا لقدرة الجندى المصرى ، التى اعترف بها كبار الضباط الإنجليز الذين كانوا يحتلون مصر.

وفى فصل عن الحكومة التى اتهمها الدوق بالفوضى ، تحدث قاسم أمين عن وطنه فى

شجاعة نادرة ، فذكر أسباب قيام الثورة العرابية التي كانت فى جوهرها مطلبا شعبيا من أجل تحقيق الحكم الديمقراطى . ويجب أن نذكر هنا أن حاكم مصر كان عباس حلمى بن توفيق الخديوى الذى تصدى له عرابى ، وصارعه من أجل حقوق الشعب .

ثم شرح المؤلف الأعمال الحضارية الضخمة التى قام بها المصريون خاصةً فى أعمال الرى . وذكر أن مصر كانت من أوائل دول العالم التى استخدمت السكك الحديدية والتلغراف والبريد الحديث . ثم تحدث عن المحاكم المصرية التى لاتقل عن محاكم أية دولة أوربية من ناحية احترام القانون ، وسيطرة العدالة .

وذكر قاسم أمين للدوق أحوال فرنسا ، وكيف كان الملك لويس الرابع عشر يفخر قائلا إنه هو الدولة ، وإن ماعاناه الفلاحون الفرنسيون فى حكمه كان أشد هولاً مما عاناه الفلاحون المصريون فى حكم إسماعيل ، ثم تبدل نظام الحكم فى فرنسا ولم يقل أحد إن حكومة فرنسا تسودها الفوضى على الإطلاق .

وفى فصل هام عن الإسلام والتعليم رد قاسم أمين على مزاعم الدوق هاركور الذى ادعى أن الإسلام هو سبب الجمود الفكرى لأن وسائله فى التعليم لاتتلاءم مع العصر الحديث . وكان الدوق يظن أن نظام التعليم الإسلامى هو نظام الكتاتيب والأزهر القديم .

وقد شرح قاسم أمين اهتمام الإسلام بالتعليم ، وذكر حديث الرسول ﷺ : اطلب العلم ولو فى الصين . ثم ذكر أسماء أعلام المسلمين فى الدين والعلم والفلسفة والتاريخ ، وسرد أيضًا أسماء كبار الشعراء . وقال فى النهاية إننا لم نبلغ فى هذا العصر ما بلغته أوربا من علم وحضارة ، ولكن يجب أن نذكر دائمًا أن بلادنا كانت منهج العلم والحضارة . وأنها تحاول استرداد قيمها العظيمة فى الفلسفة والعلوم والآداب .

وتعرض الدوق للأدب والعلم ، فقال إن الشكلين الهامين فى الأدب لاتعرفهما مصر وهما الرواية والمسرحية .

وكانت هذه حقيقة من حقائق عصر قاسم أمين . وقد اعترف هو بأننا نترجم الروايات والمسرحيات من الفرنسية ، وأن الأدب العربى فى مصر له أشكال تقليدية لاتوجد بينها الرواية أو المسرحية .

أما العلوم كالحساب والجغرافيا والطبيعة والكيمياء وغيرها ، فقد ذكر الدوق أن المصريين لافضل لهم فيها وأنهم يأخذونها عن الأوربيين .

والأمر العجيب الذى يلفت النظر أن قاسم أمين تخيل أن الأزهر أصبح جامعة ، بل إنه ذكر اسم الأزهر على أنه جامعة فعلا . وبنى على ذلك آماله فى أن تقوم هذه الجامعة بمثل ما تقوم به جامعات أوربا ، وقال إن مدرسة دار العلوم تقوم بتعليم العلوم الحديثة ، وإن طلابها يؤخذون من نبهاء طلاب الأزهر لتربيتهم تربية علمية .

لقد كان قاسم أمين يتنبأ بأن الأزهر سيصبح جامعة ولعله ناقش صديقه محمد عبده فى تطوير الأزهر حتى يصبح مثل جامعة السوربون ولذلك أصر فى كتابه على إطلاق اسم الجامعة على الأزهر .

وأخيرا أحب أن أقول إن كتاب (المصريين) الذى ألفه قاسم أمين لم يكن فى الواقع ردا على الدوق هاركور بالذات ، بل كان تصويرا لأفكار قاسم أمين نفسه ولو أنه اتخذ الرد على هذا الدوق وسيلة للتأليف .

لقد وضح قاسم أمين قضايا هامة تظهر حقيقة المجتمع المصرى فى عصره ، وآماله فى المستقبل ، فهو الذى سبق إلى تصوير الفلاح المصرى مسلما أو قبطيا على أنه مصرى وطنى ، وكأنما كان متنبئا بما سيسلكه الاستعمار البريطانى من محاولة لتفريق عنصرى الأمة .

كما أن قاسم أمين وضع ثورة عرابى فى مكانها الصحيح من تاريخ مصر ، وأكد فى جرأة أنها ثورة شعبية ضد الظلم والطغيان .

وكان قاسم أمين كمصلح سياسى واجتماعى يحلل مجتمعه تحليلاً علميا ويبين نواحى النقص فيه ، ثم يتبع ذلك بوسائل الإصلاح التى تحدث التقدم والنهضة ، وكان أهم ما يشغله فى ذلك أمرين هما : العلم والثقافة .. ثم تحرير المرأة .

ولذلك فإننى أعتقد أن هذا الكتاب الذى لم يلتفت إليه أحد أشد خطرا مما كتبه قاسم أمين عن المرأة الجديدة ، لأنه يدعو إلى تحرير المجتمع المصرى كله لا إلى تحرير نصفه فقط ممثلاً فى المرأة .

ومن أطرف ما قاله قاسم أمين عن (الدوق هاركور) الذى طعن فى مصر لأسباب سياسية ، إن الدوق رأى مصر وهو يركب عربة حنطور يتجول بها فى شوارع القاهرة .. وإن قاسم أمين لو فعل مثل ذلك فى باريس لخرج بكتاب يشبه كتاب الدوق المتفرج .

قلينى فهمى باشا

شخصية مصرية نادرة

كنت أسمع اسم (قلينى فهمى باشا) فى حلوان ، وكأنه أسطورة ، فقد كان بعض أصدقائنا من الأقباط يتحدثون عنه فى الأربعينات أحاديث شتى تدل على أن الرجل كانت له قيمة عظيمة ، ولم أكن أعرف عنه شيئا مع أننى سكنت بيتا مجاورا لقصره فى حلوان على مقربة من الحديقة اليابانية ، وكنت أشاهد شابا وفتاة أصابهما مرض نفسى ، وقيل إنهما أخ وأخت تبناهما قلينى فهمى وسمح لهما بالإقامة فى قصره . وكان ينفق عليهما ، حيث لا ولد له .

وكان الباشا يمضى الشتاء فى حلوان ولكنه لا يقيم فى قصره ، بل يسكن فى غرفة بفندق (جراند أوتيل) الذى كان من الفنادق الفاخرة ، ثم خربته القوات البريطانية فى الحرب العالمية الثانية عندما اتخذته مقرا لقيادتها .

وعندما كان قلينى فهمى يشتى فى حلوان كانت الأحاديث تكثر حوله ، وينسج لنا أصحابنا من القبط خيوطا قصصية بعضها واقعى وبعضها خيالى ، وكانوا يزورونه كثيرًا فى الفندق ثم يعودون إلى المقهى الذى اعتدنا الجلوس فيه ليتحدثوا عن كرم الباشا الذى قدم لهم كذا وكذا وهم من صغار الموظفين الذين لا تسمح جيوبهم بالإنفاق فى هذا البذخ الذى يروى عن قلينى فهمى .

كنت فى شوق إلى رؤية هذا الرجل الذى عاصر عصر إسماعيل الخديوى وكان موظفاً فى دائرته السنيةالتى تشرف على مزارعه وأملاكه ، وطالت حياته حتى عهد الملك فؤاد وأوائل عهد فاروق .

وذات يوم قلت لصديقى برسوم أفندى الذى كان يعمل فى مرصد حلوان ، ويرقب البالونات التى يطلقها المرصد فى الجو ، وقد أعجب به الملك فاروق عندما رآه وسماه : صقر حلوان .

قلت لبرسوم أفندى إن قلينى أفندى باشا من الشخصيات المثيرة ، وقد قرأت مذكراته فأعجبتنى ، كما أعجبنى الرجل بسبب مصريته الصادقة ، ونقل الأفندى كلامى للباشا فى

معرض المباهاة والتفاخر ، فطلب منه دعوتى لزيارة فى جراند أوتيل ، وذهبت معه ، فرأيت رجلاً من الأجيال الماضية يرتدى بدلة ردنجوت سوداء وحذاءً لامعًا وطربوشًا مائلاً . . وكان رجلاً أنيقًا شديد الأناقة . . عليه مسحة أرستقراطية . هذا هو قلينى فهمى باشا .

جلسنا فى الصالون ، وكان رقيقًا فى تحيته واعيًا لكل كلمة يقولها مع أنه فيما يبدو كان قد بلغ التسعين من عمره أو أكثر لأننا لا نعرف تاريخ ميلاده ، ولكننا نعرف أنه كان تلميذًا فى مدرسة الأقباط الكبرى سنة ١٨٧٠ عندما تخرج فيها وحصل على شهادة البكالوريا وكان ترتيبه الثانى ، وقدم له الأمير حسين كامل بن الخديوى إسماعيل والذى أصبح سلطان مصر بعد ذلك . . قدم له هديةً ثمينةً هى بعض الكتب العربية والفرنساوية مازال يحتفظ بها كما قال لنا .

اجتمع حول قلينى فهمى عدد كبير من ضيوفه وقد أباح لهم أن يطلبوا من الجرسون كل ما يريدون على حسابه حتى أصبحت غرفة الصالون مطعمًا ومشربًا ، وهو مسرور بهذه التحية ، سعيد لأنه يُسعد أصدقاءه .

تولى قلينى فهمى الوظائف الرفيعة فى الحكومة وكان عضوًا فى مجلس شورى النواب وعضوًا فى الجمعية التشريعية ومجلس الشيوخ . . ولكن هذا الجانب من حياته لا يساوى شيئًا إلى جانب شخصيته .

كما كان من كبار رجال الاقتصاد ، واقتنى ثروةً طائلةً ، وكان له قصر فى بلدته مغاغة ، وقصر فى حلوان . . وهذا أيضًا ليس هو ما نريد الحديث عنه ، فقد ظهر فى عصره من هم أكثر ثراءً منه ، وكانت لهم قصور وعزب وأطيان ، ونحن لا نتذكر أسماءهم لأن الزمن أنسانا أسماءهم وأطيانهم .

لقد أصبح قلينى فهمى الكاتب بالدائرة السنية فى عهد إسماعيل والذى كان يحسب حساب المزروعات والإيجارات ، ويشرف على رى الأراضى وتخزين المحصولات شخصيةً مرموقةً فى مصر ، وأصبحنا نحاول التعرف عليه بسبب الدور الذى قام به فى خدمة المجتمع المصرى .

تعرف قلينى فهمى بالطبقة العليا فى المجتمع ابتداءً من الخديوى إسماعيل إلى الأمراء والباشوات ، وعاصر الثورة العرابية وكان صديقا شخصيا لسلطان باشا أكبر عملاء الاستعمار البريطانى بعد الاحتلال ، ولقب بلقب (قائمقام الخديوى توفيق) . . ولكن الذى يلفت النظر أن قلينى فهمى باشا لم تكن له صلة بالخديوى توفيق بل إنه كان متهمًا بممالأة الخديوى إسماعيل

المعزول وعندما زاره فى منفاه بإيطاليا وجرت بينهما مقابلة فى (فيلا روز) التى كان يقيم فيها إسماعيل . ثم عاد قلينى فهمى إلى مصر حققت معه سلطات القصر حول هذه الزيارة ، واستجوبوه وسألوه عما قال وما سمع .

وبرغم صداقته لسلطان باشا وهو بلدياته وكلاهما من المنيا ، فإنه اعترض عليه بعد سقوط الثورة العرابية ، وقد روى أنه كان مع غيره يتناولون الغذاء على مائدة سلطان باشا فى إبان سطوته واستبداده ، وجاءه رجل من المنافقين يقول :

– هناك ١٧ عمدة من عمد المنيا كانوا مع عرابى .

فقال سلطان باشا :

– يقبض عليهم حالاً ويوضعون فى السجن .

فصاح قلينى فهمى وهو على المائدة :

– ياسلطان باشا . . أنت ستقبض على أهل مصر كلهم لأنهم كانوا مع عرابى .

وسقطت اللقمة من فم سلطان باشا عندما سمع هذا الكلام ، وقال :

– طيب ياقلينى يافهمى . . طيب .

وأمر سلطان باشا الرجل الذى حمل له هذا النبأ بالانصراف .

لم يكن قلينى فهمى مشاركًا فى الثورة العرابية ، ولم يكن له أى دور فيها ، بل إنه رفض أوامر مدير المنيا عندما أبلغه أن الجيش يطلب خلع قضبان السكك الحديدية ليصنع منها مدافع وأن يقطع الأشجار وترسل إلى كفر الدوار لتوقد أخشابها ويطهى عليها طعام العساكر . . وأوشك أن يوضع فى السجن لمخالفته هذه الأوامر .

ولكن هذا الرجل دافع عن المصريين فى وجه المظالم ، ومما عرف عنه قبل الثورة العرابية أنه طالب بإلغاء عقوبة الكرباج التى كانت تستخدم فى جمع الضرائب من الفلاحين . وطالب بإلغاء السخرة التى كانت تستخدم فى تنفيذ المشروعات ونجح فى ذلك ، ولكن التاريخ المصرى الحديث لا يذكر له شيئًا من ذلك ، مع أنه هو الذى كتب المذكرات الرسمية التى عرضت على رئيس الوزراء مصطفى رياض باشا ، وبين فيها الأسباب الموجبة لذلك وهى أسباب اقتصادية وليست عاطفية ولا إنسانية مما يدل على ذكاء قلينى فهمى وبراعته الفائقة فى تقدير الأمور بالعقل والحكمة .

لقد ذكر لأصحاب عقوبة الكرباج فى جمع الضرائب أن الكرباج لن يجمع لهم قرشًا

واحدًا ، وكان قلينى فهمى يشغل وظيفة مدير مصلحة الأموال المقررة ، وطالبهم بزيارة بعض القرى المصرية ليروا أحوالها ؛ لأنها لم تكن تملك شيئًا . وشكلت لجنة لدراسة الأحوال الاقتصادية فى القرى وزارت ثلاثًا منها ثم عادت وأقرت وجهة نظر قلينى فهمى بعد أن شاهدت أكواخ الطين بداخلها بعض الآدميين .

وأعد قلينى فهمى نفقات المشروعات التى تنفذ باستخدام السخرة ، والمشروعات التى يدفع فيها أجر الكادحين ، وأكدت دراسته أن مشروعات السخرة نفقاتها أكثر وأنها تكبد الخزانة خسائر فادحة بسبب السخرة ، حيث كان الجلادون يتقاضون الرشاوى والسرقات أضعاف ما يدفع من أجور .

هكذا كان يفكر قلينى فهمى فى مصر وأبناء مصر .

عقلية عملية ناضجة ، وقدرة ذهنية فائقة مع لين الجانب ، والبشاشة والكياسة .

حدث أن محمد رياض باشا مدير أسيوط أصدر أمرًا بفصل موظف صغير ، وكان أبوه مصطفى رياض باشا رئيس الوزراء ، وعرضت الأوراق على قلينى فهمى لأن الموظف كان تابعا لرياسته ، ورأى الظلم والجبروت فى هذا القرار ، فذهب إلى رئيس الوزراء وأبلغه أن ابنه يظلم الناس ، واستمع إليه رياض باشا رئيس الوزراء وأعد خطابا ليرسله إلى ابنه يوبخه ويحذره ، ولكن قلينى فهمى باشا رجاه ألا يرسل الخطاب حتى لا يغضب الباشا مدير أسيوط وهو ولده ، فقال له رئيس الوزراء إن ابنه إذا لم يرجع عن الظلم سيفصله . وأعيد الموظف إلى عمله .

لقد كان قلينى فهمى مصريا له اتجاهات واضحة فى محاولة تجديد الحياة وبعث النهضة ولذلك شارك فى أعمال كثيرة لا يمكن حصرها وكانت فى جملتها مشروعات اقتصادية . . ولكن بعض هذه المشروعات كانت اجتماعية أيضا .

كانت أهم ملامح شخصية قلينى فهمى إيمانه الراسخ بوحدة الشعب المصرى من مسلمين وأقباط ، وهو أول عظماء الأقباط الذين تحدثوا عن هذه الوحدة ، بل إنه كان له دور بارز فى هذه الوحدة الوطنية فى حياتنا المعاصرة .

يكفى أن تعلم أن قلينى فهمى عندما أنشأ كنيسةً فى بلدته مغاغة ، أقام مسجدا فى هذه البلدة ، وهى لفتة كريمة من هذا القبطى العظيم وقد تابعه فى ذلك بعض أعيان المسلمين فى مدن مصرية كثيرة فكانوا يقيمون الكنائس والمساجد تعبيرًا عن هذه الوحدة الخالدة .

قال لنا قليني فهمي باشا عندما حدثته عن هذا الموضوع فى فندق جراند أوتيل بحلوان :

– نحن نتبادل الهدايا . . مسجد وكنيسة كلاهما هدية من الرب . . ويقول الكتاب المقدس . . الرب أعطى والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركًا .

وعندما حدثت فتنة طائفية فى مصر عام ١٩١٢ كان قد أثارها الاستعمار البريطانى بين المسلمين والأقباط تدخل قليني فهمي لوقف الفتنة ، بل إنه سافر إلى لندن لدى الحكومة البريطانية حتى تكف يدها عن الطوائف الدينية فى مصر حتى لا يحترق كل شيء ، ونجح فى مسعاه ، وشكره المسلمون والأقباط على السواء .

وفى لحظة من لحظات الصفاء النفسى قرر قليني فهمي وقف قصره فى حلوان ليكون مستشفى للسيدات من جميع الأديان ورصد للمستشفى ٦٠ فدانًا ، وقال وهو يحدثنا :

– فى حلوان مسلمون وأقباط . . وهناك طوائف أخرى لا أعرفها . . ولو كنت أعرف الحقائق لسميت هذا المستشفى النسائى باسم المستشفى الإسلامى القبطى ، ولكننى خفت أن تكون هناك طوائف أخرى لا أحبّ أن تحرم من العلاج . . هذا حرام .

وقد أنشأ فى مغاغة مجموعةً من المدارس ليتعلم فيها المسلمون والأقباط معًا ، ووقف عليها أطيانًا واسعة .

خلال حديثه الشيق كان يقول :

– مصر تعطى المسلم وتعطى القبطى ، وكلاهما يعطى مصر .

. . هذا هو القاسم المشترك الأعظم .

ثم ضحك الباشا ، واستمر فى حديثه يقول :

– عندما ذهبت لمقابلة الخديوى إسماعيل فى منفاه فى روما ، كنت أرتدى القبعة ، ورأيت من العيب أن أذهب إليه وعلى رأسى قبعة فبحثت عن طربوش فى روما . . من أين أشترى طربوشا فى روما ؟

وقال له خبيث من الحاضرين :

– هل صنع لك أحد الفنانين الطليان طربوشًا ياسعادة الباشا ؟

فابتسم ، وقال :

– حصلت على طربوش من أحد المصريين الذين عرفتهم هناك على سبيل الاستعارة لمدة ساعة ، وكان يصطاف فى إيطاليا ولا يخلع طربوشه بسبب الصلع .

المهم فى هذه الحكاية هو أن قلينى فهمى رأى أنه كمصرى يقابل خديوى مصر السابق لابد أن يكون على رأسه طربوش وليس قبعة حتى تتأكد شخصيته المصرية .

وكان قلينى فهمى معجبًا بالخديوى إسماعيل بسبب موقف من المواقف للخديوى كان يكثر ترديده . وقد كتب عن ذلك فى مذكراته :

كانت الأمة من أقباط ومسلمين متضامنة تضامنًا قوميًا متينًا ، وللدلالة على مبلغ احترام ذلك الرجل العظيم (يقصد إسماعيل الخديوى) للعقائد الدينية نضرب مثلاً جديرًا بالاحترام .

ذلك أنه عندما أريد تنظيم شوارع مصر ، وفتح شارع كلوت بك ، أهم شوارع القاهرة فى ذلك الوقت ، كان يقتضى النظام لجعل هذا الشارع قويمًا أن يمرّ بكنيسة الأقباط الكبرى الكائنة بدار البطريركية ، فعرض على الأنبا ديمتريوس البطريرك أن تبنى له كنيسة أفخر من هذه الكنيسة ، وكذا دار للبطريركية أفخر من دارها الحالية ، كل ذلك على نفقات الحكومة فى نظير مرور الشارع معتدلاً ، فأجاب البطريرك قائلاً :

– إنى أتشاءم من هدم معبد دينى ليكون طريقًا ، كما أننى لا أرضى لجناب الخديوى أن يوافق على هذا العمل .

ولما عرض الأمر على الخديو قال :

– فلتكن إرادة البطريرك ، وليبق المعبد قائمًا كما هو فلا بأس من التواء الشارع فى هذه الناحية .

وقد ظل قلينى فهمى يتحدث عن هذا الموضوع طويلاً ، ويقول إنه لم يحدث فى الدنيا أن خضعت تخطيطات المدن لمثل هذه الأقوال إلا إذا كانت الكنيسة من الآثار مثل كنيسة (نوتردام) فى باريس ، ولكن كنيسة الأقباط الكبرى كانت مهدمةً وتستحق الإزالة لبناء كنيسة جديدة أعظم منها .

وقال لنا الباشا :

– لو كان الأمر بيدى لهدمت هذه الكنيسة وبنيت كنيسة أخرى عظيمة . . ولكن الخديوى إسماعيل لم يشأ أن يغضب البطريرك ديمتريوس وهذا غاية اللطف من سموه . . إن الكنيسة كانت قديمة وتستحق الهدم .

وقلنا لقلينى فهمى باشا :

– لماذا ابتعدت عن الخديوى توفيق ؟

فأشار بيده ، وقال لنا فى نبرات حزينة :

– الخديوى توفيق له سراى هنا فى حلوان منذ كان أميرا ووليا للعهد . . وهى الآن مدرسة حلوان الثانوية . . وأنا أيضًا أوصيت أن يكون قصرى فى مغاغة مدرسةً ثانوية .

وظل قلينى باشا يروى ذكرياته كلما أثار أحد ضيوفه قضية من القضايا التى تعيشها مصر . . وفجأة صاح قائلاً :

– اسمع يابرسوم أفندى . . وأنت ياعازر أفندى . . أنا كان لى موقف عندما أراد السلطان حسين كامل الذى ولاه الإنجليز ملك مصر زيارة مدرسة الأقباط الكبرى ، وهى داخل مبانى دار البطريركية والكنيسة المرقسية ، فقد قرر أن يكون فى استقباله يوسف باشا وهبه وحده ولا يستقبله أحد سواه من الأقباط . . فاعترضت على ذلك .

وقال عازر أفندى :

– لماذا اعترضت ياباشا ؟

فقال قلينى فهمى :

– ياأبنائى . . كان يوسف وهبه باشا معروفًا بميوله للإنجليز . . وكان السلطان قد ولاه الإنجليز . . وأنا قلت لهم : كيف يستقبل الإنجليز أنفسهم فى بطركخانة الأقباط ؟ الإنجليز يستقبلون الإنجليز فى البطركخانة .

وحدثت أزمة بين قلينى فهمى وبين قصر عابدين ، وتدخل فيها كثيرون منهم الأمير أحمد فؤاد الذى أصبح ملك مصر ، وحسين باشا رشدى رئيس الوزراء وغيرهما من رجال القصر ، وكانت وجهة نظر قلينى فهمى أن زيارة السلطان لمدرسة الأقباط وهى داخل دار البطريركية يجب أن تكون رسمية ، وأن يشترك فى استقباله أعيان الأقباط حتى لا يقال إن يوسف وهبة باشا المالىّ لدار المندوب السامى هو الذى يمثل الأقباط . . واقتنع السلطان حسين كامل بوجهة نظره رغم عصبيته التى وصفها قلينى فهمى فى مذكراته فقال :

– كان عصبى المزاج ، حاد الطبع ، متقلب الأحوال ، ومع سرعة تأثره وشدة بطشه كان رحيم القلب قريبا إلى العفو .

وقال واحد من ضيوف الجلسة فى صالون فندق (جراند أوتيل) فى حلوان :

– ولكنك ياسعادة الباشا كنت مقربًا من الإنجليز . . ومن المندوبين الساميين فى مصر .

فضحك قدس الله روحه ، وقال :

— نعم . . ولكننى لم أكن مثل يوسف باشا وهبة الذى عينته دار المندوب السامى البريطانى فى مصر رئيسًا للوزارة ، واحتججت على هذا التعيين بطركخانة الأقباط نفسها لأنه كان قبطيا وقبل الوزارة فى ظل الحماية أثناء ثورة ١٩١٩ .

أنا كنت أدارى الإنجليز . . وقد عارضت كبراءهم فى مواقف كثيرة ولكن برقة ولطف . . أنا ليس من طبعى العنف .

إن حياة هذا المصرى . القبطى العظيم فيها مواقف عظيمة . . ولكن أبناء جيلنا والجيل الذى سبقه كانوا يعيشون مع الأقاويل والشائعات ، ولا يعرفون الحقائق ، وعندما راجعت أعمال قلينى فهمى ومواقفه أدركت أن التاريخ المصرى الحديث يعلوه غبار كثير . . وعلينا أن نرفع عنه الغبار .

أمين الرافعى

أول مصرى رفض الحماية البريطانية

أمين عبد اللطيف الرافعى هو شقيق المورخ الكبير عبد الرحمن الرافعى ، وكان أمين يكبر عبد الرحمن بسنتين ، وكان والدهما الشيخ عبد اللطيف الرافعى من علماء الأزهر ، وتولى مناصب القضاء الشرعى منذ سنة ١٨٧٧ فى أقاليم البحيرة والشرقية والغربية ، ثم عين عضوا فى محكمة مصر الشرعية سنة ١٨٩٧ ونقيبا للإسكندرية سنة ١٨٩٨ حتى أحيل إلى المعاش فعاد إلى القاهرة وتوفى بها بعد أن رأى ولديه : أمين الرافعى وعبد الرحمن الرافعى يصعدان سلالم المجد .

وبيت الرافعى من البيوت المشهورة فى مصر والشام ، وهم أهل علم ، وكانوا يتولون مناصب القضاء ، ومنهم من اشتغل بالأدب والشّعر ، ولأشهرهم فى العصر الحديث مصطفى صادق الرافعى ، الذى كان والده أيضًا من القضاة ، وقد سكن فى طنطا وأقام بها .

ولكننا نتحدث عن أمين الرافعى ، أحد الرواد الأوائل فى مجال الصحافة الوطنية المصرية ، وقد كان نادرة عصره فى هذا المجال ، عندما كانت الصحافة مهنة له بعد الاحتلال البريطانى لمصر ، فقد أراد الاحتلال إسقاط قيمة الكلمة ، فأشاع الفوضى فى الصحافة المصرية حتى يضيع على الشعب المصرى كل القيم الرفيعة . . بل إن الاحتلال البريطانى أنشأ لنفسه صحافة فى مصر وكان على رأسها جريدة (المقطم) بلسان حال الاحتلال .

ولكن مصطفى كامل أدرك الخدعة الاستعمارية فأنشأ جريدة (اللواء) مصرية وطنية ، كما أنشأ حزب الأمة جريدة (الجريدة) التى رأس تحريرها أحمد لطفى السيد تعبيرًا عن رأى الأعيان المصريين أو الأرستقراطية المصرية إذا صح هذا التعبير .

ولكن . . أين كان الشعب المصرى أو الجماهير؟

لعل أمين الرافعى كان هو وحده الذى يحمل آلام الجماهير ، فاحترف الصحافة لهذا الغرض ، ولتحقيق هذا الهدف ، حتى بعد وفاة الزعيم (مصطفى كامل) وعندما تولى (محمد فريد) زعامة الحزب الوطنى .

كان أمين الرافعى محررا فى صحيفة الحزب الوطنى ، وهى صحيفة (العلم) ثم رئيسًا لتحريرها تحت زعامة (محمد فريد) بعد (مصطفى كامل) ، وكان شقيقه (عبد الرحمن الرافعى) يشتغل بالمحاماة .

ويقول عبد الرحمن الرافعى . :

(وفى سبتمبر سنة ١٩١٠ انقطعت مؤقتًا عن مكتبتى ، وتوليت رياسة تحرير (العلم) فى غيبة شقيقى أمين الذى سافر إلى أوربا لحضور المؤتمر الوطنى الذى انعقد فى بروكسل فى ذلك العام ، وموافاة (العلم) برسائل المؤتمر . وكان الشيخ عبد العزيز جاويش رئيس التحرير يقضى مدة السجن المحكوم بها عليه من محكمة جنايات مصر فى قضية (وطنيتى) . وكانت إدارة (العلم) بشارع محمد على بالمنزل رقم ١١٦) .

وكانت قضية ديوان (وطنيتى) للشيخ على الغاياتى من القضايا المشهورة فى مصر خلال تلك الفترة .

وقد حكم فيها بالسجن على الزعيم محمد فريد وعلى الشيخ الغاياتى فى محاولة لإسكات صوت الوطنية .

ولكن (أمين الرافعى) استمر فى إصدار جريدة (العلم) التى انتقلت دارها إلى شارع الصنافيرى بحى عابدين (شارع على باشا ذو الفقار) وكانت هذه الدار مقرا للحزب الوطنى بعد وفاة مصطفى كامل ، وعقد فيها مؤتمر الحزب حيث انتخب محمد فريد خليفة للزعيم مصطفى كامل سنة ١٩١١ .

ثم أصدر أمين الرافعى جريدة الشعب ، وكانت تعتنق مبادئ الحزب الوطنى أيضًا ، وقامت الحرب العالمية الأولى فى يوليو – أغسطس سنة ١٩١٤ ، وأعلنت السلطة العسكرية البريطانية الأحكام العرفية على مصر فى ٢ نوفبر ، ثم خلع الخديوى عباس حلمى من العرض ، وعينت بريطانيا عمه الأمير حسين كامل سلطانا فى يوم ١٩ ديسمبر ١٩١٤ .

وكانت الحكومة البريطانية قد أعلنت الحماية على مصر فى اليوم السابق لتعيين السلطان حسين كامل أى فى يوم ١٨ ديسمبر ١٩١٤ .

ونشر إعلان الحماية البريطانية فى الوقائع المصرية ، وجاء فيه :

(يعلن وزير الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى ، أنه بالنظر إلى حالة الحرب التى سببها عمل تركيا قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته وأصبحت من الآن فصاعدًا من

البلاد المشمولة بالحماية البريطانية . وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر . وستتخذ حكومة جلالته كل التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحماية أهلها ومصالحها) .

وكان قرار الحماية البريطانية على مصر متوقعا عند الرأى العام ، وكان محتما على الصحف أن تنشره عند صدوره ؛ ولذلك أعلن أمين الرافعى رئيس تحرير جريدة (الشعب) فى عدد ٢٧ نوفبر ١٩١٤ أنه سيحتجب من ذلك اليوم ، وأنه سيعود بمشيئة الله إلى الظهور . وكان الغرض الذى قصد إليه أمين الرافعى هو عدم نشر إعلان الحماية والبلاغات التى تستتبعه فى جريدته على سبيل التحدى الصامت للاحتلال البريطانى .

كان احتجاب جريدة الشعب أوّل احتجاج مصرى على الحماية البريطانية ، وقد جاء فى وقت كانت فيه هذه الجريدة أوسع الجرائد المصرية انتشارًا ، كما كانت أكثرها نجاحًا من الناحية الصحفية حيث استطاعت نقل أخبار الحرب العالمية إلى القارئ المصرى فى سرعة لفتت الأنظار ، وكانت إلى جانب هذا جريدة وطنية تناطح جرائد الغرباء أو جرائد أعوان الاستعمار .

وبعد أن أغلق أمين الرافعى جريدته بدأت مطاردة السلطة له ولزملائه أعضاء الحزب الوطنى .

يقول عبد الرحمن الرافعى :

« تولت السلطة العسكرية حكم البلاد خلال الحرب ، فكان أول عمل لها اضطهاد الحزب الوطنى ومطاردة رجاله ، فضبطت أوراقه ودفاتره وسجلاته . . وشتتت شمل أعضائه أو الذين اشتبهت فى أنهم من أعضائه أو أنصاره .، واعتقلت الكثيرين منهم . ووزعتهم على سجن الاستئناف بالقاهرة ، وسجن الحدرة بالإسكندرية ، والمعتقلات التى أنشأتها لهم خصيصًا فى درب الجماميز وطرة والجيزة وسيدى بشر ، ونفت بعضهم إلى مالطة وأوربا ، وكنت ممن أصابهم الاعتقال ، وأذكر من أسماء المعتقلين وقتئذ :

أحمد لطفى بك – على فهمى كامل بك – عبد الله بك طلعت – عبد اللطيف بك الصوفانى وقد وضع تحت المراقبة فى دمنهور – عبد اللطيف بك المكباتى .

الأساتذة : عبد المقصود متولى – محمد زكى على أحمد توفيق – أمين الرافعى – عبد الرحمن الرافعى – مصطفى الشوربجى – إسماعيل حافظ صهر محمد بك فريد – محمد

فؤاد حمدى – إبراهيم رياض – الدكتور عبد الحليم متولى – الدكتور عبد الفتاح يوسف – الدكتور شفيق منصور – أحمد أفندى رمضان – اليوزباشى – حافظ محمود قبودان – اليوزباشى أحمد حمودة – محمد أفندى الشافعى – مصطفى أفندى حمدى – يعقوب أفندى صبرى – اليوزباشى أحمد نبيه قبودان – إسماعيل أفندى حسين – الشيخ إبراهيم مرونى . . وغيرهم .

أما الذين نفوا إلى مالطة فنهم :

الدكتور عبد الغفار متولى – الدكتور محمد عوض محمد – الأستاذ محمود إبراهيم الدسوقى – حامد بك العلايلى – الأمير أفندى العطار . . وغيرهم .

وقد نقلت لك بعض هذه الأسماء لتدرك معى أن الصفوة المثقفة المصرية من محامين وأطباء وضباط وكتاب وصحفيين هى التى كانت تقود حركة الثورة المصرية ، ولم تكن طبقة الأعيان هى التى تقودها ، ولكنها كانت تشترك فيها ، فإن غالبية الذين اعتقلتهم السلطة البريطانية بعد إعلان الحماية وقبل اشتعال ثورة ١٩١٩ ، كانوا من المثقفين كما ترى . . بل إن الاحتجاج الأول على الحماية كان من صحفى مثقف هو أمين بك الرافعى .

وقد لبث كثيرون من هؤلاء المعتقلين فى السجون والمعتقلات والمنفى سنوات طويلة ، حتى بعد إعلان الهدنة سنة ١٩١٨ ، ؛ لأن بريطانيا لم تعتقلهم بسبب الحرب ولكن بسبب وقوفهم فى وجه الاستعمار .

اعتقل أمين الرافعى يوم ١٧ أغسطس ١٩١٥ ، وحبس فى سجن الاستئناف بباب الخلق مع كثيرين من الوطنيين ، وكان هذا السجن مجاورا لمحافظة القاهرة فى مبناها القديم ، وهى مديرية أمن القاهرة الآن ، وإلى جواره محكمة الاستئناف ؛ ولذلك سمى (سجن الاستئناف) وقد أعد لاستقبال الذين توجه إليهم تهم تؤدى بهم إلى المحكمة .

ولكن أمين الرافعى ورفاقه لم توجه إليهم تهمة ؛ لأن الحركة الوطنية خلال تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر التزمت الصمت الذى كان يسبق العاصفة ، حتى أن الشعب المصرى تعاطف مع الخديوى عباس حلمى لا حبا فيه ، ولكن بغضا للاستعمار البريطانى ، وظهر ذلك فى الفولكلور الشعبى ، فذاع فى تلك الأيام الإنشاد الوطنى على ألسنة الأطفال ، وهم يقولون :

الله حى عباس جاى

يضرب بمبه

فى راس العمدة

الله حى عباس جاى

والمقصود بالعمدة هنا هو المعتمد البريطانى وانتشرت أيضًا مقطوعة شعبية أخرى تقول :

ياعزيز ياعزيز . .

كُبة تاخد الانجليز .

وعندما كانت السلطة البريطانية تجمع عشرات الألوف من الفلاحين لخدمة الجيش البريطانى فى ميادين القتال فى فلسطين ، انتشرت أيضًا الأغنية الفلكلورية الشهيرة .

ياعزيز عينى وانا بدى أروح بلدى

بلدى يابلدى والسلطة خدت ولدى

بلدى . . يابلدى .

خلال الصمت الرهيب الذى عبر عنه الشعب المصرى بأغانيه الجريحة ، كان أمين الرافعى ورفاقه فى زنزانات سجن الاستئناف بباب الخلق .

وفى ٣٠ أغسطس ١٩١٥ اتخذت السلطة قرارًا بالنسبة لهؤلاء المسجونين السياسيين خوفًا من إثارة الرأى العام الذى بدأ يعبر عن سخطه بهذه الكلمات الشعبية البسيطة التى رويتها لك .

يقول عبد الرحمن الرافعى :

(فى ١٠ أغسطس جاء الفرج ، لا بإطلاق سراحه ، بل بنفيه إلى معتقل أعدوه لنا بدرب الجماميز ، فى مبنى مخزن وزارة المعارف ؛ ذلك أن اعتقالنا فى سجن أعد للمحكوم عليهم والمنتظر أن يحكم عليهم فى الجرائم ، قد قوبل فى مختلف الطبقات وبالسخط والاستنكار ، وأبديت رغبة فى معاملتنا كمعتقلين سياسيين لهم على كل حال حق الرعاية والمعاملة الإنسانية . فأعدوا لنا المعتقل الجديد بدرب الجماميز ، وقد شعرنا فيه ببعض الراحة النفسية إذا قورن بسجن الاستئناف وسمح لنا فيه على الأقل بأن نجتمع معا فى أى وقت نشاء ، وأن نختار من الغرف الصغيرة والمتوسطة والكبيرة ما نشاء ، وأن يختار كل منا زملاءه ، فاخترت مع أخى أمين غرفة واحدة كان بابها مفتوحًا فى كل وقت) .

ولكن أمين الرافعى لم يطل مقامه بمعتقل درب الجماميز ، فقد حدث حادث خطير فى مصر

هزّ أركان العرش ، عندما قرر السلطان حسين كامل زيارة مدرسة الحقوق وهى أعلى المدارس العليا شأنًا فى ذلك الزمان ، وفى يوم الزيارة المحدد تحرك موكب السلطان من قصر عابدين إلى المدرسة التى كانت فى مبنى الحرس الملكى بميدان عابدين فى مواجهة القصر ، وعندما وصل الموكب خرج كل الطلبة من المدرسة فى صمت ، وانصرفوا ، ووجد السلطان نفسه وسط غرف خالية .

كانت هذه اللطمة من طلبة الحقوق أقسى اللطمات على وجه السلطان الذى عينته بريطانيا العظمى بقرار منها سلطانا على مصر بعد يوم واحد من إعلان الحماية .

وبعد هذا اليوم بدأت السلطة تبحث عن معتقلات جديدة . ، فنقلت بعضهم إلى معتقل أنشأته فى سجن طره ، ووضعت طلبة مدرسة الحقوق فى معتقل درب الجماميز ، ونقل أمين الرافعى ومعه شقيقه عبد الرحمن الرافعى وبعض رفاقهما إلى معتقل طرة . . ثم نقلوا مرةً أخرى إلى معتقل فى أول شارع الهرم كان يعرف باسم (السجن الأسود) .

وأخيرًا حدثت المفاجأة الغريبة العجيبة التى تحتاج إلى شرح وتفسير .

فى يوم ١٧ يونيو ١٩١٦ أفرج عن أمين الرافعى بعد أن ظل فى المعتقل عشرة أشهر .

لم يكن إفراجًا عاديا يخرج فيه هذا الصحفى الكبير من المعتقل إلى بيته كما جرت العادة . . . وكان الله يحب المحسنين .

لا . .

لقد أخذوه من معتقل السجن الأسود فى شارع الهرم إلى الإسكندرية لمقابلة رئيس الوزراء حسين رشدى باشا ، وكان معه شقيقه عبد الرحمن الرافعى وصديق ثالث هو عبد الله بك طلعت .

وقابل حسين رشدى باشا هؤلاء الثلاثة ، وكان هذا الرجل من خيرة المصريين . وله قصر فى الإسكندرية فى محطة رشدى باشا التى ما زالت تحمل اسمه ، وكان له دور فى ثورة ١٩١٩ يذكر ويشكر ، ولكنه لم يكن من الثوريين أو الذين يفكرون بفكر أصحاب الثورات أو دعاتها .

المهم هو أن رشدى باشا وضح موقفه ، وقال إنه سعى لدى السلطة البريطانية للإفراج عن أمين بك الرافعى وشقيقه عبد الرحمن الرافعى وصديقه عبد الله طلعت ، ثم تحدث عن

ضرورات الحرب ، ولعله قال إن بريطانيا العظمى معذورة فى موقفها من مصر ، وسيتم الخير بإذن الله بعد إنهاء الحرب . ؛

حديث سياسة تكرر فى حياتنا الثورية النضالية فى الحرب العالمية الثانية . . كما كان تماما فى الحرب العالمية الأولى . . وكان مصطفى النحاس باشا مثل حسين رشدى باشا مع اختلاف الظروف والأحوال ، والاختلاف بين الشخصيتين .

وكان أمين الرافعى يدرك أن لعبة السياسة لا تصلح فى مقاومة الاستعمار . . وكان جيلنا الذى عاصر النضال الوطنى بعد ثورة ١٩١٩ . . ونحن أبناء شباب هذه الثورة – يدرك أيضًا أن لعبة السياسة لا تستطيع مقاومة الاستعمار .

هذه التجارب كلها هى التى أدت إلى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بكل قوتها واندفاعها . وهى الثورة التى خلعت عرش الطغاة ، واقتلعت جذور الاستعمار .

دعنى الآن من هذا الحديث حتى أحدثك عن الصحفى أمين الرافعى .

قال له حسين رشدى باشا ما قاله من كلمات عذبة رقيقة ، وشكر الباشا على حسن صنيعه ؛ لأن أمين الرافعى كان رجلا مهذبا ، وحين طلب منه الباشا مقابلة (السير رونالد جراهام) مستشار وزارة الداخلية ، وقال له ولرفاقه إنه هو أيضًا سعى للإفراج عنهم ، لم يتردد أمين بك فى زيارة عدوه فى مكتبه . ويقول عبد الرحمن الرافعى إنه قابلهم بشعور طيب .

ثم جاءت المفاجأة الكبرى التى قلت لك إنها تحتاج إلى شرح وتفسير .

حدد موعد المقابلة بين أمين الرافعى وبين السلطان حسين كامل سلطان مصر فى رأس التين بالإسكندرية ، وحتى لا تنكشف اللعبة الماكرة تمت المقابلة بين السلطان وبين :

* أمين بك الرافعى .
* عبد الله بك طلعت .
* الأستاذ عبد الرحمن الرافعى .

وكتب عبد الرحمن الرافعى عن هذه المقابلة يقول بالحرف الواحد :

(ثم ذهبنا إلى سراى رأس التين حيث قابلنا السلطان حسين كامل ، واستقبلنا بعطف وحفاوة وأخذ يدافع عن سياسته منذ إعلان الحرب العالمية وقبول عرش السلطنة ، وقال إنه قصد خدمة مصر والأسرة العلوية .

والتفت فى ختام الحديث إلى أخى أمين ، وقال له :

طلع الغازيتة ياأمين بك .

ووعده بالمساعدة المالية لإصدار الغازيتة ، وهى جريدة الشعب التى كانت محتجبةً احتجاجًا على إعلان الحماية البريطانية .

ولم يصدر أمين الرافعى جريدة الشعب ، وتحدى السلطان حسين كامل الذى أبدى له استعداده بالمساعدة المالية .

وكان تحدى السلطان أكبر وأعظم من تحدى بريطانيا العظمى ؛ لأن احتجاب الجريدة عمل سلبى صامت ، ولكن رفض إعادة إصدارها بعد طلب سلطان مصر ووارث عرش محمد على هو العمل الإيجابى الخطير .

أمين الرافعى الذى خرج من معتقل السجن الأسود فى شارع الهرم ليقابل سلطان مصر فى نفس اليوم رفض إعادة إصدار جريدته الشعب ، وهو يعلم أنهم يستطيعون إعادته إلى معتقل أسود من السجن الأسود .

هذا رجل .

وليس لى بعد هذه الكلمة أى كلمة أخرى .

الدكتور على إبراهيم

جراح . . هوايته السجاجيد القديمة

هذا الرجل يشبه الأسطورة .

ومازال القدماء من أهل حى عابدين فى القاهرة يرددون عنه الحكايات ، فقد كانت عيادته فى الجيل الماضى تقع فى شارع الصنافيرى خلف مبنى الحرس الملكى الذى أصبح اليوم مبنى محافظة القاهرة .

وكلما مررت أمام هذا البيت القديم العتيق الذى كان يعيش فيه الساحر صاحب الأصابع الذهبية ، أحس بأننى أقف أمام معبد لكاهن فرعونى صناعته الطب .

البيت صغير ، ولكن شكله غريب . . بين بابه وبين الشارع سور حديدى ، ونوافذه تطل عليك وكأنها فتحات هذا المعبد الفرعونى الذى تخيلته . . وأنت لا تدرى ماذا وراء هذه النوافذ ؟

وعندما سكن الدكتور على إبراهيم فى هذا البيت ، وجعل منه عيادته ومستشفاه ، كان أشهر طبيب جراح فى مصر هو الدكتور ملتون ، وهو طبيب إنجليزى كانت له مستشفى فى حى عابدين تحمل اسمه ، وكانت هذه المستشفى فى شارع عبد الدايم ، وقد اشتهرت وذاع اسمها عندما نقل إليها بطرس باشا غالى رئيس الوزراء فى عهد الخديوى عباس حلمى ، عندما أطلق عليه الرصاص وحاول الدكتور ملتون إنقاذ حياة الباشا فعجز عن ذلك ، ومات بطرس باشا فى مستشفى الدكتور ملتون .

فى تلك الأيام فقد الطبيب الإنجليزى شهرته لا بسبب عجزه عن إنقاذ حياة بطرس باشا غالى ، ولكن بسبب وجود الدكتور على إبراهيم فى حى عابدين .

كان الدكتور على إبراهيم يقاوم النفوذ الاستعمارى البريطانى بالطب ، وهذه هى إحدى عجائبه التى تروى للأجيال ، وهذا هو السبب فى نسج الأساطير حول عبقريته الفائقة ، ونحن لا ندرى ماذا كان يصنع . . ولكننا كنا نسمع ؟

قال الرواة إنه بعد عزل الخديوى عباس حلمى من عرش محمد على ، وتولية السلطان

حسين كامل بأمر ملكى بريطانى . . أصيب السلطان حسين بمرض عضال ، واستدعى لعلاجه كل الأطباء الأجانب فى القاهرة ومنهم الدكتور ملتون الشهير ، فعجزوا عن علاجه ، وزادت الأزمة ، وقال له واحد من حاشيته إن طبيبا مصريا اسمه الدكتور على إبراهيم له عيادة فى شارع الصنافيرى ، ولا بأس من دعوته ، لعل الله يجعل الشفاء على يديه ، وفى غمرة الآلام الفظيعة وافق السلطان حسين كامل المستبد المتعجرف الذى كان لا يترك السوط من يده على دعوة الدكتور على إبراهيم . . الطبيب المصرى المسكين . . الذى لا يستطيع مطاولة الأطباء الأجانب .

ثم أجرى عبقرى الطب والجراحة عملية للسلطان وشفى السلطان ، وزالت الأزمة وقال السلطان للدكتور على إبراهيم .

– كم تريد أجرا على العملية التى أجريتها لى ؟

فقال الدكتور !

– ألف جنيه ذهبًا .

وأنت اليوم لا تتخيل معنى الألف جنيه الذهبية فى سنة ١٩١٤ أو ١٩١٥ .

عملية جراحية لطبيب مصرى ناشئ بألف جنيه من الذهب .

هذه إحدى أساطير الدكتور على باشا إبراهيم الذى تحدى كل الأطباء الأجانب فى القاهرة . . . ولم تكن المشكلة أن يحصل الدكتور على المال ، ولكنها كانت مشكلة أخرى ، فقد ظل الناس يتحدثون عن هذا الطبيب الذى يأخذ ألف جنيه ذهبية فى العملية الجراحية .

كل الأطباء الأجانب عجزوا عن علاج سلطان مصر ، وعالجه الطبيب المصرى الدكتور على إبراهيم . . وأخذ ألف جنيه . . كلها من الذهب .

ثم سقطت الهالة الكاذبة عن الأطباء الأجانب ، وظهرت أسطورة الطبيب المصرى العبقرى الدكتور على إبراهيم ، وانصرف الناس عن مستشفى (ملتون) الإنجليزى ، واتجهوا إلى عيادة (على إبراهيم) المصرى . . فى شارع الصنافيرى .

وبدأ الشعب ينسج الأساطير . .

قال لى رجل من عامة الناس فى حينا ، وهو حى عابدين ، إن أحد الفقراء كانت له ابنة مريضة حار فيها الأطباء ، فنصحه بعض أصدقائه أن يذهب بها إلى عيادة الدكتور على إبراهيم فى شارع الصنافيرى ليجرى لها عملية جراحية .

ولكن . . كيف ؟

هذا الطبيب أخذ ألف جنيه ذهبية من السلطان .

هل يعالج هذه البنت الفقيرة ؟ . . هل يجرى لها عمليةً جراحية تشفى بعدها كما شفى السلطان !

ولكن الرجل استخار الله ، وجمع خمسة جنيهات وضعها فى مظروف ، وذهب إلى العيادة ، وأجرى الدكتور على إبراهيم الكشف الطبى على البنت ، وقال لأبيها ؟

– احضرها لى غدًا فى الساعة السابعة صباحا لأجرى لها عملية تشفى بعدها بإذن الله .

وقدم الرجل المظروف وبه الجنيهات الخمسة إلى الدكتور ، فأخذه منه ، وأكد عليه بإحضار البنت فى الساعة السابعة صباحًا لإجراء العملية .

وتمت العملية ، وبقيت البنت فى المستشفى حتى شفيت ، وعندما صرح لها الدكتور على إبراهيم بالخروج ، أعاد المظروف إلى والدها ، وكان فيه خمسون جنيها فوق الخمسة ، وقال للأب !

– ابنتك فى حاجة إلى رعاية وغذاء فلا تبخل عليها .

وظل الرجل يحكى هذه الحكاية فى الشوارع والحارات ، وظل الناس يرددونها حتى سمعتها منهم .

وهناك حكايات أخرى كثيرة يرويها الرواة عن هذا العبقرى المصرى الذى طبقت شهرته الآفاق ، ورويت عنه الأعاجيب . حتى أن الطائفة الإسرائيلية فى مصر عندما أقامت المستشفى الإسرائيلى فى القاهرة ، جعلت قسم الجراحة فيه باسم (الدكتور على إبراهيم باشا)

إن القصص التى نسجت حول اسم على إبراهيم كثيرة ، فقد كان الطبيب الذى يأخذ من الأغنياء ليعطى الفقراء .

وكان يعرف القدرات المالية لمرضاه مهما كانت مراكزهم ، فيعاملهم بالحسنى وزيادة .

أجرى جراحة لواحد من القضاة ، ثم جاء وقت المحاسبة ، فسأل على باشا إبراهيم هذا القاضى ؟

– كم راتبك فى الشهر ؟

فأخبره القاضى عن راتبه الشهرى ، ولم يلبث الدكتور العظيم أن قال له :

– سآخذ منك مرتب شهر هو كل مصاريف علاجك .

وكان هذا المرتب أربعين جنيها لا تكاد تكفى ثمن الدواء ، ولا أجر الإقامة فى المستشفى ، ولا أجر العملية الجراحية التى أجراها أكبر جراح فى مصر.

لقد أراد الدكتور على إبراهيم أن يشعر هذا القاضى براحة الضمير ، ويجعله هادئ النفس ، معتقدًا أنه دفع أجر علاجه ، ولولا الحياء من الباشا لامتنع عن أخذ شىء من هذا القاضى .

وعندما دوت شهرة الدكتور على باشا إبراهيم فى العالمين ، وأصبح عميدا لكلية الطب ، ثم مديرا لجامعة القاهرة ، لم يأخذه الغرور .

كان فى عصره واحدًا من أشهر الجراحين فى العالم .

وكان فى عصره واحدًا من أعظم الفنانين .

سمعنا أنه كان من عشاق الغناء والطرب ، ولكن المجتمع المغلق حرمنا من معرفة هُواياته فى الغناء لأن بعض الفنون فى ذلك العصر كانت تعتبر من النقائص التى لا يجوز أن يقترب منها العظماء ، وكأنها إثم من الآثام .

لقد نال حسين باشا رشدى رئيس وزراء مصر أشنع التشنيع بسبب حبه لصوت (منيرة المهدية) ، وغرامه بغنائها ، ولم يفهم المجتمع المغلق معنى الفن الذى عشقه رئيس الوزراء .

وكان الدكتور على باشا إبراهيم يعرف هذه الحقيقة ؛ ولذلك لم يجاهر باسم صاحبة الصوت الذى كان يهواه ، ورغم ذلك لاحقته الشائعات ، ونسجت حوله الحكايات .

هذا نادرة من نوادر الزمان الذى أنكر أصحابه على عظيم مثل الدكتور على باشا إبراهيم حب الغناء والطرب ، إن الجراح الفنان صاحب الأصابع الذهبية ، كان فيما أعتقد يبعث الحياة — وسبحان خالق الحياة — بالإلهام الذى يحرك أصابعه أثناء عملياته الجراحية ، وكأنه يعزف للحب والحياة على أوتار آلة موسيقية تحركها يد لا تراها .

وهذا العازف بالمشرط ومبضع الجراح ، ومن حقه أن يستمتع بعزف القانون والعود والناى .

نادرة . . من نوادر الزمان هذا الرجل .

ولكن الهواية الكبرى لهذا الجراح الفنان كانت التحف الإسلامية ، والسجاجيد القديمة .

اشتهر الدكتور على باشا إبراهيم بأنه من أعظم هواة السجاجيد القديمة ، وقد جمع منها مجموعة نادرة ، أعتقد أنها الآن أصبحت فى متحف الآثار الإسلامية . . وليس هذا هو المهم

على كل حال . . أين مجموعته من السجاجيد القديمة ؟ وإلى أين ذهبت ؟ . . ولكن الأهم أنه كان هاويا لهذا الفن العظيم .

لقد التقيت منذ سنوات بالممرض الذى كان يعمل معه ، وحدثنى عن الدكتـور على باشا إبراهيم وهواياته فى جمع التحف والسجاجيد القديمة ، فصادف ذلك هوى فى نفسى . وكان هذا الممرض قد أقام إلى جوارى فى المعادى وبنى له بيتا ، من فضل خير الباشا ، ولم يدرك بالطبع معنى الفن فى حياة الدكتور على باشا إبراهيم ، فهذا الأمر يصعب إدراكه على مثل هذا الممرض ، فقد قال لى مرةً ! .

–كان الباشا يحضر لنا زلعة ويقول إنها من الآثار الإسلامية . . ثم يحضر سجادةً مهلهلةً ويقول إنها عظيمة . . وكنا نتعجب من تصرفاته ، وإنفاقه للأموال الطائلة فى شراء هذه الأشياء .

لست أدرى لم بدأت معك الحديث عن الفنان قبل الحديث عن الإنسان ؟

يبدو أن عم محمد التورجى . . الممرض الذى لازم الدكتور على باشا إبراهيم ، كان هو الذى يترصدنى فى الخفاء . ويدفعنى للكتابة عن الدكتور على إبراهيم الفنان .

ما علينا . .

إن هذا العبقرى الأسطورة له حكاية مع أمه عندما كان عميدا لكلية طب قصر العينى أشهر كلية طب فى الشرق كله .

جاءت الأم بثيابها الريفية لتزور ولدها فى قصر العينى ، ووصلت إلى أبواب مكتب العميد فمنعها الحاجب من الاقتراب من الباب ، ودارت مناقشة بين أم الدكتور على باشا إبراهيم وبين حاجب مكتبه ، وكان مجلس الكلية منعقدًا ، وأرهف الباشا أذنيه وهو يسمع الصوت من وراء الباب الموصد . . واستمر يرهف أذنيه ليتأكد من سماع هذا الصوت الحبيب إلى نفسه .

إنه صوت أمه .

ثم هب واقفا واتجه نحو الباب وفتحه ليجد أمه واقفة أمامه وهى تأخذه بين أحضانها ، وبعد العناق الحار أخذها من يدها وقدمها لزملائه أعضاء مجلس كلية قصر العينى .

هذا الإنسان المصرى العظيم الذى وضع الأطباء الأجانب فى الركن المظلم ، عندما امتدت أنامله الذهبية بمشرطه الساحر لتجرى عملية ناجحةً لسلطان مصر فى زمانه السلطان حسين كامل . . كانت له حكاية أخرى مع الملك فؤاد ملك مصر .

ونحن حين نرى مبانى قصر العينى الجديد يجب أن نتذكر أن الذى أقام هذا المستشفى الضخم هو الدكتور على باشا إبراهيم . ولو أنصفنا الرجل لأقمنا له تمثالاً وسط هذه الأجنحة الممتدة التى مرت فوقها لمسات يده الحانية ذات الأنامل الذهبية الساحرة .

الدكتور على باشا إبراهيم عندما أراد بناء قصر العينى الجديد ، استطاع إقامة البناء .

هذا النحيل الأسمر ، الأنيق فى ثيابه ، الوئيد فى خطوته ، براق العينين فى نظرته ، هادئ اللمحات فى قسمات وجهه وملامح سحنته .

كنت كلما رأيته تخيلت أنه عابد خارج من صومعة ، فقد منحه الله من هدوء النفس والحس مالا يمنحه إلا لعباده الأتقياء .

ياويح نفسى . . كم رأيت عبادًا أشقياء ، يركعون ويسجدون . ولا يمنحهم الله النقاء بل يرتسم على وجوههم الشقاء .

كان هذا الرجل تقيا صفيا ، منحه الله هذا السر الذى حمله ابن سينا وابن طفيل وابن رشد وكلهم أطباء وهم فلاسفة الإسلام ، ثم مضى الدكتور على باشا إبراهيم فى حياتنا المعاصرة فلم نقف عند حياته كما ينبغى الوقوف لأننا مازلنا نحتفل بحياة راقصة أو مطرب أو ممثل أو ملحن .

ونحن لا نرفض الاحتفال بأصحاب الفن من هؤلاء . .

ولكننا نرفض أن نجعل لهم القيادة الفكرية فى المجتمع ؛ لأنهم مهما بلغ شأنهم ، وعلا قدرهم ، ليسوا إلا أدوات الترفيه عن حياتنا ، ولم تكن لهم ، ولن تكون لهم قيادة الفكر ، حتى لو أصبح المسرح أو الغناء أو الرقص بل كل الفنون فى الدنيا لها فلسفات ، أو لها تعبير عن فلسفات .

إن قيادة الفكر عند أصحاب الفكر .

كان المعلم الثانى فى العالم بعد أرسطو هو الفيلسوف المسلم « أبو نصر الفارابى » وكان موسيقيًّا يستطيع بعزفه أن ينيم الناس ويوقظهم ويضحكهم ويبكيهم ، ولكن الذى بقى له فى رحلة حياته هو كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) الذى وضح فيه صورة المجتمع الإسلامى المثالى ، وقلده فى ذلك فلاسفة أوربا عندما كتبوا عن هذه (المدن الفاضلة) أو (يوتوبيا) وأشهرهم (السير توماس مور) الإنجليزى الشهير .

لقد حرك الدكتور على باشا إبراهيم الشجون فى نفسى ، وليس هذا بسبب أن الرجل لم ينل

حقه من المعرفة والتعريف فى حياتنا المعاصرة ، فهذه كأس دائرة على أمثاله من العظماء كما يقول المثل الشعبى المصرى ، ولكن السبب الحقيق هو أن حكايته فى بناء قصر العينى الجديد كانت أسطورة . وقد قلت لك إن الرجل كان أسطورة .

ولكن . . .

إن كل ما كتبته لك عن الفنون والعلوم والإنسانية فى حياة على إبراهيم ليس إلا تفسيرًا ضئيلاً لملامح هذه الشخصية الفريدة القادرة النادرة .

مبضع الجراح . . وحب الطرب والغناء . . وهواية التحف والسجاجيد القديمة . . وما ظهر من حياة الرجل . . وما خفى من حياته .

كل هذا يؤدى إلى فلسفته الإنسانية الرفيعة ، وأحاسيسه ومشاعره الرقيقة التى جعلته يفكر فى بناء قصر العينى الجديد عندما أحس بأن قصر العينى القديم لم يعد صالحًا للبقاء والحياة .

كان ذلك منذ نصف قرن من الزمان . . فى سنة ١٩٣٠ .

خلال تلك الفترة أقام الأمير محمد على توفيق قصر المنيل على الطراز الأندلسى ، وهو القصر الشهير الذى نراه ، وقد أصبح متحفًا .

كان الأمير محمد على توفيق وهو ابن الخديوى توفيق أكبر أفراد أسرة محمد على ، وكان طامعًا فى العرش ، مما أثار عمّه الملك فؤاد الذى كان يخشى على وليّ عهده الأمير فاروق من الأمير محمد على توفيق .

وقرر الملك فؤاد إقامة قصر لولى عهده فاروق فى مواجهة قصر محمد على توفيق فى المنيل .

وكان الدكتور على إبراهيم باشا عميد كلية طب قصر العينى ينظر إلى هذه الأرض الشاسعة من نوافذ غرف المرضى فى قصر العينى القديم .

كان يحلم بإقامة مستشفى جديد فوق هذه الأرض التى قرر الملك فؤاد إقامة قصر ولى عهده عليها .

ولكن . . كيف ؟

وعند كان الدكتور يتحدث مع زملائه عن أحلامه فى إقامة المستشفى الجديد فوق هذه الأرض المخصصة لإقامة قصر ولى العهد . ، كانوا يظنون أنه يسبح فى خيالات لن تتحقق .

ثم جاءت اللحظة التى حققت أحلام الدكتور على إبراهيم ، فقد مرض الملك فؤاد ، واستدعى الدكتور لعلاجه ، وشفى الملك ، وكانت الأحاديث لا تنقطع بينه وبين الدكتور على

إبراهيم الذى استطاع بلباقته وذكائه إقناع الملك بالتنازل عن الأرض التى خصصها لبناء قصر ولى العهد . . لقصر العينى .

لقد عجب الناس عندما أعلن القصر الملكى تنازله عن أرض كانت مخصصة لبناء قصر ملكى لقصر العينى .

ولم يقل الدكتور على إبراهيم شيئا ، بعد أن كسب الجولة الأولى ، وأصبحت الأرض فى يده ، وبقيت جولة أخرى أصعب وأشد ، فقد كان محتاجًا لمليون جنيه لبناء المستشفى .

فى تلك الأيام خلال سنة ١٩٣٠ وما بعدها ، كانت الأزمة المالية الطاحنة قد جعلت حكومة إسماعيل صدقى باشا تضيق تضييقا شديدًا فى مصروفات الحكومة ، ولم يكن فى إمكانها الموافقة على تخصيص مليون جنيه لبناء مستشفى قصر العينى الجديد .

وإلى جانب الأزمة الاقتصادية الخانقة ، كان الصراع السياسى فى عهد وزارة إسماعيل صدقى شديدًا عنيفًا ، فقد تصدى له الحزبان الكبيران فى ذلك الوقت وهما حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين ، ولم يكن يمر يوم واحد بغير وقوع حوادث واضطرابات .

لم تكن الظروف مواتية حتى لتقديم طلب إلى الحكومة لبناء مستشفى قصر العينى الجديد .

ولكن الدكتور على إبراهيم صاحب العينين النفاذتين والملامح الصامتة ، كان يمنى نفسه بالحصول على المليون جنيه من إسماعيل صدقى .

ألم أقل لك إن هذا الجراح هاوى السجاجيد القديمة كان أسطورة ؟

مرض إسماعيل صدقى ورقد فى فراشه بين اليأس والأمل ، ودخل الدكتور على باشا إبراهيم غرفة رئيس الوزراء المريض ، وعالجه ، وطمأنه حتى شفاه الله .

وقال إسماعيل صدقى :

– كم أجر الكشف فى المنزل ياباشا ؟

وقال الدكتور على باشا إبراهيم :

– مليون جنيه . .

وظن إسماعيل صدقى أن الدكتور يمزح . . ولكن على باشا إبراهيم استرسل فى شرح موضوع المليون جنيه ، وظل إسماعيل صدقى يستمع للشرح .

مليون جنيه تستطيع أن تشفى بها مليون مريض .

وكان إسماعيل صدقى فى فترة النقاهة ، وقد عاد إلى الحياة بعد أن رأى الموت بعينيه . . .

تمامًا كما حدث للملك فؤاد . الذى تنازل عن أرض قصر ولى العهد لقصر العينى .

ثم قال إسماعيل صدق .

أعدك ياباشا بأن أدّبر لك المليون جنيه عندما أعود إلى مكتبى فى رياسة مجلس الوزراء .

وقال الدكتور على باشا إبراهيم .

– وعد الحرّ دَيْنٌ عليه يادولة الباشا .

وحصل الدكتور على إبراهيم على المليون جنيه ، وأقام هذا البناء العظيم . . . قصر العينى الجديد .

بقى شىء واحد لابد أن أحدثك عنه .

قصيدة شوقى التى قالها فى هذا الجراح العبقرى . . إنها إحدى روائع شوقى الذى يقول لنا عن الدكتور على إبراهيم . .

نال عرش الطب من أمحوتب وتلقى من يديه الصولجانا
خاشعا لله ، لم يزه ، ولم يرهق النفس اغترارًا وافتتانا
لو يرى الله بمصباح لما كان إلا العلم ، جل الله شانا
ياطرازًا يبعث الله به فى نواحى ملكه آناً . . فآنا

هذا هو الدكتور على باشا إبراهيم الذى أرى صورته فى غدواتى وروحاتى ، وأنا أرى قصر العينى القديم يعاد بناؤه من جديد .

هذا الجراح العبقرى هاوى السجاجيد القديمة قبس من روح مصر . .

كان مثل (أمحوتب) الطبيب المصرى القديم كما قال عنه أمير الشعراء . .

تلقى صولجان الطب من يدى أمحوتب . . . ثم سلم الصولجان لأولئك الذين يعيدون البناء من جديد . .

الشيخ . . . أمين الخولى

فكرة ممتدة من بغداد إلى الرباط

فى التاسع من مارس ١٩٦٦ انطفأ السراج الذى أضاء الطريق لكوكبة من المفكرين والكتاب والشعراء . . وأغمض الشيخ عينيه اللتين لم تغمضا أبدًا على ذل أو هوان ، ولم تغمضا أبدًا عن كشف الأخطاء ورؤية الحق والصواب .

كان عذبًا فى حديثه وصحبته .

كان عنيفًا فى جراءته . . رقيقًا .

صحبته ثلاثين عامًا صحبة الابن الصديق كما كان يحلو له أن يلقبنى وعرفته فى السراء والضراء – كما يقولون – فما رأيت فيه اختلافا فهو قوة دائمة ، وشعلة متوهجة ، وإقدام لا يتردد .

بدأ وانتهى قوى الفتوة ، شديد العزم ، واثق الفكر ، واضح الطريق فلم تهن قواه طوال السنين ، ولم تدركه الشيخوخة حتى أغمض عينيه ، فكان شبابًا دائمًا ، وهذا سر يهبه الله لعباده القادرين الذين اصطفاهم للأعمال العظيمة فى حياة البشر.

وكان آخر كتاب ألفه الشيخ هو أول جزء من كتاب (المجددون فى الإسلام) . .

وكأنه أحس بما سيجرى فى دار الإسلام عند نهايات القرن الرابع عشر من تاريخ الهجرة ، وقبل أن يطل علينا القرن الخامس عشر الهجرى .

واليوم أريد أن أحدثك عنه وهو ثاوٍ فى مرقده فى شوشاى إحدى قرى المنوفية أخصب أرض فى مصر.

هناك ولد فى اليوم الأول من مايو ١٨٩٥ . . وهناك ثوى فى اليوم التاسع من مارس ١٩٦٦ .

رحلة طولها إحدى وسبعين سنةً فى حياة الإنسان . . وقد تطول هذه الرحلات الترابية أو تقصر ، وكل رحلة لها بداية ونهاية . وتبقى بعد ذلك قيمة الرحلة . .

وكانت رحلته عظيمةً فى حب الحياة .

قال الدكتور شكرى عياد ونحن نودع الشيخ الوداع الأخير :

– اليوم . . مات أبى .

وأحس الأبناء جميعًا بأنهم يتامى ، وهم الذين ظللت أفكارهم وآدابهم عالم الفكر فى مصر وخارج مصر .

علمهم الشيخ حب الحياة .

شعراء وكتاب وأدباء وأساتذة جامعات أصبحوا يتامى فى اللحظة التى هجع فيها الشيخ الثائر الذى لم يعرف الهدوء إلى مرقده فى التراب .

ماذا كان يصنع أمين الخولى ؟ .

أقول لك فى البداية إن تلاميذه تعارفوا فيما بينهم على أن يعرفوه بلقب (الشيخ) . . فإذا قيل (الشيخ) فهو أستاذهم أمين الخولى ، وهذا اللقب له معنى حضارة الإسلام ، فهناك الشيخ الرئيس ابن سينا ، وعندنا الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، والشيخ الأكبر الثانى جمال الدين الأفغانى . وتلميذه الأستاذ الإمام . . الشيخ محمد عبده .

وظل أمين الخولى محتفظًا لنفسه بزى الشيخ ولقب الشيخ على غير ما تعارف عليه معظم أبناء جيله الذين خلعوا الزى ، وأحبوا لقب (الدكتور) . . وكان هو الذى يمنح درجات الدكتوراه ، ولا يحمل لقب (دكتور) .

حكاية تستحق أن تذكر . . ولكننى أحدثك عن الشيخ .

حفظ أمين الخولى القرآن الكريم فى قريته (شوشاى) ، وجاء إلى القاهرة طلبًا للعلم ، وأقام فى بيت خاله الشيخ على عامر الذى أراد توجيهه للدراسة فى الأزهر الشريف ؟ ولكنه أصر على دخول مدرسة ماهر على مقربة من حى القلعة ، وكانت مدرسةً دينيةً إسلاميةً تعلم تلاميذها بأسلوب عصرى حديث يجمع بين ثقافة الأزهر والعلوم الحديثة ، وهى من أعجب المدارس التى شاهدتها فى حياتى .

ثم التحق بمدرسة القضاء الشرعى حيث أتم دراسته فى قسميها الابتدائى والعالى ، وتخرج فيها بتفوق حتى عين مدرسًا فيها سنة ١٩٢٠ . كما أسندت إليه رياسة تحرير مجلة (القضاء الشرعى) التى كانت تصدر عن هذه المدرسة .

وخلال هذه الفترة الباكرة من حياته اشترك فى ثورة ١٩١٩ ، وكان من أعضاء لجان

الطلبة التى كانت تقوم بتنظيم الأعمال الثورية ، فألف نشيدًا من أناشيد هذه الثورة تقول كلماته :

اضربونا بالمدافع ما لأمر الله دافع
اضربونا بالرصاص فالحياة فى القصاص

وكانت للشيخ صداقات مع رجال الثورة ، ومنهم محمود فهمى النقراشى الذى كان شيخنا دائم الود له ، وكان يزوره كثيرًا فى مكتبه عندما أصبح رئيس وزراء مصر ، وكان النقراشى يدعوه لزيارته ، ويحدد له موعدًا ثابتًا وسط مشاغل رئيس الوزراء الكثيرة ، ويمضى معه فى الحديث الطويل الذى يمتد أحيانًا إلى ساعتين .

ومن المفارقات العجيبة أن النقراشى كان يدعو عباس محمود العقاد أيضًا لمثل هذا اللقاء . ولم أر أحدًا من كبار الأساتذة يحتفى به فى مكتب رئيس الوزراء مثل الخولى والعقاد . . وكنت فى تلك الفترة موظفًا فى رياسة مجلس الوزراء .

حدث مرةً أن تأخر النقراشى عن لقاء الشيخ عشر دقائق بسبب موعد سابق طال أكثر من مدته وكان شيخنا يجلس معى ، فلم يلبث أن نظر فى ساعته ، ثم هب واقفًا ، ومسبحته فى يده ، وقال غاضبًا :

– لقد هنا هنا .

ومضى مسرعًا نحو الباب . . وانطلق إلى سيارته .

ثم جاء الحاجب يسأل :

– أين مولانا الشيخ ؟ الباشا يسأل عنه .

وقلت للحاجب :

– مولانا خرج لأن موعد المقابلة تأخر .

وكان يوماً عصيبًا ، فقد لامنى المرحوم الأستاذ حافظ جلال مدير مكتب النقراشى باشا على ترك الشيخ يخرج ، وقال إن الباشا فى غاية الألم والضيق ؛ لأنه أعد نفسه للحوار مع الشيخ ، وطلب منى أن أتصل بشيخى وأعتذر له وأطلب منه أن يحدد هو موعد الزيارة ، وأنها ستتم حتمًا لو كان هناك اجتماع لمجلس الوزراء .

ونقلت للشيخ الرسالة ، فضحك ضحكته المجلجلة ، ولمع وميض كالبرق فى عينيه ، وقال :

– لست طالب منفعة . . أنا أنفع بما أعلم .

فنى تلك الأيام كنت أكتب فى جريدة (البلاغ) وهى جريدة وفدية ، وكان السعديون قد أصدروا جريدة (الأساس) معارضة لحزب الوفد ، ورأى الأستاذ عبد الرحمن الجديلى مدير الشئون الدينية فى رياسة مجلس الوزراء منعى من الكتابة فى (البلاغ) لأننى موظف فى رياسة مجلس الوزراء ، وفى مركز حساس ويشتم منى أننى أعارض حكومة النقراشى وأنا فى مكتبه ، ولمح لى بالكتابة فى جريدة الأساس . . ثم تفجرت الأزمه عندما رفضت ، وقدمت استقالتى .

رويت القصة لشيخى ، فابتسم ولم يقل شيئًا .

ثم قال لى :

– أبنائى دائمًا على حق . . لو عرفت أنك على باطل ما قلت لك إنك ابنى الصديق .

وفى اليوم التالى قال لى الأستاذ حافظ جلال وهو يلوح بورقة استقالتى :

– الباشا عاتب عليك بسبب هذه الورقة . . تمزقها أنت أم تسمح لى بأن أمزقها ؟

. . الشيخ الجديلى مدير الشئون الدينية ولا شأن له بك ، ولا شأن لك به .

ثم عرفت أن شيخى حكى قصتى للنقراشى باشا .

آه من ذكريات الماضى .

لقد اكتشفت عندما اطلعت على ملف خدمتى فى الحكومة اكتشافا أذهلنى ، فقد عينت فى إدارة المطبوعات بوزارة الداخلية فى نوفمبر ١٩٤٣ . فأرسل أستاذى الدكتور طه حسين بطاقةً من بطاقاته الشخصية إلى المرحوم حسن فهمى رفعت باشا وكيل الداخلية ويوصيه فيها بتلميذه . . وعرفت بعد سنين طوال لماذا استدعانى سعادة الباشا إلى مكتبه ، فاشتغلت معه أكثر من ستة أشهر عدت بعدها إلى العمل فى الصحافة والمطبوعات لأننى لم أعجب بالعمل فى مكتب وكيل وزارة الداخلية الذى كان يحكم مصر من وراء ستار .

ما أحلى الذكريات لو تعلمون .

المهم . .

مضى أمين الخولى كالشهاب الثاقب . فأصبح إمامًا للمفوضية المصرية فى روما ، وإمامًا للسفارة المصرية فى برلين ، وتعلم الإيطالية والألمانية ، وكان ذلك بين عامى ١٩٢٣ و ١٩٢٧ ، عندما عاد إلى مصر مدرسًا للقضاء الشرعى ، حتى عين مدرسًا بكلية الآداب فى

جامعة القاهرة فى ٣ نوفبر ١٩٢٨ بعد أن أغلقت مدرسة القضاء الشرعى أبوابها .

ولكن . . هناك أحداثًا فكرية خطيرة فى حياة الشيخ خلال هذه الفترة الأولى من انطلاقه ، فقد أصبح مؤلفا مسرحيا لفرقة أولاد عكاشة ، فألف لها عددًا من المسرحيات من أشهرها مسرحية (الراهب المتنكر) التى عرضت فى مسرح الأزبكية وقدمت على خشبة الأوبرا بغير اسم مؤلفها ، فقد اختار الشيخ لنفسه اسم (كاتب متنكر) ، ؛ لأنه لم يكن فى استطاعة الشيخ من قضاة الشرع أن يكتب للمسرح ، أو يكتب اسمه فى إعلانات مسرحية .

لقد نشرت النص الكامل لهذه المسرحية على صفحات مجلة (الأدب) بعد وفاة شيخى . . وعندما أعدت قراءتها مرةً بعد مرة عجبت كيف استطاع إقامة هذا البناء الدرامى فى هذه السن الباكرة ، وهو لم يدرس فن المسرح ، ولم تسبق له تجربة فى كتابة المسرحية ، بل إنه خلال تجربته المسرحية الرائدة ، لم يكن هناك تأليف مسرحى ، بل كانت هناك ترجمة لبعض المسرحيات أو اقتباس وتمصير لمسرحيات أخرى ، وكان (محمد تيمور) أعظم كتاب المسرح شأنا عندما ألف مسرحية (عبد الستار أفندى) ثم اقتبس مسرحية (الرجل ذو اللحية الزرقاء) وجعلها مسرحية (العشرة الطيبة) التى لحنها سيد درويش .

إن النص المنشور لمسرحية (الراهب المتنكر) التى كتبها الشيخ فى العشرينيات يستحق منا الدراسة والتأمل ؛ لأنه نص تاريخى فى مراحل تطور المسرح العربى . وهو إحدى الدلالات الفنية الصادقة التى عبر عنها الشيخ خلال فترة التأهيل لمفهوم : الفن والحياة ، وهو شعار جماعة الأمناء التى كونها للتعبير عن الصدق الفنى الذى يستلهم القيم الحقيقية من الواقع ليرفعها إلى مستوى الفن الرفيع .

وهذه النظرة أكدها الشيخ فى مفهوم الكلمة والنغمة . . والصورة والتمثال . . وفى كل فن سمعى أو بصرى ، ثم ارتبط بالمصرية فى عراقتها الفنية ، حتى جعل شعار الأمناء زهرة لوتس .

وأقول لك إن شيخى كان شديد الحب للرسم والموسيقى ، وذات يوم تخيل إعادةِ بناء قريته شوشاى ، فخطط لها رسما على شكل دائرة ، فى وسطها مسجد ، ومن حول الدائرة المحيطة بالمسجد أبنية المنافع العامة من مدارس ومستشفيات ، ودار قضاء أو دار شرطة أو مركز تموين ، إلى غير ذلك ، وتخرج من مركز الدائرة شوارع القرية وبينها الحوارى . . وكلما اتسع قطر الدائرة يحدث الاتساع والنماء فى القرية .

هذا البناء الدائرى للقرية المصرية يحمل معنى النمو المتزايد الذى لا يصطدم بالهندسة المستقيمة الممتدة ، ويحمل أيضًا تركيز الخدمات فى مركز الدائرة ، وهى نظرية فلسفية هندسية فى بناء القرى المصرية على نظام قويم يمتد بلا خلل .

ومن هذا المفهوم الحضارى الممتد فى قطر الدائرة تستطيع إدراك القيمة الفكرية للشيخ فى مفاهيم التجديد والتطور والنماء ، وهى ألفاظ فلسفية عميقة المدلول فى تفكير شيخ الأمناء . وقد عبر عنها فى كراسات صغيرة عند بدايات رحلته الفكرية فى أول محاولات التجديد ، وكان شديد الغموض عند من لايدركون معنى تحديد اللفظ فى التعبير الفلسفى المقصود من المعنى ، كما كان شديد الوضوح عند أولئك الذين يدركون معنى تحديد اللفظ فى التعبير عن المعنى .

والأمر كله واضح ، فقد كان سقراط يقول لتلاميذه :

– حددوا ألفاظكم . . أى كلماتكم المنطوقة التى تعبر عن المعنى المقصود .

وكان الشيخ شديد الحرص على تحديد الألفاظ شديد الدّقة فى اختيار كل كلمة تعبّر عن فكرة . . وهذا يتنافى أحيانًا مع البلاغة وهو أستاذ من أساتذتها الكبار .

عندما يدخل العلم مع الفن يحدث الصدام ؛ لأن العلم له قواعد ونظريات ، والفن له انطلاقات وشطحات .

وكان الشيخ فنانًا ، ولكنه كان يحكم على الفن بمقياس العلم ولعله تأثر فى ذلك بالفيلسوف الإيطالى (بنديتو كروتشى) صاحب نظرية الفن الواحد . . حتى أنه أخضع اللوحات الفنية لمقياس الرسم الهندسى ، فرسم عليها خطوطا بالطول والعرض لمعرفة النسب التى تحدد مكان الجمال فى كل لوحة . . وقد حدثت شيخى عن هذه الأمور لأفهم معنى الفن والحياة ، وكنت قد قرأت كتاب (كروتشى) عن الفن .

وخلال مناقشات طويلة أدركت أن الشيخ يؤمن بنظرية العلم والفن ، وهى نظرية الإيطالى (بندتو كروتشى) التى تقول بوحدة الفن : كلمة ونغمة وصورة وتمثالاً ، وتدعو إلى تحليل الأعمال الفنية عن طريق العلم .

على سبيل المثال . .

تصدى إبراهيم عبد القادر المازنى لنقد فنى عندما أقام المثال مختار تمثال نهضة مصر ، وقال المازنى إن الأسد الذى نحته مختار فيه أخطاء فنية من ناحية جلوسه وامتداد رجليه .

وتصدى عباس محمود العقاد لنقد أغانى سيد درويش ، وأبدى إعجابه بالألحان الجماعية

التى ألفها الموسيقار ، ورفض الأنغام الفردية التى كانت ولا زالت سائدة فى الغناء المصرى .

وهكذا كانت نظرية الفن والحياة بدايةً حقيقيةً للنهضة الحديثة ، وقد اتخذ الشيخ هاتين الكلمتين شعارًا لجماعتنا . . جماعة الأمناء . . ثم جعل للأمين شعارًا هو : كريم على نفسى ، وهو شعار لا يحتاج إلى شرح أو تعليق ، فمن كرمت عليه نفسه ، هانت أمام عينيه كل مذلّة تذل أعناق الرجال ، فلا حرص إلا على كرامة النفس .

ثم كان العمل العظيم الذى قام به الشيخ فى حياتنا المعاصرة ولخصه فى فكرته : مناهج التجديد . . وظل طوال حياته يدعو إلى تأصيل هذه المناهج فى دروسه الجامعية ، وأبحاثه ودراساته التى قدمها فى مصر وخارج مصر ، وكأنه موكل بالدفاع عن تحكيم العقل فى إعادة صنع الحياة ، حتى اعتقد بعض الناس أن الشيخ صاحب دعوة عقلانية لا تصل إلى القلب والعاطفة ، مع أنه كان – طيب الله مثواه – من أعظم الناس قلبًا حتى يصبح نهرًا رقراقًا ، ونسيمًا لطيفًا يملأ حياتنا بالعطف والود ، ويفتح عيوننا على مباهج الحياة .

كان قاسيًا فى قوته ، لطيفا فى محبته .

عينان نافذتان ، وضحكة مجلجلة ، وبسمة باهرة . . عنيف فى رقة إلّا أن تمس طرف ثوبه ، أو تحاول الانتقاص من كرامة نفسه .

وهو صاحب مذهب فى الجدل يشتعل من نور عقل قادر يضىء ولا يحرق ، يصادم ولا يقتل .

عندما حدثت بينه وبين العقاد المعركة الشهيرة على صفحات جريدة الأخبار القاهرية ، كان ظاهرها الصراع بين فكرين ، وكان جوهرها الخلاف حول فن كتابة التراجم ، فقد اتخذ العقاد فكرة مفتاح الشخصية فى كتابة العبقريات الإسلامية الشهيرة ، ورد عليه الشيخ طبقا لنظرية المنهج التجديدى فى كتاب (مالك بن أنس . . ترجمة محررة) ، وهذا الكتاب يوضح منهج الشيخ فى كتابة تراجم الأشخاص بأسلوب علمى شامل متكامل يبدأ مع الشخصية المدروسة منذ كانت جنينا ، حتى يصل بها إلى مكانها فى الحياة .

منهجان مختلفان بين أمين الخولى وعباس محمود العقاد . . والخلاف بينهما أساسى ، حيث لا لقاء عند نقطة واحدة .

هذه المعركة ليست عداءً بين الخولى والعقاد ، ولكنها خصومة حول رأى . . ونحن نحترم العقاد ولا ننكر قيمته الفكرية العظيمة ، ولكننا نخاصمه فى آرائه بلا حقد أو كراهية ، ومع

أننا ننكر عليه حياته السياسية المتقلبة لكننا نهمل هذه الحياة السياسية وننظر إليه كمفكر رائد وعظيم . . ولم يفهم العقاديون هذه الأفكار حتى اليوم ، ولا زلنا نتعرض لهجومهم بسبب سوء الفهم أو سوء التفاهم .

لا أريد أن أطيل معك الحديث حول هذه القضية .

هناك قضية أهم وأخطر . . وكان للشيخ فيها رأى . . وهى قضية تجديد الإسلام ؟ وكان آخر كتبه هو كتاب (المجددون فى الإسلام) ، وقد لا يعلم كثيرون من المعاصرين أن الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر ، سئل عندما عزلوه عن مشيخة الأزهر ومشيخة الإسلام عن الرجل الذى ترشحه شيخًا للإسلام وشيخًا للأزهر ، فقال :

– الشيخ أمين الخولى .

ولم يصل الشيخ إلى مشيخة الأزهر ، وياليته وصل ؛ ليجعل من الأزهر جامعة الإسلام . فقد كان قادرًا بمنهجه التجديدى على متابعة أفكار الأستاذ محمد عبده وأستاذه الشيخ الأكبر جمال الدين الأفغانى .

أقول لك فى إيجاز شديد . .

* الشيخ هو صاحب منهج تجديد الدراسة القرآنية على أساس علمى عصرى ، يدرك المفهوم العلمى والمفهوم البيانى فى إعجاز القرآن . . وهو صاحب فكرة الفهم الواعى الدقيق للكلمة القرآنية فى دورانها مع كل آية من آيات الكتاب الكريم .

* الشيخ هو صاحب منهج تجديد البلاغة والنحو ، وكان هدفه فى التجديد هو فهم المعجزة القرآنية فهمًا بلاغيًا ولغويًا يمهد للفهم الموضوعى للقرآن فهمًا صحيحًا يحقق معنى التحدى القائم الدائم بأن يأتوا بسورة من مثله تتكون من ثلاث آيات وهى سورة الكوثر ﴿إنّا أعطيناك الكوثر. فصلِّ لربك وانحر. إن شانئك هو الأبْتر﴾.

* الشيخ هو صاحب فكرة تجديد الإسلام فى العصر الحاضر ، وقد وضح نظريته فى أحاديثه الإذاعية الشهيرة (من هدى القرآن) التى ألقاها من إذاعة القاهرة ، وجمعها فى كتب من أشهرها كتاب (فى أموالهم) الذى وضح النظرية الإسلامية فى بناء الاقتصاد الإسلامى فى العصر الحاضر ، وأسسه ومبادئه فى كتاب (المجددون فى الإسلام) الذى أكد نظرية الشيخ فى أن التجديد هو قتل القديم فهما ودرسا . . فالتجديد الإسلامى المعاصر لابد له من عودة إلى السلفية حتى تصل إلى المستقبلية .

لقد خضت معك بحرا زاخرا فى سطور قليلة لا تحوى فكر الشيخ إلا بمقدار . . ولكن ماذا أصنع ؟

أنا أكتب هذه الكلمات لأتذكر بعض ملامح هذه الشخصية القادرة الباهرة . . شخصية شيخى الذى عشت معه أكثر من ثلاثين عامًا .

وأنا أعتذر لشيخى لأننى لم أكتب (حياته) . . لازلت خائفا من كتابة حياته . . كيف أكتب حياة العاصفة والنسيم . . حياة العقل والقلب . . حياة الجبل الأشم والنهر المتدفق ؟

كيف أكتب حياة أمين الخولى ؟

قلت يوم أغمض عينيه إنه فكر لا يموت .

وأقول يوم أحنى جبهتى لذكراه : إنه فكر لا يموت .

فهرس

رقم الإيداع		١٩٨٥ / ٣٠٠٦
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٢٩٢-X	ISBN

١ / ٨٢ / ٢٩٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



هذا الكتاب

يضم هذا الكتاب كوكبة من الشخصيات التى تمثل التاريخ الفكرى للشعب المصرى فى العصر الحديث .

وقد حرص المؤلف فى اختياره للشخصيات على إبراز ذلك الدور الذى قامت به كل شخصية والذى استطاع أن يؤثر فى مسيرة التغيير ، ويحل بعض المشاكل الاجتماعية والسياسية والثقافية وغيرها . .

وقد اختار المؤلف تلك المرحلة التاريخية التى تبدأ من عصر محمد على وحتى تاريخ قريب يمتد إلى ما بعد ثورة ٢٣ يوليو ، مؤكدا دور كل شخصية شاركت فى قضية الصراع بين السلطة والفكر فى مواجهة القوى الأجنبية ، وغيرها . .

١٠ / ١٧٨٨